الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

الأزهر

في ألف عام

مكتبة الكليات الأزهرية
القاهرة

...تب
بيروت

الأزهر

في ألف عام

بسم الله الرحمن الرحيم

بيروت - المزرعة، بناية الإيمان - الطابق الأول - ص.ب ٨٧٢٣/٧
تلفون: ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً: نابعلبكي - تلكس: ٢٣٣٩٠

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

الأزهر

في ألف عام

الجزء الأول

مكتبة الكليات الأزهرية
القاهرة

عالم الكتب
بيروت

الطبعة الثانية
(مزيدة ومنقحة)
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء المفكرين في الأزهر

كتب عباس محمود العقاد عن الأزهر :

● « يكفي تاريخ كل فترة من حياة هذا المعهد الخالد للتعريف بوظيفته التي استقر عليها، وبيان مكانته التي تبوأها من الأمة في أيام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلين عليها ، فقد تقرر بحكم العرف والتقليد وحكم العقيدة والسمعة أنه صوت الأمة الذي يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين . وأنه ملاذ القوة الروحية في نفوس أبناء الأمة وفي نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها . . »

وكتبت دائرة معارف كوليرز «Colliers» :

● . . . ويفد إلى الأزهر الألوف من دول العالم الإسلامي ويعتبر أقدم جامعة في العالم تدرس علوم القرآن والشريعة مع العلوم التطبيقية والأكاديمية .

وقال د. ثروت عكاشة وزير الثقافة في مصر في الندوة الدولية للعيد الألفي للقاهرة المنعقدة في مارس ١٩٦٩ .

ولقد هُيىء لهذه المدينة منذ إنشائها أن تقوم فيها أقدم جامعة في العالم وهي جامعة الأزهر التي كانت منذ إنشائها منهلا للثقافة الدينية ، مكنت القاهرة بذلك أن تحمي لواء الثقافة الدينية بين شعوب العالم الإسلامي . كما كانت تلك الجامعة الأزهرية مشعلاً للفكر . فأيقظت

الرأي وأنارت الطريق أمام المفكرين . وكذلك كانت المنبعث للنهضة العربية في القرن الماضي . وأصبحت كعبة للقاصدين في الشرق والغرب .

ثم قال: إن مما زاد من شأنها وقوعها في منطقة بين بحرين وبين قارتين ولقد مكن لها هذا الموقع أن تصبح حاضرة من حواضر العالم منذ زمن قديم وأن تتجمع فيها ثقافات فرعونية وأغريقية ولاتينية وبيزنطية وإسلامية ومسيحية . فاكتسبت بهذا مكانة ومنزلة على مر السنين .

يقول الدكتور بيير دودج P. Dodge في كتابه عن «الأزهر»:

● « إن الأزهر ظاهرة ظهرت مع الزمن شيئاً فشيئا ، عشرة قرون قام فيها حارساً أميناً على الدين الاسلامي وعلى اللغة العربية » :

وكتب الشيخ علي الطنطاوي من علماء سوريا :

● « أولئكم علماء الأزهر ، وهل في الدنيا معهد علم له قدم الأزهر ، وعظمة الأزهر ، وأثر الأزهر في الفكر البشري وفي الحضارة الإنسانية؟

أي معهد يجر وراءه أمجاد الف سنة ؟ فالأزهر درة الدهر تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم . . »

وكتب الدكتور احمد زكي :

● « إني أدعو كل مفكر أن يفكر في الأزهر ، وكل كاتب أن يكتب في الأزهر مدرسة الإسلام الكبرى ، ليتحقق للأزهر ما يبتغيه وما ينبغي له على ضوء من الفكر هاد إن شاء الله » .

وكتبت دائرة معارف القرن العشرين : إن الجامع الأزهر هو أقدم جامعة علمية في العالم، ويعتبر مركزاً لنشر علوم القرآن عبر التاريخ.

* * *

تصـــدير

الأزهر هو النشيد الإسلامي الخالد ، الذي تردده الأجيال ، وتتناقله الألسن من جيل إلى جيل ، على مر العصور . .

والجامع الأزهر هو الدعامة الأولى التي استطاع الفاطميون من ألف سنة أن يحققوا بها أهدافهم الدينية والسياسية ، وأن يهيمنوا بها على الشعوب الاسلامية ؛ ولا يزال المحراب الرابع الذي يقدسه ويجله المسلمون كافة ، في مشارق الأرض ومغاربها .

والجامعة الأزهرية هي أقدم وأعرق الجامعات العلمية في العالم كله حتى اليوم .

وإن هذا التاريخ الخالد ، والتراث العظيم ، والمشاركة الجبارة ، للأزهر الشريف ، في الحياة المصرية والإسلامية عامة . . لهي الدافع الأكبر لنا على إخراج هذا التاريخ الحافل للأزهر ، في ذكرى بنائه الألفية .

وإنه لمن دواعي الفخر للأزهر الشريف أن ينظر إليه المسلمون كافة خلال العشرة القرون الماضية ، نظرة مملوءة بالإكبار والإجلال ، وأن يعتبروه كعبتهم الثانية التي استبدت بشرف المحافظة على التراث الإسلامي المجيد .

وفي هذه الدراسة تأريخ لحياة هذه الجامعة العريقة ، من شتى جوانبها الروحية والعقلية والعلمية والتاريخية . . والله ولي التوفيق ، وواهب السداد ، وما توفيقي إلا بالله . .

المؤلف

المقدمة

الأزهر في مقدمة الجامعات العلمية التي سارت مع التاريخ أجيالاً طوالاً ، فهو أطولها عمراً ، وأجلها أثراً في تاريخ الفكر العربي والإسلامي ؛ وإن ألف سنة أو تزيد ، قضاها الأزهر الجامعي ، وشاهد أحداثها الضخمة ، واشترك فيها في هذه الأحداث مؤثراً وموجهاً وبانياً ؛ لتاريخ ممعن في الطول ، لا يمكن استيعاب حياة جامعة علمية لم تدون أخبارها فيه ، إلا بمشقة وعسر وجهد وإرهاق شديد .. ولم تعمر في الشرق جامعات علمية غير الأزهر في القاهرة ، والزيتونة في تونس .. ولكن الأزهر ينفرد بضخامة ما أحدث من آثار في تاريخ العرب والمسلمين ، من شتى النواحي الروحية والثقافية والفكرية والسياسية والقومية والاجتماعية ، بل والاقتصادية كذلك .

والأزهر ــ طول عصور التاريخ ــ حارس التراث العربي ، ومجدد الثقافة الإسلامية ، والمشعل الذي يضيء ولا يخبو ، والملاذ الذي تهوي إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل ... والأزهر اليوم يتدثر برداء هذا المجد الخالد ، وذلك التاريخ القديم المجيد ، وإن كان قد أصبح وئيد الأثر والتأثير في حياة الناس ، في المادية المظلمة التي يعش فيها عصرنا الحاضر ، وسار وراء المتنافسين في ميدان التجديد والابتكار واليقظة الفكرية ، وقيدته أغلال ثقيلة من الركود وفقدان الحيوية ، وأساءت إلى سمعته بين الناس التيارات

السياسية التي كانت تدخل في العصور السابقة إلى أروقته ومحاريبه ومعاهده ، هدامة ، قاطعة ما بين الأزهر والناس من أسباب ، واستغلال بعض الناس له ، حفاظاً على منصب ، أو تملقاً لذي سلطان .

ولكن الأزهر ــ مع ما انتابه في بعض الأحايين من الحيرة والتردد ــ يسير اليوم منطلقاً إلى غاياته وأهدافه ومثله ، يتطلع في نظرة الواثق إلى المستقبل ، ويحتقر هؤلاء المترددين والحائرين والمعوقين ، وتنظر مئذنته الشماء في سخرية وإشفاق واحتقار ، إلى الذين يحاولون أن يبنوا وأن يهدموا ، فلا يستطيعون هدماً ولا بناء .

والأزهر اليوم يأبى النوم والحياة حوله صاخبة مضطربة متحركة ، وهو يكره اللهو وقد خلقه الله وخلق الحياة للعمل والجد والحيوية والنشاط .

وإذا كانت أول خطوة لفهم الإنسان لنفسه ولرسالته في الحياة هي أن يعرف تاريخه ، ويعي ماضيه ، ويدرس ما يتصل به من مقومات وخصائص وتراث ، فإن هذا الكتاب لمما يساعد على هذه الدراسة وتلك المعرفة وهذا الوعي ؛ التي هي العنصر الأول في البعث واليقظة والإحياء(١) . . وإني لأقدمه إلى القارىء ، معتزاً بأني أقدم له ثمرة مجهود شاق ، وبتوفيق الله الذي لا ينساني ، وما توفيقي إلا بالله . . .

المؤلف

---

(١) راجع كتابات لي عن الأزهر في :
- ص ١٤٧ قصص من التاريخ ــ للمؤلف : قصة الأزهر الجامعي بعد عشرين عاماً .
- ص ٥٠ نداء الحياة ــ للمؤلف : الأزهر الخالد .
- ص ٥٨ نداء الحياة ــ للمؤلف : الأزهر العظيم
- ص ٦٥ نداء الحياة ــ للمؤلف : رسالة الأزهر في القرن العشرين .
- ص ٥٥ فصول من الثقافة المعاصرة ــ رسالة الأزهر في النصف الثاني من القرن العشرين .

الباب الأول

الأزهر خلال التاريخ

الفصل الأول

مصر الإسلامية قبل إنشاء الأزهر

- ١ -

فتحت مصر في عهد عمر بن الخطاب عام ١٨ هـ على يد عمرو بن العاص ، وبنى بها مسجده الجامع المعروف اليوم باسم « جامع عمرو بن العاص » عام ٢١ هـ[١] ، واختط الجيزة في هذه السنة أيضاً ، كما اختط مدينة الفسطاط حول مسجده الجامع ، واتخذها عاصمة مصر ، وحفر خليج أمير المؤمنين الموصل للنيل بالبحر الأحمر[٢] .

ووفد كثير من القبائل العربية على مصر زرافات ووحدانا ، وأقاموا بها ، وذاعت اللغة العربية بين أهليها ، بسبب اتصال العرب بأهل مصر واختلاطهم بهم .

وقد استقر بمصر كثير من الصحابة[٣] ومشاهير التابعين[٤] وأتباع التابعين[٥] ، ونشأت بها طبقة من المجتهدين كالليث بن سعد المتوفى[٦]

---

(١) ١٣٣ جـ ٢ حسن المحاضرة .
(٢) راجع الجزء الأول من حسن المحاضرة للسيوطي .
(٣) راجع ٧٢ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها
(٤) راجع ١٠٥ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها
(٥) راجع ١١٢ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها
(٦) راجع جـ ١ ١٢٠ حسن المحاضرة وما بعدها

عام ١٧٥هـ ، وهاجر اليها الإمام الشافعي[١] المتوفى عام ٢٠٤ هـ ، وخلفه البويطي المصري المتوفى عام ٢٣١هـ[٢] .

وقد نمت الحركة الغلمية في الفسطاط ، وكثرت الحلقات في مسجد عمرو الذي كان مركزاً علمياً لنشر الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة . . وكبرت هذه الحركة العلمية واتسعت ، ونمت وازدهرت ، وأم هذا المسجد الجامع كثير من العلماء الأعلام ، والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الإسلامي ، وأدوا له خدمة صادقة في ميادين الدين والشريعة ، واللغة والعلوم . . وأشهر هؤلاء : عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن لهيعة ، ثم الليث بن سعد . . وقد كان للإمام محمد بن إدريس الشافعي بمسجد عمرو زاوية يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الفضلاء الذين دونوا مذهبه ، ونشروا علمه. : كالربيع بن سليمان ، والمازني ، والبويطي ، وغيرهم . . وكان أبو تمام يسقي الماء في جامع عمرو ، وفيه كانت دراسته الأولى .

وقد انتشر المذهب الشافعي في مصر على يدي الشافعي وتلاميذه ، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكي ، الذي كان أول من أدخله إلى مصر عثمان بن الحكم الجذامي[٣] المتوفى عام ١٦٣هـ . كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفي فيها على يد القاضي إسماعيل بن سميع الكندي[٤] ، الذي ولاه العباسيون قضاء مصر عام ١٦٤هـ ، فعمل على نشر مذهب أبي حنيفة فيها ، وكرهه المصريون من أجل ذلك كرهاً شديداً .

ويذكر السيوطي في كتابه حسن المحاضرة كثيراً ممن كانوا بمصر من

---

(١) راجع جـ ١٢١ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها ، ١٣٨ جـ ١ ابن خلكان .
(٢) راجع ١٢٣ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها .
(٣) ١٩٠ جـ ١ حسن المحاضرة .
(٤) ١٩٦ جـ ١ المرجع

حفاظ الحديث ونقاده[1] ، ومن المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ[2] ، كما يذكر من كان بها من الفقهاء الشافعية[3] والمالكية[4] والحنفية[5] . . أما الحنابلة فكانوا قليلين فيها ، ولم يسمع السيوطي كما يقول بخبرهم إلا في القرن السابع وما بعده[6] . . كما يذكر من كان بها من أئمة القراءات[7] ، ومن الصلحاء والزهاد والصوفية[8] وأئمة النحو واللغة[9] ، وأرباب المعقولات وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء والمنجمين[10]، وقد ظل التدريس في الجامع العتيق عامر الحلقات مدة طويلة .

خضعت مصر ـ أول ما خضعت للحكم الإسلامي ـ للخلفاء الراشدين ، ثم لدولة بني أمية ، ثم لدولة بني العباس ، وكان يختار لها ولاة يثق بهم الخلفاء

- ٢ -

واستقل بمصر أحمد بن طولون وكان قد ولي الحكم فيها سنة **٢٥٣** هـ ، ثم أضيفت إليه نيابة الشام والعواصم والثغور وإفريقية ، فأقام بها مدة طويلة، وبنى جامعه المشهور، وكان ميلاده في بغداد عام **٢١٤** وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح السماني عامل بخاري إلى المأمون .

---

(١) ١٤٥ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٢) ١٥٥ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٣) ١٦٧ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٤) ١٩٠ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٥) ١٩٧ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٦) ٢٠٥ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٧) ٢٠٧ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٨) ٢١٨ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(٩) ٢٢٨ وما بعدها جـ ١ حسن المحاضرة
(١٠) ٢٣٢ جـ ١ حسن المحاضرة وما بعدها

واستمر ابن طولون أميراً على مصر حتى مات بها عـام ٢٧٠ هـ[١]، وولي بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، وظـل أميراً عـلى مصر حتى قتـل عام ٢٨٢ هـ، وولي بعـده ابنه «جيش» فـأقام تسعـة أشهر قتـل بعدهـا، وخلفـه أخـوه هـارون بن خمـارويـه الـذي ظـل أميـراً عـلى مصـر حتى قتـل عـام ٢٩٢ هـ، وولي عمـه أبو المغانم شيبان، فورد من قبل المكتفي بعد اثني عشر يوماً من ولايته محمد بن سليمان الواثقي الـذي سلم إليه شيبـان الأمر، واستصفى أمـوال آل طولـون، وانقضت الدولة الطولونية، وامحت أيامها من تاريخ مصر السياسي .

كان من البدهي أن تكون عاصمة الملك في أيام الدولة الطولونية هي مدينة أحمد بـن طولون ، وأصبح مسجده المشهور محط الرحال ، ومجلس العلماء ، ومستقراً للحلقات العلمية الكثيرة التي تدرس فيها علوم الدين واللغة والأدب . . وظهر في مصر وفي حلقات مسجد أحمد بن طولون كثير من العلماء والأئمة والأدباء والشعراء .

ومع ذلك فقد ظل « مسجد عمرو » يؤدي رسالته بجانب المسجد الطولوني الكبير ، بل ظل إلى أمد قريب يعج بالحلقات والعلماء ، حتى لىروى أنه كان فيه قبل عام ٧٤٩هـ بضع وأربعون حلقة ، لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[٢] .

أُسس جامع ابن طولون [٢] عـام ٢٦٣هـ ، في مدينـة أحمد بن طولون التي سماها « القطائع » ، وفرغ من بنائه عام ٢٦٦هـ . وصلى فيه القاضي بكار إماماً وخطب فيه أبو يعقوب البلخي ، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي[٣] ، وظلت الحلقات العلمية فيه إلى أمـد بعيـد، فكـانت فيـه دروس للتفسـير والحـديـث والفـقـه عـلى

---

(١) راجع ٩ و١٠ جـ ٢ حسن المحاضرة .
(٢) ١٣٦ جـ ٢ حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧
(٣) ١٣٧ جـ ٢ المرجع السابق

المذاهب الأربعة، والقـراءات والطب والميقـات[١] . . وكان أعمـر ما يكـون في دولة بني طولون .

- ٣ -

وفي عام ٣٢١هـ ولي على مصر من قبـل خلفـاء بني العباس محمد ابن طغج الإخشيدي الذي أقام الدولة الإخشيدية في مصر والشام ، ومات في ذي الحجة عام ٣٣٤هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً ، فأقيم أستاذه كافور الإخشيدي وصيا عليه ، وحكم المملكة باسمه ، ومات أنوجور عام ٣٤٩هـ ، فقام أخوه على مقامه حتى مات عـام ٣٥٥هـ ، فاستقرت المملكة باسم كافور ودعي له على المنابر في مصر والشام ، ومات عام ٣٥٧هـ ، فولى المصريون بعده أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد ، فأقام شهوراً حتى فتـح الفاطميـون مصر ، وانتـزعها جـوهر الصقلي منه عام ٣٥٨هـ .

وفي عهد الدولة الإخشيدية ظل المسجد العتيق ومسجد أحمد بن طولون يؤديان رسالتهما العلمية .

كـانت الحلقات العلميـة في هذين المسجـدين حـافلة بـالعلمـاء والمتعلمين ، وكانت تعقد حلقات خاصة في منازل أكابر العلماء والفقهاء ، حيث كانوا يجتمعون بتلامذتهم ، يقرأون ويدرسون بعض شـروح الفقه الإسلامي ، وبعض كتب العبادات والتصوف واللغة والأدب ، ومن ذلك حلقـة ببيت عبد الله بن الحكم الفقيـه المـالكي وولديه عبد الرحمن ومحمـد ، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القـرن الثالث . . . وهـذه الأسرة هي التي أكرمت وفادة الإمام الشافعي في مصر . . وفي القرن الرابع كان العلماء في المسجد العتيق والمسجد الطولوني عديدين ، وكان من أشهرهم : أبو القاسم بـن قديد ، وتلميذه الكندي صاحب الكتاب

---

(١) ١٣٨ جـ ٢ المرجع السابق .

المشهور في تاريخ ولاة مصر وقضاتها، وأبو القاسم بن طباطبا الحسني الشاعر . . وكانت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحيـاة المصريـة العاليـة ، وشجع الإخشيـدي وخلفاؤه العلوم والآداب ودراسة الشريعة ، وكانت حلقة المتنبي الذي وفد إلى مصر عام ٣٤٦هـ ــ ٩٥٧ م من أحفل مجالس الأدب والشعر والنقد.

ولقد كانت السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور تعتكف بمسجد عمرو .

الفصل الثاني

مصر في ظلال الدولة الفاطمية

تمهيد :

إن شيعة علي كرم الله وجهه بعد قتل علي ظلت تتوارث الدعوة إلى خلافة آل البيت ، لإعادة الملك والخلافة للعلويين ، وزعم الكثير منهم أن الخلافة لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد علي . . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم، التمسوها من طريق الدين، فقالوا: إن الله لا يترك خلقه بدون إمام حق، واعتقدوا أن ذلك الإمام هو المهدي المنتظر، الذي يبيد المغتصبين، ويحيي مجد بيت رسول الله .

بدء الدعوة للفاطمية :

في عام ٢٨٠ هـ ـ ٨٩٣ م ذهب أحد دعاة الشيعة، واسمه «أبو عبد الله الشيعي» إلى بلاد البربر بشمالي إفريقية، داعياً لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق، فنجح في دعوته «وطرد الأمير الأغلبي الحاكم لتلك البلاد التابع للدولة العباسية، وذلك عام ٢٩٦ هـ ـ ٩٠٨ م، وأعلن أن الخليفة الحقيقي للمسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه «عبيد الله» الملقب بالمهدي، من نسل فاطمة بنت رسول الله، ولذلك سميت سلالته بالفاطميين.

قيام الدولة الفاطمية :

حضر عبيد الله إلى بلاد المغرب ، وظل ملكاً عليها مدة كبيرة (٢٩٧ - ٣٢٢هـ : ٩١٠ ــ ٩٣٤م) ، كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب ، والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالي على جزيرة صقلية ، وجاهد في سبيل نشر الدين ومحاربة البدع في تلك البلاد ، وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش : اثنين منها بقيادة ابنه « أبي القاسم » فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة في المغرب حدثت عام ٣١٦هـ ، ووباء فشا في أحد هذه الجيوش ، وفتكت عدواه بأهل المغرب . . وشغل عبدالله بالأمور الداخلية باقي حياته .

وفي عام ٣٢٢ هـ ـ ٩٣٤ م خلفه ابنه الأكبر «القائم بأمر الله أبو القاسم محمد»، فبذل غاية همته في توسيع نطاق ملكه، وأرسل أسطولاً أغار على شواطىء إيطاليا وفرنسا والأندلس، وأرسل جيشاً إلى مصر هزمه الإخشيد، ووطد ملكه في شمال إفريقية.

وخلفه « المنصور إسماعيل » سنة ٣٣٣هـ ــ ٩٤٥م ، فسار في الملك سيرة أبيه نحو سبع سنوات .

ولما مات خلفه ابنه « المعز لدين الله أبو تميم معد » سنة ٣٤١هـ ــ ٩٥٣م، فكانت أيامه مبدأ عصر جديد في تاريخ الفاطميين ، وكان مثقفاً ثقافة عالية ، سياسياً داهية ، وطد ملكه في بلاد المغرب ، فدانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراكش بأكملها حتى شواطىء المحيط الأطلسي . . ثم صرف همه لفتح مصر ، فحفر الآبار ، وبنى أماكن للاستراحة في الطريق الموصل إليها ، وكانت مصر وقتئذ في اضطراب لحقها عقب وفاة كافور ، ولم يكن في وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد غارات القرامطة ، وكان دعاة المعز ينشرون دعوتهم في أنحاء كثيرة من القطر المصري . . ووكل المعز قيادة الجيش الفاتح إلى أكبر قواده ، وهو جوهر الصقلي الرومي الأصل ، وكان تحت

إمرته مائة ألف مقاتل مزودين بالآلات الحربية ، وبالمال الكثير .

جوهر الصقلي فاتح مصر :

ولد جوهر بجزيرة صقلية نحو عام ٣٠٠هـ ، ومع أنه رومي الأصل إلا أنه نشأ في صقلية نشأة إسلامية خالصة ، فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ ، ويرجح المؤرخون ان أباه كان مسلماً(١) .

واتصل جوهر ببلاط المعز ، ويبدو أنه كان في حاشيته العسكرية ، وقد قربه الخليفة الفاطمي ، لما توسمه فيه من الإخلاص للدين ، ولمواهبه الفذة وثقافته الواسعة ، وظل يتدرج في سلك المناصب في دولة المعز، حتى اتخذه المعز كاتباً له عام ٣٤١هـ ـ ٩٥٣م ، وهي السنة التي ولى المعز فيها الخلافة ، ثم رقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧هـ ، وولاه قيادة جيش كثيف لتوسيع ملك المعز في شمالي إفريقية، وقد انتصر جوهر ، وتوغل في فتوحه حتى وصل إلى شاطىء المحيط الأطلسي .

ولما فكر المعز في فتح مصر أسند لجوهر قيادة الجيش الفاتح ، ولما رحل جوهر من القيروان إلى مصر في يوم السبت ١٤ ربيع الثاني عام ٣٥٨هـ ـ فبراير ٩٦٩م ، خرج الخليفة لتوديعه بنفسه ، وقال : والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تقهر الدنيا، وانشد ابن هاني الأندلسي المعزَّ قصيدته :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائنا ... وإن سار من أرض غدت وهي بلقع

---

(١) تاريخ جوهر الصقلي لعلي إبراهيم حسن طـ ١٩٣٣ .

تحـل بيـوت المــال حيث محله   وجم العطايا والــرواق المرفـع
وكبــرت الفــرســان لله إذ بــدا   وظـل السلاح المنتضى يتقعقـع
وعب عباب الموكب الفخم حوله   ورق كمـا رق الصباح الملمـع
رحلت إلى الفســطاط أول رحـلة   بـأيمن فـأل بالـذي أنت تجمـع
فـإن يك في مصـر ظمـاء لمـورد   فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر إلى برقة ، ومنها سار حتى الإسكندريـة في رجب ٣٥٨هـ ، ثم استمر في سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٧ شعبان عام ٣٥٨هـ بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين ، وجاء في وثيقة الصلح الرسمية[١] : إنه يتعهد بـ « نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ورفع الحزن ، والقيام في الحق ، وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان، وجميـل النظر وكـرم الصحبة، ولطف العشرة وافتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم الخ » .

واتصل نبأ الفتح بالمعز فسر سروراً عظيماً ، ونظم ابن هانىء أمامه قصيدته :

تقول بنو العباس : هل فتحت مصر؟   فقل لبني العباس: قد قُضي الأمر

وأخذ جوهر يعمل على بث الدعوة للمعز الفاطمي في مصر خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة ، واختط مدينة القاهرة المعزية ، وبنى الأزهر الشريف ، وصار جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر مـراكز للدعاية لعقائد العلويين الفاطميين ودعوتهم ، كمـا كانت الـدعوة لهـذا المذهب تذاع على يدي داعي الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

خطب للمعز في جامع عمـرو في التاسـع عشر من شعبـان سنة ٣٥٨هـ ــ ٩٦٩م، وكان ذكر المعز في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة

---

(١) ٦٧ ــ ٨٠ اتعاظ الحنفا

العباسي حادثاً خطيراً في تاريخ مصر، وفي يوم الجمعة ١٨ من ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت وزاد في الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين » . . . وفي يوم الجمعة ٨ جمادي الأولى ٣٥٩هـ صلى جوهر بجامع ابن طولون وأذن المؤذنون : « حي على خير العمل » . . أما الجامع الأزهر فقد كان أهم مركز للدعوة الفاطمية .

ولا ننسى أن نذكر أن جوهرا قد وضع أساس المدينة الجديدة « القاهرة المعزية » في الليلة التي دخل فيها مدينة الفسطاط ، أي في ١٧ شعبان ٣٥٨هـ — ١٧ يوليو ٩٦٩م وأقام فيها قصر الخليفة المعز ، ووضع أساسه في اليوم التالي . . وتشمل القاهرة المعزية على ما رواه المقريزي أحياء : الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ، وكانت بولاق هي ميناء القاهرة ، وقد أصبحت بولاق بعد ذلك بمدة كبيرة مدينة تجارية منذ سنة ٧١٣هـ ، عندما أمر الملك الناصر بعمارتها وبنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس وعمروها . وقد جعل جوهر للقاهرة أربعة أبواب هي بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح .

وبعد ذلك رحل المعز من مدينته المنصورية[1] ، ودخل القاهرة في ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ نصف يونيو ٩٧٣م ، وظل ملكاً على مصر حتى توفي عام ٣٦٥هـ ، وتوفي بعده جوهر بمدة كبيرة ، وذلك عام ٣٨١هـ (٢٠/١ ابن خلكان) .

---

(١) راجع الحديث عنها في كتاب «الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزي ١٣٦٦ جـ ١ . وهذا الاسم أطلقه إسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين على مدينة «صبرة» وتتصل بالقيروان وقد بناها المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية (ص ٢٥ البكري) .

المعز الملك الفاطمي :

هو الخليفة الفاطمي الرابع ، ينتسب إلى رسول الله عن طريق ابنته فاطمة الزهراء وإلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول .

ولد بمدينة المهدية قرب القيروان ، وهي عاصمة الفاطميين ، وذلك في ١١ رمضان سنة ٣١٧هـ ، وأمه أم ولد . وربي تربية عالية ، وكان ولي عهد أبيه المنصور ، وولي الخلافة عام ٣٤١هـ . . وفي عام ٣٤٨ فتحت جيوشه بقيادة جوهر مصر.

خرج المعز من المنصورية دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١هـ : ٥ أغسطس عام ٩٧٢ . . ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان ٣٦٢ هـ: ٢٩ مايو ٩٧٣ م.

وقد دخل القاهرة عام ٣٦٢هـ ــ ٩٧٣م ، وتوفي في ١٤ ربيع الثاني ٣٦٥هـ ــ ٢٠ ديسمبر ٩٧٥م، بعد أن وسع دولته ، وصبغها بصبغة عالية من الحضارة والرقي والنهضة ، وكانت القاهرة بعد إنشائها عاصمة ملكه الضخم .

كان نقش خاتم المعز يحمل شعار دولته وهو « لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد، لتوحيد الإله العظيم دعا الامام أبو تميم».

وقد وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحدهما مصري والآخر مغربي . . وكان عهده على قصره من أزهى عصور مصر وأزهرها ، وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة إذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠٠٠٠ جندي ، وكان ثروة الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها ما يعادل ٢,٠٠٠,٠٠٠ ديناراً ، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير كثيرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضي مطعم .

وقد بذل « المعز » غاية وسعه في استجلاب محبة الناس واحترامهم له ، بعدله ، وحسن إدارته والتفاته إلى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له إرساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء في المدينة بعد الغروب ، اجتناباً لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين .

وكان للمعز عدة أبناء ، ومن بناته رشيدة بنت المعز ، وعبدة بنت المعز[1] .

وقد خلف المعز ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار[2] ٣٦٥ - ٣٨٦هـ : ٩٧٥ ــ ٩٦٦م ، وكان يعقوب بن كلس أكبر وزرائه .

وبعده تولى حكم مصر الحاكم بأمر الله أبو علي منصور ٣٨٦ ــ ٤١١هـ : ٩٩٦ ــ ١٠٢١م ، وقد مات مقتولاً .

وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ٤١١ ــ ٤٢٧هـ : ١٠٢١ ــ ١٠٣٦م .

وتولى بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد ٤٢٧ ــ ٤٨٧هـ : ١٠٣٦ ــ ١٠٩٤م . . وظل الفاطميون يتوارثون حكم مصر[3] ، حتى انتهى ملكهم منها عام ٥٦٧هـ .

---

(١) ١١٤ جـ ٥ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان .

(٢) ولد في المهدية عام ٣٤٤ هـ .

(٣) وهم: المستعلي بالله (٤٨٧ ــ ٤٩٥ هـ)، والآمر بأحكام الله المنصور (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)، ثم الآمر بأحكام الله عبد المجيد (٥٢٤ ــ ٥٤٤ هـ) ، ثم الظافر (٥٤٤ ــ ٥٤٩ هـ)، ثم الفائز (٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ)، ثم العاضد (٥٥٥ ــ ٥٦٦ هـ)

الفصل الثالث

تأسيس الأزهر وبدء حياته الجامعيّة

الأزهر بيت العلم العتيق ، ومثابة الثقافة الاسلامية ، حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الإسلامي قروناً متصلة ، وحفظ التراث الإسلامي ديناً ولغة من عاديات الزمن ، ونشره على الآفاق ، ولم يبخل به على أي طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ظل الأزهر طوال ألف سنة ــ وما يزال حتى اليوم ــ كعبة العلم والدين ، ومعقد آمال المسلمين ، وقد تخرج فيه أفواج وأفواج من جلة العلماء انتشروا في بقاع الأرض ، وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر ، فأضاؤو جنبات الأرض علماً ونوراً وتقى .

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ، وشرع في بنائه يوم السبت لست بقين من شهر جمادى الأول[1] سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وكمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ ٢٢ يونيو ٩٧٢م، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ، ومنبراً للدعوة التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وقد كتب بدائرة القبة التي في الرواق الأول وهي على يمين المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة : مما أمر ببنائه عبدالله

---

(١) يذكر بعض المؤرخين انه شرع في بنائه في يوم السبت الرابع من شهر رمضان عام ٣٥٩ هـ (٢٧٣ جـ ٢ المقريزي، ٣٦٤ جـ ٣ القلقشندي) .

ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي ، وذلك في سنة ستين وثلثمائة » .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر ، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور فخمة ، تسمى بالقصور الزهراء ، أو لأنه يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياء ونورا .

وضع يوم السبت ٢٤ جمادى الأول سنة ٣٥٩هـ الحجر الأساسي له « وظل العمال والمهندسون يعملون في بنائه عامين تقريباً حتى جاءت أول جمعة رمضان سنة ٣٦١هـ ، فجمعت فيه ، باحتفال رسمي هائل ، تجلت فيه أبهة الملك وسؤدده وعظمته ، التي اشهر بها الفاطميون أكثر من سواهم . والمقريزي يصف لنا هذا الاحتفال وصفا شائقاً يفيض روعة وجلالا .

وبعد أن استقر سلطان المعز ، وتم بناء المعقل الذي أقامه للدعوة ، أفرغ جهده في إحكام دولته وتنظيمها ، ووفق في ذلك أكثر توفيق ، وقطع المعز الفاطمي كل علاقة بينه وبين الخليفة العباسي ، وقضى على كل صلة روحية له في مصر ، فقصر التدريس في الأزهر على المذهب الفاطمي في الفقه ، وتعاليم الفقه ، وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد ، واستجلب لهذه الدراسة أكابر العلماء وفطاحل الفقهاء في عصره ، وكان عددهم ثلاثين عالماً ، أجزل لهم العطاء وبنى لهم منازل فخمة ألحقت بالأزهر فيما بعد ، وصارت من أروقته ، وشرعوا يدرسون ويتفقهون في مذاهب الفاطميين وتعاليمهم ويهدمون بذلك المذاهب الأخرى التي كانت شائعة في بغداد مقر الخلافة وسائر البلاد الإسلامية، وكانت هذه النخبة الممتازة من الأساتذة وعلى رأسها كبير العلماء «أبو يعقوب قاضي الخندق» سبباً من الأسباب التي جعلت الأزهر يصبح

قبل كل طالب من أقاصي الأرض بعد أن ذاع صيته في الآفاق. وذكر المقريزي أن أول ما درس في الأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة، فإنه في صفر سنة ٣٦٥هـ جلس قاضي مصر « أبو الحسن علي بن النعمان ابن محمد بن حيون » وأملى مختصر أبيه في الفقه على أهل البيت، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار، وكان جمعاً عظيماً أثبتت فيه أسماء الحاضرين . . فكان الأزهر على ذلك ظل معطلا منذ افتتاحه أربع سنوات من التدريس حتى جاء صفر سنة ٣٦٥هـ وافتتحت الدراسة فيه باجتماع عظيم حضره كثيرون، وقيدوا أسماءهم .

واستوزر (المعز) وابنه (العزيز) من بعده الوزير يعقوب بن كلس، وهو يهودي الأصل ثم أسلم، ولعل الخليفة تخيره لما اشتهر عن اليهود من الحذق في الدعاية وإتقانها، وقد نشط الوزير فألف كتاباً في الفقه، يتضمن ما سمعه من الخليفة المعز وابنه من بعده. وهذا الكتاب مبوب على أبواب الفقه الفاطمي، وكان يقرؤه على الناس، وكان يجلس بنفسه يوم الجمعة يقرأ على الناس في مجلس خاص به مصنفاته كما يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل .

قام المعز بتأسيس الأزهر إذن، واستوزر ابن كلس وعمل على استجلاب أكابر العلماء، وأوعز اليهم تدريس الفقه الفاطمي، ولم تقتصر هذه الدعوة في اتجاهها على هذه الناحية فقط، بل هناك ناحية سرية كان يقوم بها (داعي الدعاة) وأعوانه، من قبل الحكومة، ليبثوا تعاليم الشيعة ومبادئهم ودعوتهم من طريق السر والخفاء أحياناً ومن الجهر والعلانية في غالب الأحيان. وكان لهذا الداعي مجلس يفرده في الأزهر للنساء، وهذه الدعوة كما يقول المقريزي وضعوا فيها الكتب الكثيرة، وصارت علماً من العلوم المدونة، ثم اضمحلت وذهبت بذهاب أهلها .

سلك الفاطميون في دعوتهم طريق الجهر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسلكوا الخفاء والتستر إذا أعوزتهم الحاجة، وكانوا يدرسون الفقه

الفاطمي علانية لأنه الوسيلة المناسبة التي يستطيعون بها الدخول على سائر الشعب المصري ، الذي كانت تهيمن عليه السنة ومذاهبها سيما المذهب الشافعي منها ، ولأن حاجة الناس الى الفقه ماسة ، ينظمون به شؤونهم ويحددون به أحوالهم الشخصية وما يتبعها من حقوق وواجبات، سيما وأن هذا الفقه في قضاياه ليس بعيد الخلاف مع السنة، بعد مزج التعاليم الشيعية وفلسفتها مع مبادىء التوحيد الإسلامي ، وكان يقوم بكل هذا العلماء المعينون وأتباعهم وكانوا يمنحون مرتبات شهرية ، وجعلوا ذلك باباً من أبواب الدعوة . . وكان القائم بهذه الدعوة هو داعي الدعاة ، وهو من كبار الموظفين، وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيَّا بزيه، وكانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسندان في كثير من الأحيان إلى رجل واحد، وقد خصص لداعي الدعاة قسم كبير من قصر الخلفاء الفاطميين ، وكان يساعده في نشر تعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، كما كان له نواب ينوبون عنه في البلاد بلغ عددهم مائة وواحداً وخمسين ، وكان فقهاء الدولة البارزون في الشريعة الإسلامية تحت نفوذه وله مكان خاص بالقصر هو (دار العلم) ، فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ويقدمون إليه في يوم الاثنين ويوم الخميس ما أعدوه للمحاضرة في أصول المذهب الفاطمي وكانت المحاضرات تعرض قبل إلقائها على الخليفة فيقرؤها ويذيلها بإمضائه ثم تبلغ اليهم عن طريق (داعي الدعاة) وهو الذي يعرضها بنفسه على الخليفة . وكان الداعي فوق هذا يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، وكان يجلس على كرسي الدعوة في الإيوان الكبير فيحاضر الناس ، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً بالأزهر ، وفيه يلقنهن أصول مذهب الإسماعيلية أو الفاطمية .

ولم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون في نشر مذهبهم ، فكانت هناك مجالس تعرض على الناس كل على حسب طبقته ، فكان لأهل البيت مجلس ، وللخاصة مجلس . وشيوخ الدولة مجلس ، وللعامة والطارئين مجلس ، والوافدين من البلاد الأجنبية مجلس .

وكان عندما يفرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات أقبلوا عليه فقبلوا يديه فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة ، وكان من اختصاص (داعي الدعاة) جمع النجوى وتدوين اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر ، والنجوى نوع من الصدقة مقدارها ثلاثة دراهم وثلث درهم ، أما السادة الإسماعيلية فكان الواحد منهم يدفع ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثي دينار ويمتازون عن عامة الناس فيعطى الواحد منهم رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة وفيها هذه العبارة (بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك) . . وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية والدينية نجاحاً عظيماً في خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد بذل هذا الخليفة مجهوداً كبيراً في نشرها حتى أرغم الناس عليها لقوانينه الجائرة وانضموا إليها مكرهين .

وأهم الكتب التي تبحث في هذه التعاليم كما يقول الأستاذ أحمد توفيق عياد : كتاب « أسرار الباطنية للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ » و« الملل والنحل » للشهرستاني و« رسائل إخوان الصفا » : ويجب أن يشار إلى وثيقة هامة في هذا الموضوع وهي المخطوط الموجود بدار الكتب بالقاهرة وعنوانها (رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته) . كما أنه يوجد مخطوط آخر في أربعة مجلدات بالمكتبة الأهلية بباريس عنوانه (المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا الحاكم) .

ومنها يتبين أن الدعوة قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة والفلسفة وهي أساس الشريعة عن الفاطميين قد حلت في عهد الحاكم في محل القرآن والسنة ، ومنها يتضح كيف بلغت هذه الدعوة وعملت في عقول الأهالي حتى تجاسر الحاكم أن يدعي الألوهية وأن الله قد تجسم في شخصه . وهذه الدعوة تلخص لنا تعاليمهم ، والأصل فيها أنهم أخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله إخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطوني .

ودعوتهم مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعـوة ، حتى تبلغ هذه الدعوات تسعا يبدأ الداعي أولاً باستدراج المدعو بعد أن يكون قد وقف على هذه التعاليم ومبلغ إيمانه بدينه ، ويستهويه إلى هالته العقلية ، ويشرع يشككه في أفكاره بأسئلة إنكارية : ما معنى العدو بين الصفا والمروة ؟ ولم كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة وما بال الله قد خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً والكاتبين والحافظين ؟ أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون وأقام علينا الشهود وقيد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟

وهكذا يستمر يلقي الأسئلة سراعاً وينفث سموم الريب في النفس ، ثم يعقب على هذه الأسئلة بأسئلة الغرض منها استهواء المدعو إلى حظيرة الفلسفة والهرطقة التي كانوا يقولون بها : أين أرواحكم ؟ وكيف صورها وأين مستقرها ، وما أول أمرها ؟ والإنسان ما هو ؟ وما حقيقته ؟ وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ؟ وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير والعالم إنسان كبير ؟ وأمثالها حتى إذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تتعجل فإن دين الله أعلا وأجل من أن يبذل لغير أهله، ثم بعد حديث وإغواء يأخذ عليه عهداً ألا يفشي سراً ، ولا يظاهر أحداً عليهم ، ولا يطلب لهم غيلة ، ولا يكتمهم نصحاً ! ولا يوالي عدواً لهم ، فإذا أعطى العهد طلب منه جعلا من المال يجعله مقدمة أمام كشفه له الأمور وتعريفه إياها .

وينتقل إلى الدعوة الثانية ومرماها إثبات ضرورة وجوب الإمام الذي ينصبه الله للناس ، وإلى تقرير أن الأئمة السبعة آخرهم محمد بن إسماعيل ابن جعفر ، وهو صاحب ذلك الزمان ، وعنده علم المستورات وبواطن المعلومات التي لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد إليه والتسليم له ، لأن الهداية في موافقته واتباعه والضلال والحيرة في العدول عنه . . ثم ينتقل إلى تعليل اعتقادهم في الأئمة والنقباء الاثني عشر .

وهنا يكون الداعي قد تمكن من نفس المدعو فيعمل على تعمير منطقة العقل ويدعوه إلى النظر في كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس، وينهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات .

ثم ينتقل إلى اثبات معجزة النبي الصادق والوحي على طريقة تعاليمهم الشيعية . وقد ظلت الدعوة قائمة الى هذه المبادىء، وكان من زعمائها في القرن الخامس الهجري « الحسن بن محمد الصباح » .

وهذه التعاليم تظهر بجلاء في رسائل إخوان الصفا، وتوهم أن الروح التي أملتها روح عالية تتسع آفاقها لاستيعاب حيز كبير من حقائق هذا الوجود، وأن العقلية التي أخرجتها عقلية حرة جريئة . والواقع ربما خالف هذا فإن الفاطميين وإن كان يشم من كلامهم الدعوة إلى وحدة الوجود، والنظر إلى هذا العالم بعين الحكمة والاعتبار والتفلسف، إلا أنهم أفسدوا هذه النظرة السامية بحجرهم على العقول في الاعتقاد بأئمتهم، وأفسدوا كل شيء حينما حاولوا أن يستغلوا ما في هذه التعاليم من طرافة وطلاوة لمصلحتهم الخاصة، بمحاولة تطبيقها على ما تبتغي أهواؤهم السياسية، وأنهم حاولوا فرض شيء كثير من الاستبداد على عقول الناس ومشاعرهم لحد يكاد يبلغ الجمود، وآية ذلك ظاهرة في الفقه في هذا العصر، وتوقف التفكير فيه عند حد التقليد وعجزه عن الابتكار والرأي والقياس . وآية ذلك ظاهرة في بعض شعراء هذا العصر الذين أفسدت عليهم شاعريتهم حتى صاروا يؤلهون الحاكم ويعتقدون أن الله قد يتجسم في شخص الأئمة والخلفاء : من ذلك ما قاله ابن هانىء الأندلسي في المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
وهو الذي تجدي شفاعته غدا حقاً وتخمد إذ تراه النار

إنهم استمدوا تعاليمهم من الأفلاطونية الحديثة وأخذوا ما نقله

إخـوان الصفا عنهـا وعن الفلسفة اليـونانيـة فأفسـدوهـا حينـما أرادوا تـطبيقهـا عـلى الناس، يبتغـون من وراء ذلـك تشكيـل عقـائـدهم بـأسلوب يضـمن لهم السلطان والإمامة . ومثل هذا الأسلوب في التفكير والاعتقاد أقرب الى أن يكون فارسياً منه إلى أي شيء آخر ، وقد كان للشيعة أكبر عضد في فارس ، ولعل المذهب تأثر كثيراً بعقلية الفرس الواقعية واعتقادهم في الحلول وتأليه الأكاسرة . ومثل هذا الأسلوب بعدما يكـون عن النفسية المصرية فقد صعب تمثيله وهضمه فنبذته ولـو أنها أكـرهت عليه مـدة طويلة .

« ولا يمكننا أن نقدر مقدار النجاح في شيوع المذهب الإسماعيلي بمصر وقدر الذين انتحلوه من خاصة الأمة ، إلا أنا نعلم أن أثره في العامة كـان قليلاً جـداً لما يـروى من أخبـار نفـورهم من مـظاهـر الاسمـاعيليـة ومن عقـائدهم ، ويـظهر أن بيئـة الفقهاء لم تتقبله ، ووسمـوه بميسم الكفر والإلحاد، فنفر الجمهـور منه ، وزاد نفـرته السـرية التي كـانت تحيط بالدعوة ، فزاد ذلك في تأييد اعتقادهم أنه خارج عن الدين توارثوه عن أئمتهم وعن علمائهم » .

وهذه العبودية التي فرضها الفاطميون على العلماء بنشر تعاليمهم وحدها وتأييد مذهبهم الفاطمي في الفقه ومحاجتهم الناس ، أثرت أثراً بليغاً في تطور التشريع الإسلامي ، فقد سار التشريع في هذا العهد في دور التقليد وعدم الاجتهاد. فإن الجو ، لا يساعد العلماء على الابتكار والتجديد .

ولكن نلاحظ من ناحية أخرى أن نشاطهم في بث الدعوة أدى إلى خلق هذا النوع الجديد من العلوم الـذي أطلق عليها « أدب البحث » وألفت في قواعدها الكتب ، وكثرت مجالس النظر وشاعت المناظـرات والمجادلات شيوعاً .

وبقي مذهب الشيعة منتشراً في مصر قضاء وفي الأزهر دراسة ، إلى أن انقرضت دولة الفاطميين .

وعادت لمصر حينئذ السنة المحمدية ، وأول مذهب سني درس بالأزهر المذهب الشافعي وانقرض من ذلك الحين المذهب الشيعي ، ولم يبق له أثر بالأزهر سوى الجراية ، تعطى لمن هو متمذهب بهذا المذهب ، وهذا الجراية كانت تصرف لأصحابها لوقت قريب . هذا وتعاليم الشيعة الآن معمول بها في فارس وبمصر متحف خاص (بالبهائية) التي تعمل على حد هذه التعاليم ، ويقرر الأستاذ (بيرم) في رسالة وضعها عن الأزهر وقدمها لمؤتمر المستشرقين المنعقد بمدينة (هامبورج) في أوائل سبتمبر سنة ١٩٠٢ أن العلوم الرياضية كانت تدرس بالأزهر ، كالعلوم الفلكية والطبيعية والجغرافية ، ولكنه استند في تقريره هذا إلى أنه استنتج ذلك من عناية الفاطميين بهذه العلوم وعنايتهم بالكتب وجمعها واستبعد ألا تكون هذه العلوم قد درست بالأزهر ، والأزهر كان متأثراً في حياته بكثير من العوامل السياسية التي ظهرت وقتذاك . وإن ما كان يدرس فيه في عهد الفاطميين هو التعاليم الشيعية الإسماعيلية والدعوة إليها ، والمذهب الفاطمي في الفقه . . وكان لهذه التعاليم أثر واضح في الحياة الخلقية في ذلك العصر ، وقد عدد آفاتها الغزالي وآفات عقلية أوقفت التشريع الإسلامي عند حد التقليد وعدم الاجتهاد ، وأصبح التشريع الإسلامي في هذا العصر هو المرحلة الأخيرة لتطوره . ولم يكن للعقول في ذلك الوقت سبيل الى الاجتهاد والقياس ، واحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتفرقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على هذا النوع من التنظير والتفرقة .

ومن هذا كله نعلن أن الأزهر اتخذ أول ما أنشىء مسجداً لعبادة الله والدعاية للفاطميين ودولتهم ، ثم عقدت في جنباته حلقات الدروس العامة ، فكان الأساتذة من فقهاء الشيعة يجلسون لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها في الفقه واللغة والأدب والمنطق والطبيعيات والرياضيات .

وأول كتاب قرىء في الأزهر على ما ذكرناه هو «الإقتصار» في فقه آل البيت لأبي حنيفة النعمان بن أبي عبدالله بن محمد القيرواني قاضي

المعز لدين الله ، وكان مالكي المذهب ثم انتحل المذهب الإسماعيلي فأخلص له ، وكان من دعائم الدعوة الفاطمية . وكتابه « الدعائم » من أصول المذهب الإسماعيلي ، ونهج على منهاجه الوزير يعقوب بن كلس في كتابه « مصنف الوزير » وله كتاب اسمه « مختصر الآثار فيما روي عن الائمة الأطهار »(١) ، ومن كتبه أيضاً : « الينبوع » « والمجالس والمسايرات » . وتوفي النعمان هذا في شهر جمادى الآخرة عام ٣٦٣هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله .

وكان يتولى درسة كتاب « الاقتصار » في الأزهر ابن النعمان واسمه أبو الحسن علي بن النعمان(٢) .. وكتبه الأخرى كان بعضها يقرأ في

---

(١) منه نسخة خطية في الفاتيكان رقم ٥ ـ ١١٠٤

(٢) كان علي شيعياً غالياً، وشاعراً مجودا (٨٤ جـ٣ شذرات الذهب) وتوفي أبو الحسن هذا عام ٣٧٤ هـ ـ فولي القضاء بعده أخوه أبو عبدالله محمد وتوفي عام ٣٨٩ هـ (٥٥ جـ٤ ابن خلدون) .

ولأبي الحسن علي بن النعمان شعر في اليتيمة (٣٨٤ و ٣٨٥ جـ١) .. وكذلك لأخيه القاضي أبي عبدالله محمد بن النعمان شعر (٣٨٥ و٣٨٦ جـ١ اليتيمة).

وكان أبو الحسن علي بن النعمان أول من لقب بقاضي القضاة في يمصر (٩١ جـ٢ حسن المحاضرة) .

وكان علي بن النعمان محل عطف وثقة العزيز بالله ثاني خلفاء دولة هذا المذهب بمصر إلى أن قلد القضاء بالديار المصرية، والشام، والحرمين، والمغرب، وجميع مملكته، والخطابة والإمامة، ودار الضرب. وقرىء مرسوم توليته هذه الأشياء بالجامع الأزهر وبجامع عمرو، وكان أمرهما إليه. وكان من عادة الدولة وقتئذ أن من يقلد هذه الوظيفة يخلع عليه الخلع المذهبة، ويقلد السيف، ويتم له ذلك بلا طبل ولا بوق، إلا إذا ولي أمر الدعوة مع الحكم، فلقد كان للدعوة في خلعها الطبل، واليوق والبنود، ولا تزال الطبول والبنود موجودة بمصر حتى الساعة عند أرباب الطرق الصوفية، وهي بقية أو أثر من آثار هذه الدولة بمصر .

وكانت رتبة قاضي القضاة وقتئذ أجل رتب أرباب العمائم بمصر. ويكون في بعض الأوقات داعياً فيقال له حينئذ: قاضي القضاة وداعي الدعاة. وكانت العادة ألا يحضر لاملاك ولا جنازة إلا بإذن. وكان داعي الدعاة يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره.

الأزهر ، والبعض الآخر يقرأ في حلقات خاصة للذين يريدون التخصص في فقه الشيعة والدعوة الفاطمية .

وظل الجامع الأزهر مثابة لحلقات الدروس يلقيها بنو النعمان حتى سنة ٣٦٩ هـ ، إذ بدأت حلقات الأزهر تتحول إلى دراسة جامعية منظمة مستقرة ، فقد بدأ يعقوب بن كلس[1] وزير المعز لدين الله يقرأ بانتظام فيه كتابه المعروف بالرسالة الوزيرية في الفقه الشيعي ، وكان يجلس بنفسه لقراءته في الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع لسماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر ورجالات الدولة والدعوة، وكانت تمتاز حلقات ابن كلس بتحررها من القيود الرسمية، واتجاهها نحو الأهداف العلمية، وبذلك كانت أول مجالس جامعية عقدت بالجامع الأزهر.

وفي عام ٣٧٨ ـ ٩٨٨ استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً ، وكان رئيسهم ومنظم حلقاتهم هو الفقيه أبو يعقوب قاضي الخندق ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية

---

(١) كان يعقوب يهوديا، ولد في بغداد، وجاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور، وأسلم في شعبان ٣٥٦ هـ ، ثم سار إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز وكان رائداً لجيشه في فتح مصر، وحضر مع المعز إلى مصر عام ٣٦٢ هـ ، ولما توفي رثاه مائة شاعر (٣٩١ ـ ٣٩٧ جـ ٣ ابن خلكان) .

ويروى أنه تسابق العزيز بالله الفاطمي مع وزيره يعقوب بن كلس بالحمام، فسبق حمام الوزير، فعز ذلك على العزيز، ووجد أعداء يعقوب إلى الطعن فيه سبيلا فقالوا للعزيز: إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه، ولم يبق منه إلا أدناه حتى الحمام، وراموا بذلك أن يغروه به حسداً منهم لعله يتغير عليه، فاتصل ذلك بالوزير فكتب الى العزيز:

قل لأمير المؤمنين الذي ... له العلا والمثل الثاقب
طائرك السابق لكنه ... جاء وفي خدمته حاجب

فأعجبه ذلك منه، وسكن غضبه.

وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم في يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقاً من ماله الخاص[1] .

وفي عام ٣٨٠هـ رتب المتصدون لقراءة العلم بالأزهر ، وبذلك صار الأزهر معهداً جامعياً للعلم والتعليم والدراسة ، وكان هؤلاء الأساتذة الذي رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله أول الأساتذة المدرسين الذين عينوا بالجامع الأزهر الشريف ، ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته الجامعية العلمية الصحيحة . . وفي الحق أن هذا يدل على أن ابن كلس كان وزيراً عظيماً وعالماً جليلاً وأديباً كبيراً .

وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء[2] ، وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك في أعمالها ، ويغدق العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن في التأليف والكتابة فوضع كتاباً ني القراءات ، وكتاباً في الفقه ، وكتاباً في آداب رسول الله ، وكتاباً في علم الأبدان والصحة ، ومختصراً في فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله . وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم ، وكانت موائدة دائماً منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم الأديب مفخرة في جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بجلاله وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة في يده :

يد الوزير هي الدنيا فإن ألمت رأيت في كل شيء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته من أجله واسأل القرطاس والقلما

ومرض ابن كلس في شوال سنة ٣٨٠هـ ، فجزع عليه العزيز أيما

---

(١) صبح الأعشي عن المسبحي ٣٦٧ جـ٣، وخطط المقريزي ص ٤٩ جـ ٤ .
(٢) ٤٧ تاريخ الأزهر لعنان.

جزع ، ولبث يعوده ويرعاه ، حتى توفي في الخامس من ذي الحجة ، فحزن عليه حزناً شديداً ، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره في موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكي بدمع غزير واحتجب في داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته ، والحزن يشمل الخاصة والقصر كله ، وأفاض الشعراء في رثاء الوزير الراحل ومديحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ، وعلى الجملة فقد سما ابن كلس في ظل الدولة الفاطمية إلى أرفع مكانة . . ومهما كان فإن تلك الخطوة الأولى في ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير في تطور الغاية التي علقتها الخلافة الفاطمية بادىء ذي بدء على إنشاء الجامع الأزهر ، فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبراً لدعوتها[1] .

ابتدأ الأزهر حياته العلمية المنظمة بخمسة وثلاثين طالباً . ولم يشجع هؤلاء بما رأينا فحسب ، بل كان هناك لون آخر من ألوان التشجيع ، فيحدثنا المقريزي أن العزيز بالله « خلع عليهم في يوم عيد فطر وحملهم على بغلات » . ولم يكن الأزهر في ذلك العهد مقصوراً على الرجال فحسب ، بل كان للمرأة فيه نصيب .فكن يفردن فيه بمجلس خاص[2] .

وهكذا آلت تلك الحركة العلمية الميمونة إلى الأزهر ، وازدهرت فيه وترعرعت حتى تخرج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الإسلامي عامة ، ومصر خاصة .

---

(١) راجع في هذا البحث وما يتعلق به: خطط المقريزي (الطبعة الأهلية) جـ ٤ ص ٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، جـ٣ ص ٧ ـ ١٠ ، وابن خلكان جـ ٢ ص ٤٤١ .

(٢) خطط المقريزي ج ـ٢ ص ٢٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها واهتمت بشؤون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلعة بمهمتها ، حتى نبه ذكرها وذاع صيتها ، وأَمَّها الطلاب من كل فج ، ليغترفوا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ، وانحدر اليها العلماء من كل صوب ، ليسهموا في النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت فيها أنواع العلوم والفنون ، وأمدت العالم الإسلامي بما هو في حاجة إليه.

ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه بالعناية والرعاية ، ويغدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات ، ويذهبون إليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، مما كان له الأثر البالغ في حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للعلم .

الفصل الرابع

الأزهر في ظلال الفاطميين

تمهيد :

مما تقدم نعلم أن الأزهر بدىء في بنائه في ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ ـ إبريل ٩٧٠م، وافتتح للصلاة في يوم الجمعة ٧ رمضان ٣٦١ هـ : ٩٧٢ م، وبدأ نظام الحلقات العلمية فيه من عام ٣٦٥ هـ : ٩٧٦ م، وصار جامعة إسلامية كبيرة من عام ٣٧٨هـ : ٩٨٨م.

وإن الفضل في ذلك يرجع الى المعز وقائده جوهر ، ثم إلى أسرة القاضي النعمان الشيعي ، ثم إلى الوزير يعقوب بن كلس .

وكان المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة ، وقد تكون تسميته بالجامع الأزهر قد تأخرت قليلاً عن التسمية الأولى ، ويرجح عنان[1] أن اسم « الجامع الأزهر » أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية في عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمي اسم الجامع الأزهر، واستمر مسجد القاهرة الجامع يعرف باسم جامع القاهرة[2] أو الجامع الأزهر حتى عصر المقريزي في أوائل القرن التاسع، ثم تقلص الاسم

---

(١) ٢٠ تاريخ الجامع الأزهر لعنان

(٢) ورد في اخبار العزيز بالله انه أقام طعاما في جامع القاهرة ــ وهو الأزهر الشريف ــ لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان .

القديم ـ جامع القاهرة ـ شيئاً فشيئاً وغلب عليه اسم الجامع الأزهر، أو جامع الأزهر حتى عصرنا.

ولا بد أن يكون الأزهر قد أسهم في الحركة العقلية والعلمية في عصر المعز والعزيز بالله ، وأن يكون أعلام الدين واللغة والأدب قد اتخذوا منه حلقة علمية منظمة .

فلقد جاء قوم من علماء المغاربة في ركب المعز ، ومن أشهرهم النعمان بن محمد الذي تولى القضاء في مصر هو وأولاده وأسرته عهداً طويلاً في ظلال الحكم الفاطمي ، وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة والتأليف في المذهب الشيعي ، وتتخذ من الأزهر مكاناً مختاراً لنشاطها العلمي ، وكذلك ابن كلس الذي أشرف على تنظيم الأزهر تنظيماً جامعياً علميا عالياً .

ومن أشهر العلماء الذين شهدوا عصر المعز والعزيز : ابن زولاق المصري المؤرخ[١] (٣٠٦ ــ ٣٨٧هـ)، وعبد الغنى المصري (٣٣٢ ــ ٤٠٩هـ) وكان حافظ مصر في عصره[٢] ، والحسن بن الهيثم المصري الفيلسوف[٣] واشتهر بعد عصر العزيز وتوفي عام ٤٣٠ هـ وابن يونس المصري المنجم المتوفى عام ٣٩٩ هـ[٤] والجوفى النحوى المتوفى عام ٤٣٠ هـ[٥]. . ولا شك أن هؤلاء العلماء وغيرهم قد كانت لهم حلقات في الأزهر.

ومن الأدباء والشعراء في هذا العهد أبو الرقعمق المتوفى عام

---

(١) ٢٣٨ جـ ١ ابن خلكان، ٢٢٥ ـ ٢٣٠ جـ ٧ معجم الأدباء. . وله كتاب في سيرة المعز وآخر في سيرة العزيز.
(٢) ٥٤٧ جـ ١ ابن خلكان
(٣) ١١٤ و١١٥ إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي .
(٤) ٨٥ و٨٦ جـ ٢ ابن خلكان.
(٥) ٦ جـ ٢ المرجع نفسه.

٣٩٩هـ الشاعر[١] وابن وكيع الشاعر المتوفى عام ٣٩٣هـ [٢] ، والتهامي الشاعر المتوفى عام ٤١٦هـ [٣] والمسبحي المصري الكاتب (٣٦٦ ـ ٤٢٠هـ)[٤] ، وأبو القاسم [٥] عبد الغفار شاعر دولة العزيز والحاكم وقتله الحاكم عام ٣٩٥هـ . . ولا شك أن هؤلاء الأدباء والشعراء كانوا يحفلون بـإلقاء ثمـرات قـرائحهم على تـلاميـذهم في حلقـات الأزهـر العلميـة الحافلة [٦] .

الأزهر في عصر الحاكم :

وفي عصر الحاكم[٧] استمر الأزهر يؤدي مهمته العلمية ، وإن كان الأزهر فوجىء بإقامة الخليفة جامعة جديدة سماها « دار الحكمة » أو دار العلم الشهيرة في سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٥م .

ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التي أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ، ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فإنها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحـوالها وضعف نفوذها العلمي ، هذا بينما كان الأزهر يسير في سبيل حياته الجـامعية الوليدة بخطى بطيئة ولكن محققة ، ويسير في نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التي كادت في البداية أن تقضي على صبغته الجامعية الصحيحة .

وقـد وقف الحاكم وقفيـة على الأزهر ودار الحكمـة وغيرهـا من

(١) ٧٠ و٧١ جـ١ المرجع نفسه، ٣١٠ ـ ٣٣٤ ج١ اليتيمة

(٢) ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، جـ ١ المرجع نفسه ٣٥٦ ـ ٣٨٤ جـ ١ اليتمية .

(٣) ٥٣ ـ ٥٥ جـ ٢ المرجع نفسه

(٤) ٣٤٢ ـ ٣٤٣ جـ ٢ المرجع نفسه .

(٥) ٣٩٦ جـ ٣ المرجع نفسه .

(٦) ويروى أن النساء كن يحضرن في الجامع الأزهر (٢٢٦ جـ ٢ الخطط للمقريزي) .

(٧)ولد بالقاهرة عام ٣٧٥ هـ وتولى الخلافة عام ٣٨٦ هـ وقتل عام ٤١١ هـ .

المساجد ، وجامع الحاكم ، وجامع المقس ، وجامع راشدة ، لإقامة الشعائر الدينية فيها ، وصيانة مبانيها وهذا هو نص الاشهاد الشرعي على هذه الوقفية :

« هذا كتاب أشهد قاضي القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقي على جميع ما نسب اليه مما ذكر ، ووصف فيه ، من حضر من الشهود في مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة اربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضي عبد الله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله صلوات الله عليهما، على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين حرسهما الله، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحي المغرب وسائر أعمالهن، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم ــ أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التي يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التي وقفها ، والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم : ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجري ذكرها . فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذي كله بفسطاط مصر . ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التي علوها والمخزنين الذي ذلك كله بفسطاط مصر بالراية ، في جانب العرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق في الموضع المعروف بحمام الفار . ومن ذلك جميع الحصص

الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسي بحدود ذلك كله وأرضه ، وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ، ومجاري مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسماوات، على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي اليه ولايتها ويرجع إليه أمرها بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوي الرغبة في إجارة أمثالها ؛ فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته ، من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً.

من ذلك الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الاشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته ، وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار ، ومن ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلي سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة

الخياطة خمسة دنانير ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلاً بالرطل الفلفلي دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلي نصف دينار ، ومن ذلك لثمن إردبين ملحا للقناديل ربع دينار ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ، ولثمن مائتي مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين ، ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار في كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة ولكل رجل منهم ديناران في كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع في كل سنة أربعة وعشرون ديناراً . ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه في هذا الجامع في سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسي بقر للمصنع الذي لهذا الجامع ثمانية دانانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسي البقر المذكورين في السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولي العلف وأجرة السقا والحبال والقواديس وما يجري مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً » .

وإلى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر ، وأخذ في ذكر الجامع براشدة ، ودار العلم ، وجامع المقس ، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلاً من الفضة ، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلاً ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلاً ، وشرط أن تعلق في شهر رمضان ، وتعاد إلى مكان جرت العادة أن تحفظ فيه .. وشرط بعد ذلك في الوقف شروطاً كثيرة ليس هنا مقام ذكرها وقد أسس الحاكم جامعه المشهور عام ٣٩٣هـ ، وخطب فيه وصلى فيه بالناس الجمعة وكانت دار الحكمة التي أنشأها يدرس فيها علوم القرآن واللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها . واجتذبت الجامعة الجديدة إليها كثيراً من أعلام المشرق كالرحالة الفارسي ناصرى خسرو ، ولبثت دار الحكمة تنافس الأزهر مدى قرن من الزمان ، حتى أغلقت .

مشاركة الأزهر في الحياة العقلية في عصر الفاطميين

كان للأزهر نشاط ضخم في الحيـاة العقلية والعلميـة في العصر الفاطمي كله حتى نهايته عام ٥٦٧هـ .

ولقد جاءت الدولة الفاطمية الى مصر مع نفوذها السياسي بحركة علمية قوية فقدمت حركة العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئا بجانبها ما كان في العهد الطولوني والأخشيدي ، ويصح أن توازن بما كان في العراق ولا سيما العلوم العقلية والفلسفية ، فقد ازدهرت في مصر وسارت شوطاً بعيداً . . نعم نشطت الحركة العقلية في مصر والشام في هذا العصر نشاطاً كبيراً ، وذلك بفضل الأزهر ودار العلم وحلقاتهما العلمية ؛ وعنيت الدولة بدور الكتب ونشـر العلم ، وتشجيع العلماء ، فظهـر الكثير من المؤرخين والفـلاسفة والعلمـاء والريـاضيين واللغويين والنحويين والأدباء ، ومنهم الأدفوي تلميذ أبي جعفر النحاس[١] المصـري ؛ الذي تـوفي عام ٣٨٨هـ ، وابن بـابشاذ[٢] ، وابن القـطاع النحوي م٥١٥ هـ [٢] المتوفي عام ٤٦٩هـ وسواهم .

ويقول المقريزي : « ان أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمي على مـذهب الشيعة » ولقـد كان ممن القى محـاضراتـه في الأزهر المؤيـد

(١) توفي ابو جعفر النحاس عام ٣٣٨ هـ (٢٢٨ جـ ١ حسن المحاضرة).
(٢) ٢٢٨ جـ ١ حسن المحاضرة .

الشيرازي داعي الدعاة الذي ناظر فيها المعري في عهد المستنصر الخليفة الفاطمي ، وكان الشيرازي شاعراً كتب إلى المستنصر لما حسده الحساد باحتجاب الخليفة عنه بعد قدوم الشيرازي إلى مصر : كتب المؤيد الشيرازي :

أقسم لو أنك توجتني بتاج كسرى ملك المشرق
وأنلتني كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقي
وقلت ان لا نلتقي ساعة أجبت يا مولاي أن نلتقي
لأن إبعادك لي ساعة شيب فودىً مع المفرق

فأجاب المستنصر بالله بخطه :

يا حجة مشهورة في الورى وطود علم أعجز المرتقى
ما غلفت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملالا فثق بودنا وارجع الى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت في دعوتنا آخراً فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى

وللشيرازي محاضراته التي ألقاها في الأزهر مناظراً أبا العلاء المعري .

وله مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها : كتاب الابتداء والانتهاء ، وكتاب المسألة والجواب ، وكتاب نهج العبادة ، وشرح المعاد ، والمسائل السبعون ، ونهج الهداية للمهتدين ، وأساس التأويل بالفارسية ، والسبح السبع ، والإيضاح والتبصير في فضل يوم القدير ، وتأويل الأرواح ، والمجالس المستنصرية . وقد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة ، إنما كانت ملخصاً لدروس طويلة فيما يظهر فلعله

كان يكتبها بعد إلقاء الدرس وتفهيمه على سبيل التسجيل والحفظ ، لنكت هامة لينتفع القارىء ، كما استفاد السامع .

وهذه هي المحاضرة الأولى من محاضراته :

الحمد لله الذي نظم بين الانسان والبهائم أن خلقهم من طين ، ثم جعل نسلهما من ماء مهين ، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى في أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ، ما عرج به أعلا المعارج من الفضل والعلياء ، فصار ممن قال الله سبحانه فيه ــ ومن أصدق منه قيلا ــ ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ﴾ ، فاستنزل بتدبيره الطير من الهواء واستخلص الحدث من لج الماء ، واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعاً ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصوراً في سرادق فكره ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصوراً في سرادق ملكته وأسره ، فهذا منفوعه الذي نفعه الله به في الدار الأولى ، ثم جعله سلماً يرتقي به إلى دائم البقاء في الدار الأخرى . فلولا نور استبصاره بالعقل ، لما كانت رسالة عن مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد خير رسول ، استنار بنور سراجه ، وسار على واضح منهاجه ، وعلى وصيه الذي عرج به من أفق المجد إلى أعلا معراجه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله ممن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم ، إن قوماً من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التي هي أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة على غير العقل موضوعها . وفي سوى موقعه وقوعها فلو أنهم أنعموا

النظر ، وجردوا من شوب العصبية والهوى الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له في شيء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله ، إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه ، لاستشاط من ذلك غضباً، ولقام له مكذباً، وفي مثل هذه المواجهة مستذنباً، فكيف يرضون للأنبياء الذين هم سادات دينهم، والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلهم بمثله مقابل لكرهوه ، أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب في كتاب الله كله مع أولي الألباب بقوله الله تعالى : « فاتقوا الله يا أولي الألباب وقوله: ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب، وما يجري مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية ليس لها برهان من العقل عند الرسول عليه السلام ، الآتي بها نفسه أو كون البرهان عنده فلم يشعر به ، فإن كان لا برهان لها عنده فهو فحش ، فلو أن سائلاً سأله عن العلة التي اقتضت أن يجعل الصلاة خمساً ، ولا يجعلها ستاً ، فكان يقول لا أدري ، لكفاه طعناً أن يأتي بشيء لا يدري العلة فيه إذا سئل عنها ، وإن كان لها برهان عند نفسه عقلي ـ والبرهان مما يجمل الأقوال والأفعال ـ ثم لم يظهره فلم يقم إذن بحق البلاغ ، وهذا منتف عن الرسول عليه السلام ، لأنه بلغ وقال في النادي : « اللهم اشهد أني بلغت » وسوى هذا فمعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكلف تكليف الشريعة إلا ذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه على غير عقل ، لأن ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذي عقل أولى منه بذي عقل ، وما السبب في تولية العقل أولا وعزله آخراً ؟ ولما لا تكون التولية آخراً ككونها أولاً ، أو العزل أولاً ككونه آخراً ؟ وهذا مما لا خفاء به على منصف .

والمعلوم أن الفلاسفة يدعون العلوم العقلية والأمور الحقيقية ، وأن المسلمين يكفرونهم مع ذلك ، لانقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم أنهم غنوا عن الأنبياء في معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة إليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحصين الدماء والأموال ، ومنع القوي عن الضعيف .

واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التي منها العقليات التي يدعونها في علوم الأنبياء اجتمعت ، ومنها تشعبت وتفرعت ، وتصديقهم قول الله سبحانه ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ ، فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام، يسأله عن الملائكة، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار ، وأوضاع شريعته : من صلاتها ، وزكاتها ، وصومها ، وحجها ، وجهادها ، من حيث يدل عليه البرهان العقلي ، أكان يقول النبي ﷺ ، لا قبل لي ببرهان ذلك ! حاشا لله . . وقول آخر مأثور عن النبي ﷺ أنه قال « أول ما خلق الله تعالى العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أجل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب » . . فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها ، فلا ثواب لها ولا عقاب على مقتضى الخبر، «بك أثيب وبك أعاقب».

معشر المؤمنين : دعو أهل الفرقة والخلاف ، فإنهم أشياع غي بقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ : وتمسكوا في دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت بالأهلة ، وأصلحوا أموالكم ، وطهروا سربالكم واحمدوا الله تعالى الذي فتح لكم إلى الحقائق أبصاراً والناس عنها عمون ، وكشف لكم حجباً فأنتم في رياضها تتنعمون . واجروا في مضمار التائبين العابدين واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الأفعال صامتين وقوموا آناء الليل قانتين . جعلكم الله من الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وأوزعكم شكر عارفيه . إذ ألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . والحمد لله القاهر سلطانه . الباهر برهانه . العظيم شانه . الواسع إحسانه . وصلى الله على محمد المنزل عليه فرقانه . المزلزل للشرك بنيانه . وعلى وصيه مستودع علمه وترجمانه علي بن أبي طالب بيده يد الحق . والناطق بلسانه لسانه . وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه . . وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولقد أصيبت الحياة العقلية في مصر الإسلامية بكثير من الاضطراب والضعف في أواسط القرن الخامس الهجري كما يقول عنان ، أي منذ اضطربت شؤون الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر بالله ، ونكبت مصر بالشدة العظمى ، وعانت عسف القحط والوباء أعواماً طويلة (٤٤٦ ـ ٤٦٤هـ)، وشغل المجتمع المصري حينا بما توالى عليه من الأرزاء والمحن ، وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وتدبير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهد الحركة الفكرية ، وقترت الدولة على معاهد التعليم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة وكانت من أنفس وأعظم ما عرف العالم الإسلامي[1] . . وكان لهذا الاضطراب أثره في الأزهر ودار الحكمة فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعاً لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة . وفي أواخر القرن الخامس في عصر أمير الجيوش بدر الجمالي المتغلب على الدولة (٤٦٥ ـ ٤٨٧هـ) وولده الأفضل شاهنشاه (٤٨٧ ـ ٥١٥هـ) عاد النظام والأمن والرخاء الى البلاد ، وانتظمت الحياة العامة ، واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية ، وما بذل للإنفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق .

ويقول عنان : كان نظام الحلقات العلمية وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة في مصر الإسلامية وفي معظم الأقطار الإسلامية الأخرى ، وكان قوام الحياة الجامعية والفكرية في العالم الاسلامي . . وكان طبيعياً أن الأزهر حينما أتيح له أن يدخل هذا الميدان الدراسي ، أن تقوم الدراسة فيه وفقاً لهذا النظام التقليدي المتوارث . ولم يك ثمة نظام آخر يمكن التفكير فيه في عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس بعد . . وهكذا بدأت الدراسة في الأزهر في حلقات علمية وأدبية ؛ واستمرت كذلك على مر العصور. وعقدت أول حلقة للدرس بالأزهر في صفر

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥٤.

سنة ٣٦٥ هـ كما تقدم، وعقدها قاضي القضاة علي بن النعمان وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت وهو الكتاب المسمى « الاقتصار » في جمع حافل أثبتت فيه أسماء الحاضرين. وفي سنة ٣٧٨هـ أذن العزيز بالله لوزيره ابن كلس أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة، وكانوا يعقدون « حلقاتهم » الدراسية بالجامع يوم الجمعة من بعد الصلاة إلى العصر، وهم أول أساتذة أجريت عليهم من الدولة رواتب خاصة حسبما قدمنا. وفي هذين النصين القديمين ما يوضح لنا نظم الدراسة الأساسية بالأزهر، وهي نظم كان قوامها الحلقة الدراسية، فيجلس الأستاذ ليقرأ درسه في حلقة من تلاميذه والمستمعين اليه، وتنظم الحلقات في الزمان والمكان طبقاً للمواد التي تدرس، ويجلس أستاذ المادة من فقه أو حديث أو تفسير أو نحو أو بيان أو منطق أو غيرها في المكان المخصص لذلك من أروقة الجامع أو أبهائه، وأمامه للطلبة والمستمعون يصغون إليه ويناقشونه.

وكان الأزهر مذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم يقصد إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها، وكان يضم بين طلبته دائماً إلى جانب الطلاب المصريين عدداً كبيراً من أبناء الأمم الاسلامية يتلقون الدراسة، وتجري عليهم الأرزاق، وتقيم كل جماعة منهم في مكان خاص بها. وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذي نعتقد أنه بدأ في عصر مبكر جداً[1]، والذي استمر قائماً حتى العصر الأخير، وما زالت منه إلى اليوم بقية بالجامع الأزهر. ومعظم سكان الأروقة الباقية اليوم من الطلبة الغرباء. ويذكر المقريزي أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلازمون الإقامة بالأزهر في الأروقة الخاصة بهم في عصره ــ أعني في أوائل القرن التاسع ــ بلغ سبعمائة وخمسين، ما بين « عجم وزيالعة ومن أهل ريف

---

(١) يستفاد من أقوال المقريزي أن نظام الأروقة قد بدأ بالأزهر منذ بناء الجامع ذاته (الخطط ج ٤ ص ٥٤)

مصر ومغاربة » ، وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد الذي كان يضمه الأزهر بصفة عامة من طلاب مصر وطلاب الأمم الإسلامية المختلفة في تلك العصور .

أما مواد الدراسة بالأزهر في هذا العصر فلا ريب ــ كما يقول عنان ــ أن علوم الدين واللغة كانت في المقدمة دائماً ، وكان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر قسط ، فعلوم القرآن والحديث والكلام والأصول والفقه على مختلف المذاهب ، وكذلك علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ثم الأدب والتاريخ ، هذه كلها كانت زاهرة بالأزهر خلال العصور الوسطى .

وقد كانت الصبغة المذهبية تغلب كما رأينا على الدراسة بالأزهر ولا سيما في بادية عهدها ، ولم يك ذلك غريباً في ظل دولة كالدولة الفاطمية تتشح بثوبها المذهبي العميق وكان من الطبيعي أيضاً أن تحتل علوم الشيعة وفقه آل البيت من حلقاته الدينية المقام الأول ، بيد أنه يمكن أن يقال من جهة أخرى إن هذه الصيغة المذهبية لم تكن دائماً مطلقة ، ولم تكن دائماً لزاماً على الطلاب . ونحن نعرف أن الخلافة الفاطمية على الرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصري إلى جانبها في هذا المضمار ، ولم تحاول دائماً أن تجري على سياسة الإرغام في طبعه بطابعها ، وفي فرض لونها المذهبي على عقائده ، بل نراها في أحيان كثيرة تلجأ في ذلك إلى سياسة الرفق والتسامح . ولنا في ذلك دليل في المرسوم الديني الذي أصدره الحاكم بأمر الله ــ وهو من غلاة الفاطميين ــ في سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٨م) وفيه يقرر بعض الأحكام ويفسرها على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف في فهمها ، ويحاول أن يوفق في ذلك بين المذاهب المختلفة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة :

« يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين بما جاءهم فيها

يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف ، لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده ، وعنده كتابه وعليه حسابه . ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمد ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا ، وبعده قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعلمون ﴾[1] .

وكانت الدراسة في دار الحكمة ذاتها وهي الجامعة الفاطمية المذهبية حرة تدرس فيها علوم السنة إلى جانب علوم الشيعة ، وقد تحررت كثيراً من صبغتها المذهبية حينما أعيدت بعد إغلاقها في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ، فمن الواضح إذاً أن الدراسة بالأزهر كانت حتى في الوقت الذي يشتد فيه تيار الدعوة المذهبية تحظى دائماً بقسط من الحرية يزيد أو ينقص وفقاً للظروف والأحوال . وكانت دار الحكمة تستأثر بعد ذلك بتدريس العلوم الدينية . بيد أن هذه الصبغة المذهبية خفت وطأتها . . وأخذ الأزهر بنصيبه من العلوم بجانب الدين .

هذا وأما عن الكتب الدراسية التي كانت تدرس بالأزهر في العصر الفاطمي ، فليس لدينا أيضاً سوى إشارات موجزة جداً وأول كتاب درس بالأزهر هو كتاب « الاقتصار » الذي وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله في فقه آل البيت ، وكان يتولى قراءته وتدريسه بالأزهر ولده أبو الحسين علي بن النعمان كما قدمنا . واستمر في

---

(١) راجع نص هذا المرسوم بأكمله في ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٠

قراءته مدى حين على يد بني النعمان الذين تعاقبوا في قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان للنعمان القيرواني كتب أخرى في فقه الإمامية (الشيعة) ذكر ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله أسماءها وهي كتاب « دعائم الإسلام » ، الذي عنى بتدريسه في الأزهر فيما بعد عناية خاصة ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » وكتاب « الأخبار » وكتاب اختلاف الفقهاء » ومن المرجح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالأزهر إلى جانب كتاب « الاقتصار » حتى أواخر القرن الرابع[1] .

وقد انتهى إلينا بعض هذه المؤلفات الشيعية التي افتتحت بها الدعوة إلى دراسة فقه الإمامية بمصر . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة من المجلد الأول من كتاب « دعائم الإسلام» ، وعنوانه الكامل « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله » . ويقول النعمان القيرواني في ديباجته : « إنه لما اضطربت الأحكام واختلفت المذاهب وانقلبت أوضاعها ، رأى عملاً بقول رسول الله : « إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه » أن يضع كتاباً جامعاً مختصرا بما جاء عن الأئمة من أهل بيت رسول الله ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم في دعائم الإسلام، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، وهذه الدعائم حسبما ورد عن الإمام جعفر ابن محمد الصادق هي « الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد »، وهي الموضوعات التي يتناولها المجلد الأول من الكتاب .

وتوجد بدار الكتب نسخة مصورة قديمة من كتاب « الأخبار» أو « شرح الأخبار»، وقد ذكر النعمان القيراني موضوعه وطريقة تأليفه في مقدمته فيما يأتي ، «آثرت منه الأخبار وجمعت منه الآثار في فضل الأئمة الأبرار حسبما وجدته ؛ وغاية ما أمكنني واستطعته ؛ فصححت ما بسطته في كتابي هذا وألفته ، بأن عرضته على ولي الأمر وصاحب الزمان

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩

والعصر ، مولاي المعز لدين الله أمير المؤمنين عليه السلام وعلى سلفه وخلفه ، وأثبت منه ما أثبته وصح عنده وعرفه وأثره عن الأئمة الطاهرين وأجاز لي سماعه منه ، وبأن أرويه لمن يأخذه عني وعنه عليه السلام ، فبسطت في هذا الكتاب ما أثبته وأجازه وعرفه ، وأسقطت ما أنكره من ذلك ، وذلك مما نسبه إلى أهل الحق المبطلون وحرف من قولهم المحرفون » .

ثم قرىء بالأزهر كتاب ألفه الوزير ابن كلس في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية مما سمعه في ذلك من المعز لدين الله والعزيز بالله ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ؛ وكان يجلس لقراءته وتدريسه بنفسه حسبما قدمنا . وأفتى الناس بما فيه[1] .

فالكتب الأولى التي قررت للتدريس بالأزهر هي كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية أعني من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها ، وكان لها صبغة رسمية واضحة . وكان التدريس بالأزهر يجري يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية . وشدد في ذلك بادىء ذي بدء حتى إنه في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في عهد العزيز بالله ، قبض على رجل وجد عنده كتاب « الموطأ » للإمام مالك . وجلد من أجل إحرازه[2] .

وفي سنة ست عشرة وأربعمائة ، أمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ولد الحاكم بأمر الله بأن يدرس الدعاة للناس كتاب « دعائم الإسلام » وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظهما مالا[3] والدعاة هم أساتذة دار الحكمة وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر في أحيان كثيرة[4] وقد عرفنا موضوع كتاب « دعائم الإسلام » وعرفنا مؤلفه . أما « مختصر

---

(١) راجع الاشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي في ص ٢٣ ، وابن خلكان جـ ٢ ص ٤٤١ ، والخطط جـ ٤ ص ١٥٧

(٢) الخطط جـ ٤ ١٥٧ .

(٣) الخطط جـ ٢ ص ١٦٩

(٤) الخطط جـ ٣ ص ٢٢٦ ، تاريخ ابن ميسر ص ٦٤ .

الوزير » فيلوح لنا أنه هو مؤلف ابن كلس أعني « الرسالة الوزيرية » .

والمرجح أن كثيراً من الكتب الفقهية التي كانت تدرس بدار الحكمة كانت تدرس أيضاً بالأزهر كما يقول عنان ، وإن كنا لم نعثر على نصوص أو بيانات أخرى تلقي ضوءاً على أنواع الكتب التي كانت تدرس بالأزهر في هذا العصر في العلوم الأخرى . وكانت تشمل مصنفات أعلام الأساتذة المعاصرين الذين انتهت إليهم الرياسة في بعض العلوم أو الذين تولوا التدريس بالأزهر يومئذ ، مثل العلامة أبي الحسن علي بن إبراهيم الحوفي إمام العربية والنحو وصاحب كتاب إعراب القرآن وابن بابشاذ النحوي صاحب كتاب « المقدمة » « وشرح الجمل » ، وابن القطاع اللغوي صاحب كتاب « الافعال » ، وأبي محمد عبدالله بن بري المصري إمام اللغة في عصره ، وأبي العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرىء ، وأبي القاسم الرعيني الشاطي إمام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة في علم القراءات « حرز الأماني ووجه التهاني »[1] ، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرياسة في هذا العصر . واعتبرت مصنفاتهم متونا ومراجع . بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئك الأئمة تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير مثل قصيدة الشاطبى في القراءات .

على أن كثيراً من الكتب التي ألفت ودرست في هذا العهد ، قد دثر بانتهاء الدولة الفاطمية وحرص الدولة الأيوبية التي خلفتها ، على محو رسومها وآثارها .

هذا وقد عنيت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمي مكتبة جامعة يفيض المؤرخون كما يقول عنان في وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ، وكان بها ما يزيد على مائتي ألف مجلد في سائر العلوم والفنون ، في الفقه والحديث واللغة

---

(١) توفي الحوفي سنة ٤٣٠ هـ وابن بابشاذ سنة ٤٦٩ هـ وابن القطاع سنة ٥١٥ هـ وابن بري سنة ٤٩٩ هـ وابن هاشم سنة ٤٤٥ هـ . والشاطبي سنة ٥٩٠ هـ .

والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . وقال ابن أبي طي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر «ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر»[1]. وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد كبير من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة[2].

وكانت في الواقع خلفاً لمكتبة الاسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ، وكانت المساجد الجامعة تزود في هذه العصور بمجموعات من الكتب ولا سيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزائن الكتب نصيب حسن ، وكانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة ، فإن ابن ميسر يقول في أخبار سنة ٥١٧هـ إنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب[3] ؛ وإسناد الإشراف على خزانة الكتب إلى داعي الدعاة ، وهو أكبر رئيس ديني بعد قاضي القضاة ، دليل على قيمتها وأهميتها .

وكان في مقدمة الأساتذة المدرسين في الأزهر بنو النعمان قضاة مصر ، فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر ، وكان فوق تضلعه في فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفي سنة ٣٧٤هـ ، ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضي محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ، ثم

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٥ . ولعله لم يفق المكتبة الفاطمية في ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التي بلغت ذروتها في عهد الحكم المستنصر بالله. وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستمائة ألف مجلد .

(٢) الخطط جـ ٢ ص ٢٥٤ ، و٣٣٤ .

(٣) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤

ولده الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله[1]. ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ)، كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته، ثم صديق ولده العزيز من بعده. ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمي الجديد، كما يقول عنان.

وهناك من أعلام الفكر والأدب في هذا العصر من كانت لهم صلة علية بالأزهر فتلقوا دراستهم كما يقول عنان أو تولوا التدريس فيه، فمنهم المسبحي الكاتب والمؤرخ الشهير، وهو الأمير المختار عز الملك، محمد ابن عبد الله بن أحمد الحراني، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ، وتوفي سنة ٤٢٠هـ. وكان من أقطاب الأمراء والعلماء، تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه، وأخذ بقسط في مختلف علوم عصره، ومن المعقول أن يكون المسبحي وهو من أولياء الفاطمية وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين: دار الحكمة والأزهر. وشغف المسبحي بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر»، وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب، وذكر نيلها وأقاليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجري، ولم يصلنا هذا الأثر الذي يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول، ولكن الشذور التي وصلتنا منه على يد المقريزي وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته. وكتب المسبحي كتباً أخرى في التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها[2].

ومنهم أبو عبدالله القضاعي الفقيه والمحدث والمؤرخ، وهو محمد ابن سلامة بن جعفر. ولد بمصر في أواخر القرن الرابع، وتوفي بها

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٣. وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٨، وذيل قضاة مصر (ملحق كتاب الكندي) ص ٥٨٩ و٦١٠ و٦١١

(٢) راجع في ترجمة المسبحي، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٥

سنة ٤٥٤ هـ. وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرة قسطنطينية سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر، وكتب عدة مصنفات في الحديث والفقه والتاريخ منها «الشهاب» و«مسند الأصحاب» وهما في الحديث وكتاب «مناقب الإمام الشافعي» و«أبناء الأنبياء» و«عيون المعارف» وهما مختصران في التاريخ، وكتاب «المختار في ذكر الخطط والآثار» وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[1] .

ومنهم الحوفي النحوي اللغوي، وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم ابن سعيد وكان من أئمة اللغة في عصره، واشتغل مدة طويلة بالتدريس في مصر والقاهرة، وألف كتباً كثيرة في النحو والأدب، منها كتاب «إعراب القرآن» وكانت وفاته في سنة ٤٣٠هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصري، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين واشتهر بتدريس علم القراءات، وتوفي سنة ٤٤٥هـ .

ومنهم ابن بابشاذ النحوي الشهير، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري المعروف بابن بابشاذ، كان إمام عصره في اللغة والنحو وألف فيهما عدة كتب ضخمة واشتغل حيناً بديوان الإنشاء في عهد المستنصر بالله وتوفي سنة ٤٦٩ هـ .

ومنهم أبو عبدالله محمد بن بركات النحوي تلميذ القضاعي، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو وتوفي سنة ٥٢٠هـ .

وبعد فقد كان الأزهر بحق أعظم مؤسس لصرح الحياة العقلية والثقافية في عصر الفاطميين .

---

(١) راجع في ترجمة القضاعي، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥. والسبكي في طبقات الشافعية جـ٣ ص ٦٣ وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنة ٤٤٧ هـ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٨٨

ونذكر في هذه المناسبة أن ممن عهد إليهم في التدريس في الأزهر عند إنشائه القاضي علي بن ميمون المتوفى ٣٧٤هـ ـ ٩٨٤م وأخوه القاضي محمد المتوفى عام ٣٨٩ ـ ٩٩٨م. وقد نبغ الحافظ السلفي المتوفي عام ٥٧٦ هـ ولا شك أنه كان له نشاط علمي في الأزهر .

ونحن نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبية والفلكية والجغرافية تلك العلوم التي أنشأوا لها في عهد الحاكم سنة ٣٩٥هـ مؤسسة خاصة أسموها دار الحكمة ، وهذا مما يرجح في نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة في الأزهر أيضاً ، بالإضافة إلى العلوم الأخرى . غير أنه ليس من شك أن الصدارة والشطر الأكبر من العناية كانتا للعلوم النقلية الدينية ولا سيما علوم قانون الشريعة .

نعم إنه في عهد الدولة الفاطمية ـ أعني في غضون قرنين كاملين ـ اقتصر التعليم الديني على المذهب الشيعي ، فأصبح هو المذهب السائد في التطبيقات العلمية والأحكام القضائية ، وصارت مذاهب أهل السنة مجهولة ، بل كانت كتبهم تصادر في بعض الأحيان .

الأزهر جامع الدولة الرسمي :

في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٢هـ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر عقب مقدمه إلى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، كما يقول عنان[١] ـ إلى الجامع الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس[٢] ، وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمي بالجامع الأزهر .

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمي في ظل الدولة الفاطمية

---

(١) ص ٩٥ الأزهر لعنان

(٢) المقريزي عن ابن زولاق في اتعاظ الحنفاء ص ٩٢

زهاء أربعين عاما تقام فيه الجمع الرسمية ، ويخطب الخليفة فيه بنفسه في جمع رمضان وفي الأعياد ، حتى تم إنشاء الجامع الحاكمي أو الجامع الأنور في عصر الحاكم بأمر الله ، وكان الخليفة العزيز بالله قد بدأ بإنشائه منذ سنة ٣٨٠ هـ، وشهد به الجمعة في رمضان وخطب فيه غير مرة، ولكنه توفي قبل إتمامه ، فعني ولده الحاكم بأمر الله بإتمامه منذ سنة ٣٩٣هـ ، واستغرق بناؤه عشر سنين . ولما تم بناؤه عني الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة ، وزين بالستور الفخمة والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة الرسمية في رمضان سنة ٤٠٣هـ وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً(١) ، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة في جامع الحاكم منافساً ينازعه الصفة الرسمية التي استأثر بها حتى ذلك الحين . وكانت الجمعة الرسمية تقام أيضاً من وقت إلى آخر في بعض المساجد الفاطمية الأخرى ، مثل جامعي راشدة والمقسى اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله، وكانت الخطب الخلافية تلقي في الأزهر والجامع الحاكمي ، وكذلك في جامعي عمرو وابن طولون اللذين لبثا يحتفظان دائماً بهيبتهما القديمة(٢) ، بيد أن الجامع الأزهر لم يفقد من جراء هذه المنافسة مكانته الخاصة ، بل كان دائماً يعتبر في نظر الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة مسجد الدولة الأول .

وكانت إقامة الجمعة والصلوات الموسمية الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبية الرسمية التي أسبغتها عليه الخلافة الفاطمية ، وقد رأينا فيما تقدم أن الجامع الأزهر أنشىء ليكون رمزاً لإمامة الدولة الجديدة ومنبراً لدعوتها ، وقد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظاً بهذه الصفة بالرغم من قيام عدة أخرى من المساجد الفاطمية الجامعة التي نافسته فيما بعد في إقامة الجمعة والصلوات الموسمية ، وكان الخليفة يشهد الصلاة أيام الجمع والأعياد الموسمية ، ويخطب فيها بنفسه في أحيان كثيرة ، وكانت خطبة

---

(١) المقريزي في الخطط ج ٤ ص ٥٦

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣

الجمعة الرسمية ما تزال على عهدها تلقى بالجامع الأزهر حتى أواخر الدولة الفاطمية[1] .

وكان الخليفة يلقي خطب الجمعة في شهر رمضان بالجامع الأزهر قبل إنشاء الجامع الحاكمي وغيره من المساجد الفاطمية الجامعة ، وكان يستريح الجمعة الأولى ويلقي الخطبة في الجمع الثلاث الأخيرة . وكان يركب إلى الصلاة في هيئة مخصوصة ويؤديها وفقاً لرسوم وتقاليد معينة ، وقد انتهت إلينا من أقوال المؤرخين المعاصرين نبذ شائقة في وصف هذه المواكب والرسوم المذهبية الفخمة ، فمثلاً يقول لنا المسبحي في حوادث سنة ٣٨٠هـ ما يأتي :

« وفي يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله إلى جامع القاهرة بالمظلة الذهبية ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش وبيده القضيب ، وعليه الطيلسان والسيف ، فخطب وصلى صلاة الجمعة وانصرف ، فأخذ رقاع المتظلمين بيده وقرأ منها عدة في الطريق ، وكان يوماً عظيماً ذكرته الشعراء »[2] .

وكان للجامع الأزهر يستأثر منذ عهد المعز لدين الله حتى قيام الجامع الحاكمي بالخطب الرسمية الثلاث في رمضان ، ثم كانت تلقى هذه الخطب بعد ذلك على الترتيب الآتي : الأولى بالجامع الحاكمي (أو الجامع الأنوار)، والثانية بالجامع الأزهر ، والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو ، وقد نقل المؤرخون المتأخرون عن ابن الطوير وغيره من المؤرخين المعاصرين هيئة صلاة الجمعة في هذه الأيام المشهودة . وبيان ذلك ـ كما يقول عنان ـ أن يركب الخليفة في موكبه الفخم إلى الجامع ويخرج من باب الذهب والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه ، وقد ارتدى

---

(١) راجع النجوم الزاهرة ٥ ص ١٧٦ حيث يذكر أن خطبة الجمعة كانت تلقي بالإزهر حتى عهد الأمر بأحكام الله (٤٩٦ ـ ٥٢٥ هـ)

(٢) المقريزي عن المسبحي في الخطط جـ ٤ ص ٦١

ثياب الحرير الأبيض الساذجة توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة ، وبين يديه القراء يتلون منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركابية . وإذا كانت الصلاة بالجامع الأزهر فإنه يخرج في موكبه إلى الجامع من باب الديلم الذى غدا باب المشهد الحسيني فيما بعد ، ويعبر « الخوخ » (الدروب) السبع إلى رحبة الجامع الأزهر ، وكانت هذه الرحبة ساحة ساشعة تقع في الجهة البحرية من الجامع ، وكان يحتشد فيها الجند كلما قصد الخليفة إلى الأزهر ، ثم يدخل الخليفة الجامع من بابه البحري ، ويجوز إلى الدهليز الأول الصغير ، ومنه إلى القاعة المعلقة التي كانت برسم جلوسه فيجلس في مجلسة ، وترخى المقرمة الحرير وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم . ويقرأ المقرئون وتفتح أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ، ووضع الحجاب عليها قبل مقدم الخليفة ، وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتي صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولاً بأيدي الفراشين المميزين ، ملفوفاً في العراضي الديبقية ، فيفرش في المحراب ثلاث طراحات فاخرات واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمنة ويسرة يكتب في أولهما بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب في الستر الثاني سورة «المنافقون» كتابة واضحة ، فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ، وعندئذ يصعد قاضي القضاة إلى المنبر وفي يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ، ويبخر بها أعلى المنبر وهو يقبل درجاته . ثم يدخل مقصورة الخليفة مسلماً بقوله : «السلام على أمير المؤمنين الشريف ـ القاضي ـ الخطيب ورحمة الله وبركاته « الصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون والوزراء والأمراء والحرس المسلح ، ويصعد إلى أعلى المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه إليه ، فإذا جلس أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه

بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلاً للخليفة . ويقف ضابطاً للمنبر ، وينهض الخليفة فيلقي خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الإنشاء يتلو فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلي على أبيه علي بن أبي طالب وجده النبي عليه الصلاة والسلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ويتوسل بدعوات فخمة تليق به ، ثم يدعو للوزير والجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ، ثم يختتم بقوله : « اذكروا الله يذكركم » فيصعد اليه الوزير ، ويفك أزرة القبة ويعود القهقري ، فينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحات المذكورة في المحراب وحده إماما ، وخلفه الوزير والقاضي ومن ورائهما الأساتذة والأمراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضي ، وأسمع القاضي المؤذنين فأسمعوا الناس ، ويقرأ الخليفة في الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن ، وفي الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تباعاً ، ثم يعود الخليفة بموكبه إلى القصر والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً ، ويتكرر هذا الترتيب والنظام في الجمعتين الأخريين[1] .

وقد لبث الأزهر في العهد الفاطمي فضلاً عن صبغته الجامعية وعن إقامة الجمع والصلوات الرسمية فيه مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى .

فمن ذلك أنه كان مركز المحتسب ، وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينية في الدولة الفاطمية ، وهو الثالث عندهم بعد قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة ، وله نواب في جميع أنحاء القطر ، ويجلس بالجامع

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٦١ و٦٢ - وراجع أيضاً صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ - ٥١١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٣ و١٠٤ .

الأزهر وجامع مصر (جامع عمرو) يوماً بعد يوم[1] ، وكانت مجالس القضاء تعقد قبل قيام الجامع الأزهر بجامع عمرو والجامع الطولوني .

ومن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمي بالمولد النبوي الكريم ، ففي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول يركب القاضي بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة صواني الحلوى التي أعدت بالقصر لتفرق في أرباب الرسوم : كقاضي القضاة وداعي الدعاة وقراء الحضرة والخطباء وغيرهم ، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة للختمة الكريمة ، ثم يعودون في موكبهم إلى القصر ، وينتظرون تحت المنظرة التي يجلس فيها الخليفة ، ثم تفتح إحدى طاقات المنظرة ويبدو منها وجه الخليفة ، ثم يخرج أحد الأستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء بترتيب معلوم ، فإذا انتهى الحفل أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس[2] .

وكان الاحتفال المحزن بيوم عاشوراء ، أو مأتم عاشوراء ، يقام بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسيني في سنة ٥٤٩هـ ، وكان هذا الحفل من أجمل المظاهر المذهبية التي رتبتها الدولة الفاطمية لإحياء ذكرى الحسين . ففي العاشر من المحرم يحتجب الخليفة عن الناس ، وفي الضحى يركب قاضي القضاة والشهود ، وقد ارتدوا ثياب الحداد ، إلى الجامع الأزهر (أو المشهد الحسيني فيما بعد) في حفل من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والعلماء ، ثم يأتي الوزير فيتبوأ صدر المجلس ، ويجلس إلى جانبيه قاضي القضاة وداعي الدعاة ، والقراء يتلون القرآن ، ثم ينشد قوم من الشعراء أشعاراً في رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ويضج الحضور بالبكاء والعويل ، ثم ينصرف الوزير إلى داره ويستدعي

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣

القوم إلى القصر وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، فيجدون صاحب الباب في انتظارهم فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس على اختلاف مراتبهم ، ويقرأ القراء وينشد المنشدون على النحو السابق . ثم يمد في القاعة سماط الحزن عند الظهر ، وليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان الساذجة والأعسال النحل والخبز الأسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام فإذا انتهى القوم انصرفوا إلى دورهم . ويعم الحزن والنواح القاهرة في ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الأسواق وتسترد العاصمة شيئاً من نشاطها ومظهرها العادي(١) .

وفي ليالي الوقود الأربع ، وهي ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، كان الخليفة يقصد مساء إلى منظرة الجامع الأزهر ، وكانت بجواره من الجهة القبلية وتشرف عليه ويجلس الخليفة في هذه المنظرة ومعه حرمه ، وذلك لمشاهدة الزينات المضيئة والاحتفالات الفخمة التي كانت تقام في تلك الليالي الشهيرة(٢) . وإليك وصف المسبحى لبعض هذه الليالي. قال في حوادث شهر رجب سنة ٣٨٠هـ « وفيه خرج الناس في لياليه على رسمهم في ليالي الجمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة (يعني الجامع الأزهر) عوضاً عن القرافة ، وزيد فيه في الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم في كل سنة ، والأطعمة والحلوى والبخور في مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضي محمد بن النعمان ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والناحة وأقام إلى نصف الليل ، وانصرف إلى داره بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم »، وقال في حوادث شعبان من نفس السنة « وفي ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر

---

(١) راجع خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٨٩ ــ ٢٩١ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ ــ ١٥٤ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ١٨١ و٣٤٥

القاضي محمد بن النعمان في جميع شهوده ووجوه البلد ووقد التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة وفي مجالس العلماء ، وحمل إليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى ، والبخور فكان جمعاً عظيماً »(١) .

وهكذا كانت ليالي الوقود من المناسبات العامة التي يتبوأ فيها الجامع الأزهر مكانة خاصة ، فيخرج الناس إليه من كل فج ، ويبدو فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور وتضاء في جوانبه وعلى حافاته المشاعل والواقدات الساطعة ، ويعقد في صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برياسة قاضي القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الأطعمة والحلوى الفاخرة ، وتضاء جميع المساجد الأخرى وتبدو العاصمة الفاطمية كلها في حلل بديعة من الأنوار الساطعة .

هذا وقد وصف مؤرخو الدولة الفاطمية أيضاً الموكب الرسمي الذي كان ينظم في ليالي الوقود ، عقب الغروب ، ويتقدمه القاضي ، ومن حوله القراء والمؤذنون ويسيرون على ضوء المشاعل والشموع الساطعة إلى القصر ، ثم ينتظمون في ميدان بين القصرين تجاه باب الزمرد ، أحد أبواب القصر الغربية ، وينتظرون هنالك حتى يطل عليهم الخليفة ويحييهم من إحدى طاقات المنظرة الخلافية(٢) .

كذلك كان الجامع الأزهر أيام المعز والعزيز والحاكم ، مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية . وكانت هذه المجالس الشهيرة التي رتبتها الخلافة الفاطمية لبث دعوتها وتوطيد إمامتها تتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها؛ وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس أيام المعز بنو النعمان، وهم أسرة مغربية نابهة قدمت في ركاب الخليفة الفاطمي، وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكانت مجالس الحكمة تعقد أحياناً

---

(١) المقريزي عن المسبحي ـ الخطط ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) راجع خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٤٦، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و٥٠٢

في القصر وأحياناً في الجامع الأزهر ، ويشترك في إلقائها بعض كبراء الدولة مثل الوزير ابن كلس وزير المعز ثم ولده العزيز ، ثم عهد بعد ذلك إلى داعي الدعاة بالإشراف على تنظيم هذه الدعوة وبثها ، ووضعت لها نظم ورسوم خاصة ، وأحيطت مجالس الحكمة يومئذ بشيء من التحفظ واستحالت إلى نوع من الدعوة السرية تلقى في الخاصة قبل كل شيء ، وتعقد مجالسها في القصر، وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر . وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ، وكانت الدعوة تنظم طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة سوى مبادئها وأصولها العامة ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا(١) .

ولا تعرف أية مناسبة أخرى غير مجالس الحكمة الفاطمية يمثل فيها النساء في الجامع الأزهر في ذلك العصر لشهود نوع من القراءة والدرس ، بيد انه يوجد ما يدل على أن النساء كن يظهرن أحياناً في بعض العصور المتأخرة في حلقات الأزهر الدراسية ، وقد كان من هؤلاء أم زينب فاطمة بنت عباس المعروفة بالبغدادية التي توفيت سنة ٧١٤هـ ، وكانت فقيهة وافرة العلم. وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ودمشق(٢) وذكر الجبرتي أيضاً ما يفيد أنه كان ثمة سيدة فقيهة عمياء تحضر دروس الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر في أوائل القرن الثالث عشر الهجري(٣) .

الأزهر وتجديد مبانيه :

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة في

---

(١) الخطط جـ٢ ص ٢٢٥ و٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج٣ ص ٤٨٧. وراجع كتاب الحاكم بأمر الله لعنان ص ١٦١ ـ ١٦٣ .

(٢) راجع خطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٨٢

(٣) راجع ذلك في ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوي في حوادث سنة ١٢٢٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٢) .

فرص عدة ، ففي سنة ٣٧٨هـ جدد فيه العزيز بالله أشياء، ثم جدده ولده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التنانير الفضية، ورتب له في سنة ٤٠٠ هـ مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى أوقافا ينفق من ريعها على إدارته وشؤونه ، فكانت أول وقفية رتبت للجامع الأزهر . وقام الخليفة المستنصر بالله أيضاً بتجديد الأزهر ، وجدده من بعده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مما يلي الباب الغربي مقصورة عرفت بمقصورة فاطمة الزهراء . . . وفي عهد الملك الظاهر بيبرس ، قام الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطة بعمارته وتجديده تجديداً شاملاً ، وكان الخراب قد تطرق اليه ، فأنفق على عمارته وإصلاحه وتجميله أموالاً عظيمة ، وسعى في اعادة خطبة الجمعة اليه كما سنذكر ، وفي سنة ٧٠٢ هـ في عهد السلطان الملك الناصر وقعت بمصر زلزلة عظيمة ، وسقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر ، فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت ، وتولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلار ، وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش مدرسته التي عرفت باسمه « الطيبرسية » بجوار الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية لتكون ملحقاً له ، وكمل بناءها في سنة ٧٠٩ هـ وقرر بها درساً للشافعية، وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد، أستاذ دار الملك الناصر مدرسته المقابلة لها في الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر، مكان دار الأمير عز الدين أيدمر الحلى وقد تم بناؤ ها عام ٧٤٠ هـ وأنشأ بها دروساً للشافعية والحنفية وملجأ للصوفية.
وقد حجبت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية وما زالتا قائمتين في مكانهما إلى اليوم . وفي سنة ٧٢٥ هـ قام بتجديد الجامع الأزهر وعمارته القاضي نجم الدين محتسب القاهرة ، ثم جددت عمارته سنة إحدى وستين وسبعمائة في عهد السلطان الملك الناصر حسن على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار ، وكان يسكن على مقربة من الأزهر ، فاستأذن السلطان في إصلاحه وقام فيه بعمارة شاملة ، وأنشأ فيه دروساً جديدة للفقه الحنفي ، ورتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم ،

وأوقف على ذلك أوقافا جليلة . وفي سنة ٨٨١ هـ في عهد الملك الأشرف قايتباي أمر السلطان بإزالة الخلوات التي كانت بسطح الأزهر وفقا لفتوى صدرت بذلك ، ورسم بتجديد الجامع وعمارة ما تشعث منه ، وأمر بإنشاء المنارة الواقعة في الجهة البحرية الغربية إلى يمين المدرسة الأقبغاوية والباب الذي تعلوه ، حسبما نقش على أحجار هذا الباب ، وتمتاز هذه المنارة برشاقتها وزخارفها الجميلة . وفي أواخر عهد الأشرف أيضاً ، قام الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومي بعمارة الجامع الأزهر وتجديده ، وأنفق عليه من أمواله جملة كبيرة ، وانتهت هذه العمارة في سنة ٩٠٠ هـ . وأنشأ السلطان الغوري بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين التي ما زالت قائمة إلى الآن في الجهة الغربية إلى جانب منارة الأشرف قايتباي .

وفي أثناء العهد التركي قام عدة من الولاة والأكابر بتجديد الأزهر ، فجدده في سنة ١٠٠٤ هـ الشريف محمد باشا و الي مصر ورتب به أطعمة للفقراء . وعمر به الوزير حسن باشا الوالي مقام الحنفية في سنة ١٠١٤ هـ ، ثم جدده الأمير إسماعيل بك ابن الأمير إيواظ بك القاسمي في أوائل القرن الثاني عشر . على أن أعظم عمارة أجريت بالجامع الأزهر في ذلك العهد هي التي قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلي في أواخر القرن الثاني عشر ، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير في الناحية الشرقية القبلية من الجامع بهواً كبيراً يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة ، وأنشأ للجامع محراباً ومنبراً جديدين ، وبنى في أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وأنشأ أيضاً بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً ، وأنشأ له داخل هذه الرحبة مدفناً عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقاً خاصا بطلاب الصعيد ، وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها هي والمدرسة الأقبغاوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما بابا عظيماً بالهيئة التي نراها اليوم . وأنشأ للجامع منارتين جديدتين ، وتقع إحداها في الجهة

الشرقية القبلية والأخرى في الجهة الشرقية ، وعلى الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم ما شهد الجامع الأزهر منذ قرون ، ورتب هذا الأمير الكبير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة ، ومازال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التي جدده بها عبد الرحمن كتخدا ، ما عدا تغييرات وإضافات قليلة أجريت في العهد الأخير(١) .

وهكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية والرعاية من الخلفاء والسلاطين والأمراء ، يتعهدونه بالتجديد والإصلاح والنفقة المستمرة ، ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ما حظي به الأزهر من رعاية ، وقد يرجع أكبر الفضل في ذلك إلى ما يتمتع به الأزهر من الصفات العلمية إلى جانب صفته الدينية ، وما زال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة يحتفظ بفخامته ورونقه وجدته بالرغم من عمره الألفي .

ومما يذكر بالاغتباط أن الأمراء الذين كانوا يبذلون الغالي والرخيص في تشييد هذا الجامع وتكبيره كانوا لا يبغون بذلك سوى وجه الله تعالى وخدمة العلم ، لا حب الظهور والرياء ، فقد ذكر المؤرخون أن الأمير طيبرس مشيد المدرسة الطيبرسية التي هي الآن من ملحقات الأزهر ، لما فرغ من بناء مدرسته وأحضروا اليه حساب نفقاتها ، استدعى بطست مملوء بالماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها ، وقال : شيء خرجنا عنه لله لا نحاسب عليه !

وما زال الجامع الأزهر يحتل الموقع الذي أقيم فيه منذ ألف عام . وما زالت فيه بقية من أبنية الفاطميين الأولى تحتل مكانها الأول داخل الصرح القائم ، وهي تكاد تبلغ نصف المسجد الحالي ، وقد وفقت إدارة الآثار العربية أخيراً إلى الكشف عن رأس المحراب الفاطمي القديم ، وقد

---

(١) راجع ترجمة الامير عبد الرحمن كتخدا وتفاصيل منشآته الكثيرة بالأزهر وغيره من المساجد والمدارس في عجائب الآثار للجبرتي ج ٢ ص ٥ وما بعدها

كان مغطى بغطاء خشبي يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، فظهر بانتزاعه زخارف ونقوش فاطمية يرجح أنها ترجع الى عهد إنشاء المسجد الأول ، أي في عهد جوهر والمعز .

ومقصورة الجامع الأزهر تنقسم الى قسمين : المقصورة الأصلية الكبيرة التي هي من إنشاء القائد جوهر وبها ٧٦ عموداً من الرخام الأبيض الجيد على صفوف متسامتة ، والمقصورة الجديدة التي أحدثها الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ وبها خمسون عموداً من الرخام : فمجموع أعمدة المقصورتين ١٢٦ عموداً ، وإذا أضيف إلى هذا العدد ما بملحقات الجامع من الأعمدة بلغ عددها كلها ٣٧٥ عموداً ، وأرض المقصورة الجديدة مرتفعة عن أرض المقصورة القديمة بنحو نصف ذراع بحيث يصعد من القديمة إلى الحديثة بدرجتين .

وقد أنشأ جوهر القنبقائي مدرسة رواق الجوهرية في أوائل القرن التاسع الهجري ، ودفن بها سنة ٧٤٤ هـ .

وأنشىء في عهد عباس الثاني الرواق العباسي ، واحتفل بافتتاحه في ٢٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ . وهو غاية في الدقة والفن .

وأعظم زيادة دخلت فيه هي كما ذكرنا بناية الأمير عبد الرحمن كتخدا حسن جاويش القازدغلي سنة ١١٦٧ هجرية ، فزادت في سعة هذا الجامع بمقدار النصف تقريباً ، وهو عمل تاريخي جليل .

وبالأزهر الآن خمس منارات يؤذن عليها في الأوقات الخمس وفي الأسحار ، وتضاء بالكهرباء في ليالي رمضان والمواسم ، منها ثلاث منارات من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها منارة الأقبغاوية عن يسار الداخل إلى الأزهر أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد مع مدرسة الأقبغاوية واثنتان عن يمين الداخل، فالتي بجانب الباب مما يلي الداخل أنشأها السلطان الأشرف قايتباي ، والتي تليها من إنشاء السلطان الغوري وهي أعلى مناراته وأعظمها ، والرابعة بباب الصعايدة ،

والخامسة بباب الشربة ، وهما من إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا .

ولقد كان الأزهر الشريف في أول نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين في مصر ، ومن بعدهم الملوك والأمراء والوزراء ، وذوي الجاه منها ، يتنافسون في خدمة هذا الجامع ، ويتعهدون أهله ، ويشرفون على حلقات الدروس فيه ، وينشئون الأروقة لسكنى الطلبة ، ويشيدون دور الكتب في علوم الدين والحكمة والفلسفة ، مما كان له الأثر في حفز همم الشيوخ والطلبة إلى التفرغ للتعلم والتعليم . وقد استمر الأزهر يتسع نطاقه حتى بلغت مساحته الآن سوى ملحقاته ١١٣٨٠ متراً مربعاً .

ويقول الأستاذ محمد عبدالله دراز من كلمة نشرها في مجلة الأزهر عام ١٩٥٢ : البيت المعمور الذي أرسيت قواعده في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله على يدي قائده جوهر الصقلي في سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠م - كان يتألف في أول إنشائه من قسمين : « فناء » فسيح يحيط به نطاق من الأعمدة المعقودة ، و« مقصورة » أو «مصلى» لا تقل عنه اتساعاً ، يشقها « مجاز » ممتد من بابها إلى المحراب . ولا تزال معالم القسمين قائمة إلى يومنا هذا لم ينلها تغيير جوهري .

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شيء من الترميم استجابة لضرورة حفظها وصيانتها . ولكن سائر أجزائها لا تزال كما وضعت أول يوم، ولا سيما « المحراب » الذي تراه الآن بنقوشه ورسومه العتيدة ، و« المجاز » الذي نشاهد أعمدته بنقوشها ورسومها الأولى . وكذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تتسنه، وإنما أضيف إليها في مبدأ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها .

ولقد بقي الأزهر قروناً عدة مكتفياً بحدوده الأولى هذه ، حتى كانت بداية القرن الثامن الهجري ، فهناك أخذت تضاف اليه في عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت في مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب ،

حتى صار « فناؤه » الخارجي « صحناً » داخلياً ، وحتى بلغت مساحة المسجد الآن ١١٣٨٠ متراً مربعاً ، لا يدخل فيها حساب الملحقات .

أولى هذه الإضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا في المسجد عند دخولنا من الباب الكبير الشمالي الغربي المطل على الميدان . ذلك أننا نجد أنفسنا في دهليز متوسط الاتساع ، فاصل بين جناحين من الأبنية عن يمين وشمال ، ونجد أمامنا باباً كبيراً آخر داخلياً يفتح على صحن المسجد ، فهذا الباب الداخلي الذي يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخي . أما كل هذه الأبنية عن اليمين والشمال فيما بين البابين ، وكذلك الأرض التي أقيمت عليها هذه الأبنية ، فإنها من الزيادات التي ضمت إلى الجامع في القرن الثامن الهجري وما بعده .

فالجناح الأيمن (ماعدا منارتيه) أنشأه الامير طيبرس في سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا في سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م). والباب الداخلي والمنارة الرشيقة التي فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباي في سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨م) والمنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين وهي التي تلي هذه على اليمين أيضاً من صنع السلطان الغوري في سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠م) .

ولقد كان الجناحان في نظر مؤسسيهما مدرستين ، ولكن التثقيف العقلي في رأيهما ـ وكذلك هو دائماً في نظر كل سياسة رشيدة ـ لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحي ولذلك أقام كل منهما في مدرسته محراباً[١] أنيقاً دقيقاً من الرخام والذهب لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته ، كأنما صنع أمس .

والجناحان[٢] اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الأزهرية التي تعد من

(١) بل إن مدرسة أقبغا تحتوي محرابين اثنين

(٢) الجناح الأيسر حول إلى مكتبة منذ سنة ١١١٤ هـ (١٨٩٦م) . والجناح الايمن شغل جانب منه ببعض خزائن الكتب في عهد قريب.

أنفس المكتبات في العالم ، بما فيها من المخطوطات النادرة ، والمجلدات التي تبلغ زهاء مائة ألف مجلد . . فلنغادر الآن هذه الزيادات ، ولنعبر « الصحن » في خط مستقيم ، ولندخل المقصورة نجتازها إلى المحراب . . . هنالك سنشعر بشيء من الدهشة، إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب ، بل نراه منعزلاً تمام العزلة في وسط المصلى ؛ ونلاحظ فوق ذلك أن الأرض التي تمتد من خلف هذا المحراب ، والتي تكاد تعادل مساحة الأرض التي أمامه ، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد اليها بدرجتين ؛ ونرى أخيراً أن هناك محراباً ثانياً مستنداً كالعادة إلى الجدار الجنوبي الشرقي الذي هو جدار القبلة .

غير أن هذه الدهشة ستزايلنا متى عرفنا أن هذا الإيوان المرتفع قليلاً ، والمحراب الذي عليه ، المتصل بالجدار ، وكذلك البابان اللذان في هذا الجدار ، والمنارتان المقامتان فوقهما ، كل هذه زيادات جديدة في المقصورة أضيفت إليها أخيراً على يد الأمير[1] عبد الرحمن كتخدا في سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣م) . ومن السهل حينئذ أن نعرف إلى أي حد بلغ ورع هذا الأمير وتقواه في المحافظة على تراث سلفه الصالح ، وعدم الجرأة على تغيير شيء من معالمه بغير ضرورة مادية . . وهذا هو ما يسمى في لغة العصر الحاضر : احترام الماضي وصيانة آثار القدماء .

وقبل أن نتأهب للإنصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقترب من جدارها الشمالي الشرقي . . . فسنجد فيه باباً صغيراً ننفذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م). لقد بناه هذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة ، ولكنه جمع فيها كل عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق ودقة الفن . وفيها قبة تقوم على قبر بانيها .

---

(١) إلى هذا الأمير يرجع الفضل أيضاً في بناء الباب الكثير الذي في المدخل على الميدان، وفي تجديد واجهته اليمنى، وهي جدار المدرسة الطيبرسية .

وقد جدد في عهد الخديوي إسماعيل في سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) بناء أحد البابين اللذين في جدار القبلة ، كما أنه في عهد توفيق جدد في سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م) بناء الإيوان الذي ينتهي بهذا الجدار ، وهاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كتخدا كما يعلم مما أسلفناه .

على أن أحدث الزيادات وأفخمها هي المنشآت التي أقيمت منذ عام ١٩٣٣ وتم بعضها في ذلك الحين ، ولا يزال العمل جارياً في تكميل باقيها . وهي مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد ، ولكنها تشرف عليه من الشمال والشمال الشرقي ، ومن الشرق والجنوب الشرقي ، وقد برز إلى الوجود في سنتي ١٩٣٥ و١٩٣٦م أربع عمارات كبيرة ، خصصت واحدة منها لإدارة الجامعة ، والثلاثة الباقية لسكنى الطلاب . وأما في عهدنا هذا فقد تم حتى اليوم :

١ ـ مدرج فخم على أحدث طراز يتسع لألفي مستمع .

٢ ـ كلية للشريعة الإسلامية.

٣ ـ كلية للغة العربية ، والكلية الباقية وهي كلية أصول الدين في دور الإنشاء، ومن الأعمال المتوقع البدء فيها إنشاء .

١ ـ مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد .

٢ ـ معهد ابتدائي وثانوي يحضر للكليات الأزهرية .

٣ ـ مستشفى .

٤ ـ حديقة .

ولما كانت أزمة المساكن لا تزال في حدتها ، فإنه ينظر الآن في مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب، ولا سيما الوافدين منهم من الأقطار الخارجية الإسلامية، بحيث يتألف منها ومن المساكن القائمة الآن مدينة جامعية حقيقية تتصل بحرم المسجد ومنشآته .

الفصل الخامس

الأزهر في عهد الدولة الأيوبية

• التاريخ السياسي للدولة :

قامت الدولة الأيوبية في مصر من عام ٥٦٧ هـ على يدي مؤسسها : السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد دعم كيان دولته ، ومحا من مصر المذهب الفاطمي ، وأحل محله المذهب السني ، وعني بنشر العلم وتشجيع العلماء ، ووقف في وجه الصليبيين وقفات خالدات في تاريخ الشرق الاسلامي . . وكان عادلاً محبباً من قلوب الناس ، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز[1] ، ونشر العدل في الرعية وحكم بالقسط بين البرية وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء ، مع الدين والورع والزهد والعلم ، وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم[2] وأصبحت عاصمة البلاد في عهده ، ويذكر السيوطي أنه رحل بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السلفى[3] . وتوفي عام ٥٨٩ هـ عن سبعة وخمسين عاماً .

مات السلطان فخلفه على عرش مصر ابنه عماد الدين عثمان فسار

---

(١) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٢) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة ط ١٣٢٧ هـ .

(٣) ٢٦ ج ٢ حسن المحاضرة

سيرة حسنة ومات سنة ٥٩٥ هـ ودفن في قبة الامام الشافعي ، فأقيم ولده المنصور مكانه ، ولكن عم أبيه الملك العادل نزعه عام ٩٩٦ هـ وتولى مكانه .

والملك العادل أبو بكر بن أيوب هو أخو السلطان صلاح الدين ، وكان شديد الحب للعلماء ، وأبلى بلاء حسناً في مقاومة الغزو الصليبي للبلاد ومات عام ٦١٦ هـ .

وخلفه ابنه الملك الكامل محمد ، (٦١٦ هـ - ٦٣٥ هـ) وقد حكم مصر حوالي أربعين عاماً ، كان في العشرين عاماً الأولى نائباً عن أبيه ، وكان في العشرين عاماً الأخيرة يحكم بنفسه بعد موت أبيه ، وكان الكامل معظماً للسنة النبوية وأهلها راغباً في نشرها والتمسك بها ، مؤثراً الاجتماع مع العلماء ، والكلام معهم حضرا وسفرا(١) ، وقد أنشأ دار الحديث بالقاهرة ، وعمر القبة على ضريح الشافعي وكان معظماً للسنة وأهلها(٢) ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر من رجب عام ٦٣٥ هـ ، وأقيم بعده ابنه الملك العادل أبو بكر ، ولكن الملك الصالح أيوب نزع الملك منه وتولى حكم مصر عام ٦٣٧ هـ .

كان الملك الصالح مهيباً جداً ، دبر المملكة على أحسن وجه ، وبنى المدارس الأربعة بين القصرين ، وعمر قلعة بالروضة ، وهو الذي أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم ، ولم يكن ذلك قبله فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين(٣) ، ومات في ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧ هـ ، وهو مستعد لقتال الصليبيين في المنصورة ، فأخفت زوجته

---

(١) ٢٣٠ ج ٦ النجوم الزاهرة .
(٢) ٣٣ ج ٢ حسن المحاضرة .
(٣) ٣٤ ج ٢ حسن المحاضرة:

شجرة الدر موته ، حتى حضر ابنه الملك المعظم توران شاه فتولى الملك في ذي القعدة عام ٦٤٧ هـ ، وقاتل الإفرنج وكسرهم ، وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأسر الملك لويس السادس ملك فرنسا ، وحبس في دار ابن لقمان بالمنصورة ثم نفرت قلوب الجيش من توارن شاه فقتلوه في ١٧ محرم عام ٦٤٨ هـ ، وولوا شجرة الدر مكانه وكان يخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي ، ولم يل مصر امرأة في الإسلام قبلها ، ولما وليت تكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة ، وأرسل الخليفة العباسي المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك ، وأقامت شجرة الدر في المملكة ثلاثة أشهر ثم عزلت نفسها ، واتفق القواد على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل فملكوه في جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ ، وجعلوا عز الدين أيبك التركماني مملوك الملك الصالح قيما عليه ، وعظم شأن المماليك الأتراك من يومئذ ، وفي عام ٦٥٢ هـ خلع عز الدين الملك الأشرف واستقل بالملك ، وهو أول من ملك مصر من المماليك الأتراك ، وتزوج شجرة الدر ، ثم خطب عليها ابنة صاحب الموصل ، فقتلته شجرة الدر عام ٦٥٥ ، وخلفه ابنه المنصور ، حتى قضى على ملك الدولة الأيوبية الأمير يوسف الدين قطز، الذي لقب نفسه بالملك المظفر، وذلك عام ٦٥٧ هـ.

ومن الجدير بالذكر أن ملوك الدولة الأيوبية كانوا يتلقون مراسيم ولايتهم من خلفاء بغداد العباسيين ، مع استقلالهم السياسي والإداري على خلافة بغداد .

الأزهر في عهد الدولة الأيوبية :

بزوال الدولة الفاطمية من مصر وقيام الدولة الأيوبية مقامها ، انمحت معالم الفقه الإسماعيلي الشيعي ، فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل

أثر للشيعة ، وأفتوا بإبطال إقامة الجمعة في الأزهر[1] ولبثت إقامة الجمعة معطلة . فيه نحو مائة عام ، وذلك من عام ٥٦٧ ـ ٦٦٥ هـ .

وفي عهد الدولة الأيوبية أنشئت عدة مدارس تنافس الأزهر في رسالته العلمية ، فبنى صلاح الدين مدرسة للشافعية بجوار مسجد عمرو ، ومدرسة أخرى للمالكية وعرفت باسم « دار الغزل » ثم عرفت بالمدرسة القمحية ، ثم بنى مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم « المدرسة السيوفية » ، كما بنى مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعي خاصة ، وهو المذهب الذي كان عليه أكثر أفراد البيت الأيوبي نفسه ، وكانت مدرسة منها بجوار الإمام الشافعي والأخرى بجوار المشهد الحسيني . . ويحصى المقريزي المدارس التي بنيت في القاهرة وحدها بثماني عشرة مدرسة[2] .

وقد بنيت في القاهرة والفسطاط معاً نحو خمسة وعشرين مدرسة : منها المدرسة الكاملية وتسمى دار الحديث ، وقد أنشأها الملك الكامل عام ٦٢١ هـ وكملت عمارتها سنة ٦٢٢ هـ ، وتولى مشيختها أبو الخطاب عمر بن دحية ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن دحية[3] ، ومن مشايخها أيضاً القسطلاني الشافعي وابن دقيق العيد .

ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية وقد بناها الملك الصالح عام ٦٣٩ هـ وهي أربع مدارس للمذاهب الأربعة ، وكانت من أجل مدارس القاهرة[4] .

---

(١) أصدر قاضي القضاة الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس فتوى بأنه لا يجوز إقامة الجمعة في بلد واحد في مكانين فأبطل إقامتها بالأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي

(٢) ١٩٣ - ٢١٦ ج ٤ خطط المقريزي .

(٣) ١٤٢ ج ٢ حسن المحاضرة

(٤) ١٤٢ ج ٢ حسن المحاضرة

ومنها المدرسة الفاضلية بناها القاضي الفاضل عام ٥٨٠ هـ وكان في مكتبتها مائة ألف كتاب مجلد[١] .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تتخصص في دراسة بعينها ، وكان الغرض من إنشاء هذه المدارس هو منافسة الأزهر وصرف الطلاب عنه ، وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أي حتى بعد عصر الأيوبيين أثر كبير في سير الدراسة في الأزهر ، إذ نافسته هذه المدارس منافسة شديدة وجذبت إليها أعلام الأساتذة ، وقضى الأزهر في هذه المدة عصراً من الركود الطويل .

وقد كان الأيوبيون من الغلاة في المذهب الشافعي ، وكانوا من أتباع الأشعري ، وكان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكراً مستقلاً يناهض معسكر الأشاعرة ، وكان من نتائج تصادم الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعددة أن اشتدت روح التعصب والمغالاة ، فكان كل فريق يدفع صاحبه بما يملك من أسلحة الهجوم ، فكان أهل السنة يطعنون الشيعة بأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، وقد أصدر بلاط بغداد في سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله فتوى رسمية موقعاً عليها من كبار الفقهاء والقضاة بهذا المعنى ، طعناً في الفاطميين خلفاء مصر .

ومن ناحية أخرى لم يتوان الأشاعرة عن استعمال سلاح التكفير والتفسيق في شتى المناسبات ، حتى بلغ الأمر فصل الحنابلة كفرقة تلز في قرن مع النصارى واليهود والباطنية . ومن طريف ما يروى أن منشىء المدرسة الرواحية في دمشق نص في حجة وقفيته على هذه المدرسة نصاً يمنع دخول اليهود والمسيحيين والحنابلة لهذه المدرسة .

ومن هنا ورث الأزهر التعصب المذهبي الشديد إلى حد الإفتاء بالكفر وعدم صحة الاقتداء بالمخالف في المذهب ، فقد أفتى ابن حجر الهيثمي بأن ابن تيمية العالم الفقيه كافر لا تصح الصلاة وراءه ، وأمر

---

(١) ٢٥٥ ج ٢ الخطط للمقريزي

القاضي عياض بإحراق كتب الغزالي لما يوجد بها من أشياء لا يرتضيها أهل السنة . ونقل الكمال بن الهمام عن أحد علماء الحنفية أنه لا تجوز المناكحة بين أهل السنة والاعتزال .

وظل هذا التعصب يشتد ويشغل أمره العلماء ، فاتهم كل مجتهد يخرج على التقاليد العلمية في عصره بالزندقة والضلال . والضلال يومذاك كانت كلمة ترادف التفكير الحر الذي لا يرضى بالتقليد ، ولا يرضى أن يكون في آرائه من العبيد . وكان الضلال عنوان نضوج العقل ، أو كما يقول الغزالي : وأستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، وأستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف .

ولما كثرت المدارس في عهد الأيوبيين وأرادوا جذب أساتذة الأزهر إليها ، أغدقوا لهم في العطاء ، وأجزلوا في المرتبات ، وبعد أن كان العلماء يعتمدون في العصور الأولى على أنفسهم في سد حاجات عيشهم عن طريق السعي وراء الرزق أو استجلاب الربح من صنعة أو حرفة ، فكان منهم في العصر الأول البزاز والزجاج والصائغ والصباغ والفراء ، إلى ما لهم من شهرة في العلم ، أصبحوا في هذا العهد وما تلاه من عهود المماليك يعتمدون على الدولة وما تعطيهم من إعانات ، وما تدره عليهم من غلات أوقاف ، أو نظارات في حياتهم ، مما مكن للدولة من ضمان بقائهم في صفها ، ولم يدع للعلماء حرية كاملة في إبداء ما يرون من آراء على الوجه الذي يرضي الله والضمير والحق والعدل . بل كثيراً ما كان هذا النوع سبباً في تحاسد العلماء وسعى بعضهم ببعض عند الأمراء ، لتوجبه وظيفة أو إعطاء وقف .

أشهر العلماء في عصر الدولة الأيوبية

صلة الأزهر وأثر الأزهر فيهم ؟

نبغ في العصر الأيوبي كثير من العلماء والأدباء والشعراء، منهم: الحسن الفارسي الفقيه الحنفي العالم باللغة والأدب والطب والهيئة المتوفى عام ٥٩٨ هـ[١]. ومنهم: ابن الحاجب النحوي (٥٦٦ - ٦٤٦ هـ) المشهور[٢]، والشاطبي (٥٣٨ - ٥٩٠ هـ)[٣]، وابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) الصوفي الزاهد الشاعر المعروف[٤]، وعز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)[٥] واشتهر فيه من الصوفية سيدى أحمد البدوي (٥٩٦ - ٦٧٥ هـ)[٦]، وعبد الرحيم القنائي المتوفي عام ٥٩٢ هـ[٧]، وسواهم.

ومن العلماء أيضاً الحافظ المنذري شيخ الإسلام (٥٨١ - ٦٦٠ هـ)، والسخاوي المصري (٥٥٨ - ٦٤٣ هـ) صاحب التفسير المشهور وشرح الشاطبية، وابن سرايا (٥٧٠ - ٦٥١ هـ) المفسر العالم

---

(١) ١٢٦ ج ١ حسن المحاضرة

(٢) ١٩٤ ج ١ حسن المحاضرة

(٣) ٢١٢ ج ١ حسن المحاضرة

(٤) ٢٢١ ج ١ حسن المحاضرة

(٥) ١٢٧ ج ١ حسن المحاضرة

(٦) ٢٢٣ ج ١ حسن المحاضرة

(٧) ٢٢٠ ج ١ حسن المحاضرة

بالقراءات ، وابن المنير (٦٢٠ - ٦٨٣ هـ) وكان إماماً في النحو والأدب والأصول والتفسير . .

ومنهم ابن بـري المتـوفى عـام ٥٨٢ هـ، وابن معـطى المتـوفى عـام ٦٢٨ هـ ، وكانا إمامين في العربية ، وابن مالك الأندلسي المتوفي عام ٦٧٢ هـ وقد أقام بمصر حيناً كما أقام بـدمشق وحلب، وكذلـك ابن الصلاح وتوفي عام ٦٤٣ هـ.

ومن الأدباء ابن شيث من أدباء القرن السادس ، وابن أبي الأصبع المتوفي عام ٦٥٤ هـ، وابن الساعاتي المتوفى عام ٦٠٤ هـ، وأبو الحسين الجـزار الشاعر، وأبو شامة المتوفي عام ٦٩٥ هـ، والتلعفري (٥٩٣ - ٦٧٥ هـ)، وابن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ، والقاضي الفاضل المتـوفى عام ٥٩٦ هـ، والعمـاد الأصبهاني المتوفى عام ٥٩٧ هـ.

ومن الحكماء الوزير القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ).

ومن المؤرخين ابن شداد (٥٣٩ - ٦١٥ هـ) ، وابن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ) .

ولا شـك أنه كـان لكثير من هؤلاء العلماء تلمـذة على أسـاتـذة الأزهـر وحلقاته العلمية في العصر الفاطمي ، فإذا كان الأزهر قد أوقف نشاطه العلمي في هذا العصر فأثره الروحي كان باقياً مستمراً .

وقد اشتهر في هذا العصر الكثير من الشعراء ، منهم : البهاء زهير (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) ، وابن مطروح (٥٩٢ - ٦٤٩ هـ) ، وابن النبيه المتوفى عام ٦١٩ هـ ، وابن الساعاتي المتوفى عام ٦٠٤ هـ ، وابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ . وابن التعاويذي (٥١٩ - ٥٨٤ هـ) ، وسراج الدين الوارق المتوفى عام ٦٥٥ هـ . ولا شك أن نشأتهم الأدبية كانت أثراً لثقافة الأزهر اللغوية والأدبية التي ظلت متوارثة في عهد الأيوبيين .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر في تلك الحقبة لم

يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظاً بصفته كمعهد للدرس والقراءة .
ومع أنه لم يكن يحظى في ذلك العصر بكثير من الرعاية الرسمية ، فإنه لبث مع ذلك محتفظاً بكثير من هيبته العلمية القديمة ، فنراه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادي الذي وفد على مصر في سنة ٥٨٩ هـ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز في سنة ٥٩٥ هـ[١] .

(١) كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (مصر) في المقدمة.

الفصل السادس

الأزهر في ظلال دولتي المماليك ٦٥٧-٩٢٣ هـ

التاريخ السياسي لهذا العصر :

ينقسم هذا العصر إلى عهدين :

١ ـ عهد دولة المماليك البحرية وينتهي عام ٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢م .

٢ ـ وعهد دولة المماليك الشراكسة ــ أو المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ : ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م) .

أما دولة المماليك البحرية فتبدأ شكلاً من عام ٦٥٧ هـ وإن كان بدؤها الحقيقي هو عام ٦٤٨ هـ : ١٢٥٠م ، حينما قتل توران شاه ودخلت مصر بعدها في نفوذ مماليك هذه الدولة ، الذي كان الصالح أيوب يكثر من شرائهم وينزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة ، حتى سموا لذلك بالمماليك البحرية ، وقد بقي الملك في أيديهم إلى عام ٧٨٤ هـ ، وكان عدد ملوكهم أربعة وعشرين سلطاناً .

أولهم السلطان : عز الدين أيبك التركماني الذي ولي الحكم عام ٦٤٨ هـ ، وتزوج شجرة الدر ، وقتل عام ٦٥٥ هـ ، فخلفه ابنه المنصور ، الذي تولى الوصاية عليه « سيف الدين قطز » ، ثم أعلن قطز توليه الملك وخلع المنصور عام ٦٥٧ هـ ـ ١٢٥٩م وبذلك تبدأ دولة المماليك البحرية في تاريخ مصر .

كان «قطز» هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، تولى الملك عام ٦٥٧ هـ،

ولما سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م في أيدي التتار، وزحفوا نحو مصر، التقى بهم «قطز» في «عين جالوت» بفلسطين ثم في «بيسان» وهزمهم هزيمة ساحقة، وكان الفضل في ذلك لقائده «الأمير ركن الدين بيبرس»، وفي عودتهم إلى مصر قتل «بيبرس» السلطان «قطز»[١] وتولى مكانه حكم البلاد.

تقلد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري حكم مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) وكان أشهر سلاطين المماليك البحرية ، وقد نظم أمور الدولة والجيش ، وأنشأ الأساطيل ، وعني بتحصين الشام . . ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، واستمد سلطة الملك منه نائباً عنه عام ٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١م[٢] ، وكان أول من بايع الخليفة العباسي شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام[٣] ، وقد ذهب الخليفة لمحاربة التتار على رأس جيش مصري فقتل قرب دمشق عام ٦٦٠ هـ فتولى بعده لقب الخلافة العباسية في مصر الخليفة العباسي أبو العباس أحمد ولقب الحاكم بأمر الله[٤] .

وكان للسلطان « الظاهر بيبرس » أعمال حربية، وإصلاحات داخلية ، محمودة وفي أيامه طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة عام ٦٧٥ هـ ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية .

---

(١) كان قطز في أول ولايته قد عزم على فرض ضرائب جديدة على المصريين لينفقها على الجيش الذي سيوجهه إلى حرب التتار، فجمع العلماء لذلك، فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصاح: لايجوز أن يؤخذ شيء من الرعية حتى لا يبقى في بيت المال شيء وتبيعون مالكم من الحوائص في الآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا في ذلك هم والعامة، وأما أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجندي من الأموال والآلات الفاخرة فلا (٣٦ ج ٢ حسن المحاضرة)

(٢) راجع صفحة ٤٠ وما بعدها ج ٢ من كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي

(٣) ٤٤ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٤) ٤٧ ج ٢ حسن المحاضرة

وبعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر ولم تطل مدتهما، وانتهى الأمر بتولي السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) ، فبقي الملك في بيته أكثر من مائة سنة ، وساد في عهده العدل والسكينة .

وخلفه ابنه الأشرف خليل وكان شجاعاً مقداماً مظفراً عادلا ، فقتل بعد ثلاث سنوات، ومما يذكر أنه هو الذي قضى على إمارات الصليبيين بالشام .

وخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١م) ، وقد هزم التتار قرب دمشق عام ٧٠٢ هـ - ١٣٠٣ هـ هزيمة ساحقة اثناء محاولتهم التقدم لفتح مصر ، وعني الناصر بشؤون بلاده الداخلية ونشر العلوم والمعارف ، وشيد المباني الفخمة ، وتوفي الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله في عهده عام ٧٠١ هـ ، ودفن بجوار السيدة نفيسة في قبة بنيت له ، وهو أول خليفة مات بمصر من بني العباس ، وولي الخلافة بعده ابنه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفي بالله وخطب له على المنابر في مصر والشام[1] ، ولم يكن السلطان قد أمضى عهد والده له بالخلافة حتى سأل الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قاضي القضاة بمصر يومئذ: هل يصلح للخلافة أو لا؟ فقال الشيخ: نعم يصلح ، فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده له[1] ومات ، في شعبان سنة ٧٤٠ هـ في قوص ودفن بها ، وتولى بعده الخلافة الواثق بالله رغم معارضة قاضي القضاة عز الدين بن جماعة ، ومات الناصر عام ٧٤١ هـ (١٣٤١م)، ولم يترك خلفاً يقدر على القيام بعبء الملك بعده ، ومن أبنائه السلطان حسن الذي بنى المدرسة العظيمة التي لم يخلف السلطان أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهي المشهورة الآن بجامع السلطان حسن بجوار قلعة القاهرة ، وانتهى الامر بانقراض هذه الدولة

---

١) ٤٩ ج ٢ حسن المحاضرة

واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك .

وقد عزل الخليفة الواثق وبويع لأحمد بن المستكفي ولقب المستنصر ثم لقب بعد ذلك الحاكم بأمر الله ـ لقب جده ـ وذلك بحضور ابن جماعة وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وذلك عام ٧٤٢ هـ ومات الخليفة عام ٧٥٣ هـ، وبويع بعده لأخيه المعتضد بالله وظل خليفة حتى مات عام ٧٦٣ هـ ، وظل بنو العباس في مصر يتوارثون الخلافة إلى أمد بعيد .

وأما دولة المماليك الشراكسة فقد حكمت مصر من عام ٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ ، ومعظمهم من الشراكسة ، بعكس المماليك البحريين فكانوا من الترك . . ولم يكن الملك في دولة المماليك الشراكسة وراثياً كما كان في بيت قلاوون ، وعدد ملوك هذه الدولة ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم في التسع السنوات الأخرى أربعة عشر ، وقد كان لملوك هذه الدولة ولع بالعلوم والآداب والفنون ، وإن كانوا لم يحرصوا على العدل في حكمهم .

وأشهر ملوكهم وأولهم : « الملك الظاهر سيف الدين برقوق » وقد مات عام ٨٠١ هـ ـ ١٣٩٩م ، وخلف مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق .

وخلفه ابنه فرج الذي حارب تيمورلنك ، وعقد معه صلحاً .

ومن ملوك هذه الدولة « المؤيد شيخ » باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار « باب زويلة » .

ومنهم : الأشرف برسباي ٨٢٥ ـ ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م ، وقايتباي ٨٧٣ ـ ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م ، والغوري ٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ ـ ١٥١٦م ، وقد انتهى أمره بأن قتله السلطان سليم العثماني فاتح مصر عام ٩٢٣ هـ ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية .

الأزهر في هذا العصر

١ ـ في عهد السلطان بيبرس والسلاطين بعده :

في سنة ٦٦٥ جدده الأمير عز الدين ايدمر الحلي بسبب أنه كان مجاوراً له بالسكنى، وكانت داره مكان الأقبغاوية المجعولة مكتبة الأزهر الآن ، فراعى حرمة الجوار وانتزع له أشياء كانت مغصوبة وأحاط أموره حتى جمع له شيئاً صالحاً مع ماتبرع به له من المال الجزيل ، وأطلق له من السلطان جملة من المال وشرع في عمارته ، فعمر الواهي من أركانه وجدرانه وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه ، حتى عاد حرماً بعد أن كان بالياً ، واستجد به مقصورة حسنة وترك آثاراً صالحة . . وكذا عمل فيه الأمير بيلبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي ومحدثاً يسمع الحديث النبوي ، ووقف على ذلك الأوقاف الدرارة ورتب به سبعة لقراءة القرآن ومدرساً ، وأقيمت فيه الجمعة يومئذ ، وحضر فيه الأمراء والكبراء والعلماء ، وكان يوماً مشهوداً ، وبعد الفراغ من الجمعة قام الأمير عز الدين إلى داره ومعه الأمراء فقدم لهم موائد الطعام ، وكان قد أخذ فتاوى من العلماء بجواز الجمعة فيه .

وهذا أول افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة بعد انقطاعه منه في عصر الدولة الأيوبية .

وفي شهر الحجة سنة ٧٠٢ هـ حدثت زلزلة شديدة بديار مصر فسقط الجامع الأزهر والجامع الحاكمي وجامع عمرو ، وغيرها ، فتقاسم أمراء

الدولة عمارة الجوامع ، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمي ، وتولى الأمير سيف الدين بكشمر الجوكندار عمارة جامع الصالح ، وتولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر ، فجددوا مبانيها وأعادوا بما تهدم منها . . وفي ٧٠٩ بنيت فيه مدرسة الطيبرسية .

والأمير سلار كان من من مماليك الصالح علاء الدين بن المنصور قلاوون ، واتصل بخدمة الأشرف وتوفي عام ٧١٠ هـ .

وفي سنة ٧٢٥ هـ جددت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضي نجم الدين محمد بن حسين بـن علي الاسعردي محتسب القاهرة . . . ثم في سنة ٧٤٠ أنشئت الأقبغاوية التي هي محل المكتبة الأزهرية الآن ، وفي سنة ٧٤٤ تمت الجوهرية .

وفي سنة ٧٦١ جددت عمارة الأزهر عندما سكن الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري في دار الأمير فخر الدين ابان الزاهري الصالحي النجمي بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر بعدما هدمها وعمر داره التي تعرف في ذاك الوقت بدار بشير الجمدار ، وأحب لقربه من الجامع الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً ، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في عمارته وكان خصيصاً به ، فأذن له في ذلك وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته ، فأخرج الخزائن والصناديق ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالإصلاح ، حتى عادت كأنها جديدة ، وبيض الجامع كله وبلطه ، ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفاً وجعل له قارئاً ، وأنشأ على باب الجامع القبلي حانوتاً لسبيل الماء العذب في كل يوم وعمل فوقه مدرسة لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ورتب للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم . وأنزل إليه قدوراً من نحاس جعلها فيه ورتب فيه دروساً للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه في المحراب ووقف على ذلك أوقافاً جليلة .

وفي سنة ٧٨٤ هـ ولي الأمير بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الأزهر ، ونجز مرسوم السلطان برقوق بأن من مات من مجاوري الجامع الأزهر من غير وارث شرعي وترك شيئاً فإنه يأخذه السجاورون بالجامع ، ونقش بذلك على حجر عند الباب الكبير وهو غير موجود الآن .

وكان عدد طلبة الأزهر في أوائل القرن الثامن ٥٧٠ طالباً كما يقول المقريزي . وفي سنة ٨٠٠ هدمت منارة الأزهر وكانت قصيرة وعمرت بأطول منها وبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم ، وكملت في ربيع الأخر من السنة المذكورة فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، واجتمع القراء والوعاظ به وتلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان ، ولم تزل هذه المنارة إلى شوال سنة ٨١٨ فهدمت لميل ظهر فيها وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعدما هدم الباب وأعيد بناؤه بالحجر وركبت المنارة فوق عقده، وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل ثم هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين الشوبكي والى القاهرة ومحتسبها ، وتمت سنة ٨١٨ فلم تقم غير قليل ومالت حتى كادت تسقط ، فهدمت سنة ٨٢٧ ، وأعيدت وفي هذه السنة ابتدىء بعمل الصهريج الذي بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء ووجد أيضاً جثث أموات . وتم بناؤه في ربيع الأول سنة ٧٢٧ هـ وعمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسيل فيه الماء وغرس بصحن الجامع أربع شجرات ولم تفلح وماتت ، ولم يكن للجامع الأزهر ميضأة عندما بني ، ثم عملت ميضأته .

وفي سنة ٨١٨ هـ تولى نظارة الجامع الأزهر الأمير سودوب حاجب الحجاب ، فأهان طلبة الأزهر وأخرجهم منه وكان عددهم يومئذ ٧٥٠ طالباً من شتى البلاد الإسلامية وأنحاء مصر ، وكان الأزهر يومئذ عامراً بتلاوة

القرآن ودراسته وأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ .

وكان الإنسان إذا دخله يجد من الانس بالله والارتياح ما لايجده في غيره وصار يقصده أرباب الأموال للتبرك ويصلون أهله بأنواع الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، فرأى سودوب المذكور ان يأمر بإخراجهم ومنعهم من المبيت به فأخرجهم وما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف ، وقد حل بفقراء المجاورين بلاء شديد بعدما هجم عليهم مرة بعد العشاء الأخيرة، هو ومن كان معه من الغلمان والأعوان وغوغاء العامة ومن يريد النهب ، فضربهم ونهبت فرشهم وعمائمهم وسلبت نقودهم فتشتت شملهم وساروا في القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد الجامع كثيراً مما كان فيه، فعاجل الله الأمير سودوب بالانتقام وقبض عليه السلطان وسجنه .

وفي سنة ٩٠٠ أجرى مصطفى بن محمّد بن رستم الرومي عمارة الجامع الأزهر وصرف عليه من ماله نحو خمسة عشر ألف دينار وجاء في غاية الحسن .

وأنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباي ميضأة بالجامع الأزهر وفسقية معتبرة من داخلها، وقد أبدلت بحنفيات سنة ١٣١٧ ، وأنشأ أيضاً سبيلاً ومكتباً على باب الجامع وقد أزيل المكتب أيضاً ، وهو الذي أنشأ رواق الشوام ورواق المغاربة ، وأنشأ المنارة العظيمة على يمين الداخل فيه .

وقد رتب الملك قانصوه الأشرف خال الناصر الخزيرة بالجامع الأزهر في شهر رمضان ، والخزيرة عصيدة بلحم . . ثم لما جاء الملك قنصوه الغوري ضاعف ذلك في أيامه فرتب في شهر رمضان في مطبخ الجامع الأزهر كل سنة ستمائة وسبعين ديناراً ومائة قنطار من العسل وخمسمائة أردب قمح ، وبنى المنارة العظيمة ذات الرأسين به سنة ٩٠٢ هـ .

وللعلماء في سجل التاريخ الإسلامي ذكر ، وللشيخ عز الدين بن عبد السلام خاصة نصيب من هذا المجد التليد .

قدم الشيخ عز الدين إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ من دمشق ، فتلقاه صاحب مصر وسلطانها الصالح نجم الدين أيوب بالإكرام والإجلال ، وأحاطه علماؤها وفقهاؤها بالتقدير والاحترام ، حتى امتنع الشيخ زكي الدين المنذري عن الإفتاء تأدباً معه ، وقال : كنا نفتي قبل حضوره ، فمنصب الفتيا متعين فيه . . وبالغ السلطان نجم الدين في إكرام الشيخ فولاه قضاء مصر والوجه القبلي ، وقبل الشيخ المنصب على إن يؤدي فيه حق الله كما يجب ، وأن تكون كلمة الشرع هي الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين ، فلا دالة لصاحب سلطان ، ولا تهاون مع ذي جاه ، ولكن الناس سواسية أمام الحق ، وفي شرط الإسلام ، وعلى هذا تقلد الشيخ المنصب وتحمل العمل فيه .

وكان أول موقف للشيخ تجاه أصحاب النفوذ والسلطان بين الناس ، وكان موقفاً عجباً ، ذلك أن السلطان قد أكثر من شراء الترك وتأميرهم على البلاد ليكونوا أعوانه وعيونه ، وقد استشرى أمر هؤلاء الأتراك وصاروا أصحاب الجاه والنفوذ على الرعية لا يبالون في ذلك بطشاً ولا ظلماً يقع على الناس ، وما كان في الناس من يستطيع أن يتصدى لهم أو ينكر عليهم ، ونظر الشيخ ابن عبد السلام فرأى في ذلك فساداً لا يستقيم به حق الدين ولا واجب الحكم ، ولما بحث الشيخ الأمر في حقيقة هؤلاء الأمراء الأتراك رأى أنهم بحكم الشرع أرقاء لسادتهم من أبناء مصر ، وذلك لأن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة وما زال حكم الرق مستصحباً عليهم ، وكان أن جلس الشيخ وكتب فتواه بأنه لم يثبت عنده أن هؤلاء الأمراء الأتراك أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين وأنه لا بد من بيعهم وصرف ثمنهم في وجوه الخير ومصالح الأمة . وكان من جملة هؤلاء الأمراء نائب السلطنة ، وكلهم أصحاب حكم وسلطان .

وبلغت الفتوى أولئك الأمراء ، فامتلأوا غضباً وغيظاً ، وأدهشتهم تلك الجرأة من ذلك الشيخ الفقيه عليهم ، وأرسلوا إليه أن يكف عن هذا

الذي لا يليق معهم . وهم أصحاب الحكم والسلطان ، ولكن الشيخ صمم على فتواه ، وزاد على ذلك فصار لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً ولا أي تصريف في أمور الناس وشؤون الحكم حتى تعطلت مصالحهم ، وتوقفت أعمالهم ، وهم في كل هذا يتعاظمون ويعجبون من جرأة ذلك الشيخ ، وما في مقدور أحد أن ينكر عليهم أي شيء .

ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان ، وشكو إليه من هذه الجرأة التي هوت بمكانتهم بين الناس . وأرسل السلطان إلى الشيخ ابن عبد السلام يصرفه عن غايته ، ويبين له ما في هذه الفتوى من الإضرار بأولئك الأمراء الذين لهم شأنهم في شؤون الحكم ، وكان ابن عبد السلام يقدر تماماً أنه. وفد على مصر غريباً لا أهل له ، فقيراً لا مال عنده وليس له من قوام. الحياة إلا هذا المنصب الذي يجلس فيه ، وزمام المناصب كلها بيد السلطان ، ولكن حب الدنيا لم يكن أفسد نفوس رجال الدين في ذلك الزمن ، وما لرجل مثل ابن عبد السلام ترك وطنه راضياً ، واحتمل السجن وشظف العيش في سبيل الرأي والحق ، أن يثنيه عن الحق مطلب من مطلب العيش أو رغبة في منصب مهما يكن جاهه ، فأرسل الى السلطان بأنه لا بد منفذ لفتواه لانها كلمة الشرع وحق الإسلام، وأنه سينادي على أولئك الأمراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فإنه سيعزل نفسه من منصب القضاء ويترك فتواه قائمة في أقطار الإسلام يعول عليها المسلمون في تصريف أمورهم .

وانكمش السلطان بجبروته أمام الشيخ في إبائه وجرأته ، وتلمس نائب السلطان بابا آخر لصرف الشيخ عن إصراره « فأرسل إليه بالملاطفة والملاينة والرجاء أن يراجع نفسه في تلك الفتوى الجريئة وأن يتصرف بما يتفق ومكانة الأمراء بين الناس ، ولكن الشيخ الذي كان لا يرهبه في الحق شدة ، كان من الأولى ألا تجدي معه في الحق ملاطفة أو ملاينة .

وعظم الخطب على نائب السلطنة ، وثار به الغضب ثورته ، وقال :

كيف ينادي علينا هذا الشيخ الفقيه بالبيع ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفي هذا « فما كان حكم الناس من شأن فقيه ، ولا كانت أقدار الناس على ما يفتى به ، ثم ركب في جماعته ليثأر لنفسه ولجماعته بالسيف ، وليضع حداً لتطاوله عليهم وهم أمراء مصر وملوك الأرض !

ووقف نائب السلطنة على باب الشيخ ممتطياً صهوة جواده ، والسيف في يده قائم كأنه متأهب لميدان حرب ، وطرق الباب على الشيخ طرقات قوية عنيفة ، فخرج ولد الشيخ يستطلع الأمر ، فأذهله ما رأى من هيئة نائب السلطنة وجماعته وزاد من رعبه وفزعه أن سأله نائب السلطنة عن والده ليفتك به ، وليتركه بداداً بسيفه ، وأسرع ولد الشيخ الى داخل الدار فزعاً جزعاً ينبىء والده بالشر المتربص بالباب ويسأله أن يختفي ، فلا يظهر نفسه حتى يدبر للهرب أو يؤذن الله بالفرج .

وابتسم الشيخ لما سمع ، وهدَّأ من روع ولده قائلاً : لا عليك يا بني ، فأبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم نهض إلى باب الدار ، شامخاً كالطود ، جريئاً كالأسد ثابتاً يزيد من ثباته وهيبته إيمان قوي بالله يتضاءل كل ما في هذه الدنيا بجانبه ، ووقف الشيخ الأعزل إلا من قوة الحق وصدق الأيمان أمام نائب السلطنة وهو في سلاحه وعتاده وجنده ، وما زاد الشيخ على أن أرسلها نظرة حادة نافذة ، فإذا بنائب السلطنة يذعن أمام هيبة الشيخ ويتضاءل في سلاحه وجنده ، وإذا به يسرع فيغمد سيفه ، ويترجل من فوق جواده ، ويهوي على يد الشيخ يقبلها ، وأطرافه يمسحها ، ويسأله أن يغفر له ما فرط منه ، وأن يتجاوز عما ارتكب في حقه ، ويطلب منه الدعاء والرضاء « قائلاً : ايش يا سيدي تريد أن تعمل » .

قال الشيخ : أريد أن أنادي عليكم وأبيعكم . قال : وماذا تصنع بثمننا ؟ قال : أصرفه في مصالح المسلمين ، قال : ومن يقبض الثمن قال : أنا أقبضه وأتولى صرفه . قال : لك ما تشاء في أمرنا .

وأصبح الصباح في اليوم الثاني ، وعقد مجلس كبير من رجالات

الدولة يحضره السلطان ، وحشد الأمراء الأتراك بكامل عدهم فما تأخر نفر منهم ، وأخذ قاضي القضاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينادي عليهم بالبيع واحداً واحداً ، ويغالي في ثمنهم لأنهم أمراء . . ولأنهم ملوك الأرض . . وغالى أكثر ما غالى في ثمن نائب السلطنة ، ودفع السلطان إلى الشيخ كل ما اشترط من مال ، فوزعه على وجوه الخير ومصالح المسلمين ، ثم أعتق الأمراء الأرقاء ، ومنحهم حق الحرية في التصرف والبيع والشراء[1] .

اعتنى الظاهر بيبرس[2] - كما قدمنا - بأمر الأزهر فأعاد إليه خطبة الجمعة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ وشجع العلم فيه وحذا حذوه كثير من الأمراء فزاد الأمير بيبك الخازندار مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي . ورتب فيها محدثاً ، وسبعة لقراءة القرآن ، ووقف على ذلك الأوقاف الدارة . وفي سنة ٧٦١ هـ أحب الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري عندما سكن بجوار الأزهر أن يؤثر فيه أثراً صالحاً فأنشأ فيه مما أسداه إليه درساً لفقه الحنفية يلقى في المحراب الكبير ، ووقف على هذا الدرس أوقافاً كثيرة .

على هذا النحو سار الأزهر في عناية المماليك[2] ، غير أنا نلاحظ أن الجامع الحاكمي أخذ ينافس الأزهر بعد أن أصلح من زلزال ٧٠٢ هـ ، فلقد جاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فأنشأ بالجامع الحاكمي دروساً أربعة لأقراء الفقه على مذهب الأئمة الأربعة ، ودرساً لاقراء الحديث النبوي ، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة ، فرتب في تدريس الشافعية قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي ، وفي تدريس الحنفية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي ،

---

(١) المصري ١٤/٩/١٩٥٤ م ـ الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

(٢) الأزهر ـ مجلة المقتطف ـ الشيخ منصور رجب .

وفي تدريس المالكية قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي ، وفي تدريس الحنابلة قاضي القضاة شرف الدين الجواني ، وفي درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثي ، وفي درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان ، وفي درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفي ، وفي التصدير لافادة العلوم علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي ، وفي مشيخة الميعاد والمسجد عيسى بن الخشاب ، وأنشئت به مكتبة جليلة وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم ، وعدة قراء يتناولون قراءته ، ومعلماً يقرىء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل . وأوقفت على ذلك الأوقاف الدارة بناحية الجيزة ، والصعيد ، والإسكندرية[١] .

وأصدر برقوق قراراً « بأن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي وترك موجوداً فإنه يأخذه المجاورون بالجامع » .

وكان هذا لتقوية الأزهر بعد أن طغت عليه المدارس والجامع الحاكمي . ولم يكتف الظاهر برقوق بإصدار المرسوم بل أمر بنقشه على حجر عند الباب الكبير البحري ليكون بمثابة إعلان دائم .

نعرف شيئاً عن نظام الأزهر والعلوم التي كانت تدرس فيه وبخاصة أيام المماليك الذين أنقذوه من اضطهاد الأيوبيين السنيين ؟ بما ذكره المقريزي . فلقد رسم صورة لا بأس بها نرى فيها شيئاً عن علومه ونظامه وعدد طلبته وما كان يجري فيه قال :

في سنة ٨١٨ هـ ولي نظر هذا الجامع مع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت في أيام نظره عدة حوادث لم يتفق مثلها وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه وبلغت عدتهم في هذه الأيام ٧٥٠ رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومغاربة ومن أهل ريف مصر ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والتفسير والحديث

---

(١) خطط المقريزي ج ٤ ص ٥٧

والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلويات لا سيما في المواسم . فأمر هذا الناظر في جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة فيه وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن .

ومن هذا نرى ان الأزهر كان في ذلك الوقت فوق كونه مدرسة لطلب العلم تدرس فيها العلوم المختلفة ومسجداً للعبادة ومكاناً للوعظ ، كان بجوار ذلك داراً للتصوف ، وتروي دائرة المعارف الإسلامية عن ابن إياس ان ابن الفارض الصوفي كان مقيماً بالأزهر . ويروي رشيد بن غالب صاحب شرح ديوان ابن الفارض ان والد عمر بن الفارض حين امتنع أن يقبل وظيفة قاضي القضاة ونزل عن حكم القاهرة ومصر بالنيابة عن الخليفة اعتزل الناس وانقطع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر ولعل ابنه كان يقيم معه بعد أن كان يعود من سياحته في جبل المقطم . وعلى كل فقد كانت المساجد والمدارس في ذلك الوقت مفتوحة للرياضة الروحية بجوار درس العلم ، وكانت المدارس والمساجد تقبل طلاب التصوف كما كانت تقبل طلاب العلم ، وتفتح صدرها لهؤلاء كما تفتح صدرها لأولئك . فمثلاً البدر العيني صاحب عمدة القارىء شرح صحيح البخاري حينما حضر إلى القاهرة مع شيخه العلامة السيرامي سنة ٧٨٨ هـ جعله الظاهر برقوق في عداد صوفية البرقوقية .

ونرى الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصري لما أنشأ مسجده جعل فيه عشرين صوفياً، وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومي الحنفي شيخاً لهم . . . ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل الأكمل والصوفية إليها وزاد عدتهم .

ويذكر صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: ان الشيخ أحمد بن عيسى بن غلاب، المنعوت بشهاب الدين الكلبي المالكي ، شيخ المحيا النبوي بالأزهر، أخذ التصوف عن الشيخ الشعراني

وجلس بالمحيا الشريف بعد والده، ووالده جلس بعد الشيخ البلقيني وهو جلس بعد الشيخ صالح، وهو جلس بعد الشيخ نور الدين الشوقي المدفون بزاوية الشيخ عبد الوهاب الشعراني .

٢ - وقد أسهم الأزهر بنشاط كبير في هذا العصر، في شتى نواحي الحياة والعلم والثقافة .

وكان ابن الدماميني (٧٦٣ - ٨٢٧ هـ) - الذي ولد بالإسكندرية، وفاق في النحو والنظم والنثر، وشارك في الفقه وغيره من العلوم، ومهر واشتهر ذكره - يتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو[١] .

وقد نبغ في هذا العهد من العلماء: الدماميني، وابن عقيل المتوفي عام ٧٦٩ هـ[٢] ، وابن هشام المتوفى عام ٧٤٩ هـ[٢] ، وابن إياس المؤرخ المتوفي عام ٩٣٠ هـ ، وأبو حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ)[٣] ، وابن مكرم صاحب لسان العرب (٦٣٢ - ٧٦١ هـ)[٣] ، والرضى النحوي المشهور المتوفى عام ٦٨٤ هـ[٣] ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ)[٤] وتقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ)[٥]، وشيخ الإسلام البلقيني ٧٢٤ - ٨٠٥ هـ[٦] والعيني[٧] ٧٦٢ - ٨٥٥ هـ ، والشمنى[٨] ٨٠١ - ٨٧٢ هـ ، وابن الهمام المتوفى عام ٨٦١ هـ[٩] ، والسيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ)[١٠] .

---

(١) ٢٣١ ج ١ حسن المحاضرة

(٢) ٢٣٠ ج ١ حسن المحاضرة. . ويذكر باحث ان ميلاده عام ٧٠٧ ووفاته كانت عام ٧٦١ هـ (٢٢٨ الحركة الفكرية في مصر لعبد اللطيف حمزة) .

(٣) ٢٢٩ ج ١ حسن المحاضرة

(٤) ١٢٨ ج ١ حسن المحاضرة

(٥) ١٣٠ ج ١ حسن المحاضرة

(٦) ١٣٥ ج ١ حسن المحاضرة

(٧) ٢٠١ ج ١ حسن المحاضرة

(٨) ٢٠٢ ج ١ حسن المحاضرة

(٩) ٢٠١ ج ١ حسن المحاضرة

(١٠) ١٤٠ ج ١ حسن المحاضرة

وكان من الصالحين عبد العال خليفة أحمد البدوي المتوفى ٧٣٢ هـ[١] .

ولا شك أن كثيراً من هؤلاء وسواهم قد اتصلوا بالأزهر اتصالاً علمياً ، فجلسوا في حلقاته متعلمين ، وتصدروها معلمين .

وكان بجوار الأزهر كذلك مدارس مشهورة منها المدرسة الظاهرية القديمة التي بناها بيبرس عام ٦٦١ هـ، ورتب بها لتدريس الشافعية تقي الدين بن رزين، ولتدريس الحنفية محيي الدين بن عبد الرحمن بن الكحال بن العديم ، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطي ، ولتدريس القراءات كمال الدين القرشي .

ومنها المدرسة المنصورية التي بناها الملك المنصور قلاوون عام ٦٧٩ هـ ورتب فيها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروساً كذلك للطب .

ومنها المدرسة الناصرية التي بناها الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة .

ومدرسة السلطان حسن التي بناها السلطان حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٥٨ هـ.

والمدرسة الظاهرية الجديدة التي فرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ وعين السلطان فيها مدرسين للفقه على المذاهب الأربعة وللحديث والقراءات ، وكان الشيخ سراج الدين البلقيني مدرسا فيها للتفسير .

ولكن هذه المدارس كلها كانت عالة على الأزهر ، تأخذ منه ، وتستمد علماءها من خريجيه وأساتذته ، ويوجهها الأزهر توجيها علمياً .

ومن أشهر من نبغوا في هذا العهد من العلماء والأدباء والشعراء : الفيروزبادي صاحب القاموس المحيط المتوفى عام ٨١٧ هـ ، والقلقشندي

---

(١)٢٢٥ ج ١ حسن المحاضرة .

صاحب صبح الأعشي المتوفى عام ٨٢١ هـ ، والنويري صاحب نهاية الأرب المتوفى عام ٧٣٢ هـ ، وابن فضل الله العمري المتوفي عام ٧٤٨ هـ صاحب ممالك الأبصار ، وتقي الدين ابن حجة الحموي (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) صاحب خزانة الأدب ، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٦ - ٨٢٤) ، وصفي الدين الحلى عبد العزيز بن علي (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ) ، والشاب الظريف (٦٢١ - ٦٨٨ هـ) وجمال الدين محمد بن نباتة المصري (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ)، وابن الوردي (٦٨٩ - ٧٤٩ هـ)، والبوصيري (٦٠٨ - ٦٩٥ هـ)، وابن دقماق المتوفى عام ٨٠٩ هـ مؤرخ الديار المصرية ، والمقريزي (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) ومحمد جمال الدين الوطواط المتوفي عام ٧١٨ هـ والدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى عام ٨٠٨ هـ، وهم كلهم إوجلهم أثر من آثار الأزهر العلمية.

وقد حضر ابن خلدون إلى مصر واشترك في الحياة العلمية فيها ، وزار حلقات الأزهر العلمية ، وتصدر للتدريس فيه .

كما هاجر إلى مصر في هذا العهد كثير من العلماء الذين جددوا شباب النهضة العلمية في العالم الإسلامي .

وقد كان من العلماء من يعرف كثيراً من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية ، وهؤلاء لا يحصون ، نذكر منهم على سبيل المثال: الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهوري المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية ، فقد جاء في سند إجازته ما ملخصه : أنه تلقى في الأزهر العلوم الآتية ، وله تآليف في كثير منها ، وهي : الحساب والميقات ، والجبر والمقابلة ، والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الأسطرلاب ، والزيج والهندسة ، والهيئة ، وعلم الأرتماطيقي ، وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصيدية ، وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه ، وعلاج البواسير ، وعلم التشريح ، وعلاج لسع العقرب ، وتاريخ العرب والعجم .

ومـمن تولى التدريس فيه الفخر البلبيسي الضرير أستـاذ القراءات وإمام الأزهر ، وتولى ابن حجر خطابة الأزهر حيناً آخر .

على أنه يوجد مع ذلك في أنباء العصر ما يدل على أن الأزهر كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ؛ يعاونه في ذلك اتساع حلقاته وأروقته، وتنوع دراساته، وهيبته القديمة، وما يلاقيه الطلاب فيه من أسباب التيسير في الدراسة وأحياناً في الإقامة . وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أي مذ عفت معاهد بغداد وقرطبة، كعبة الأساتذة والطلاب من سائر انحاء العالم الاسلامي، وغدا أعظم مركز للدراسات الإسلامية العامة . ومنذ القرن الثامن الهجري أخذ يتبوأ الأزهر في مصر وفي العالم الإسلامي نوعا من الزعامة الفكرية والثقافية. وفي أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع في ظل دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ، ويشغلون وظائف القضاء العليا، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد. وكان هذا النفوذ يصل أحيانا إلى التأثيـر في سياسة الدولة العليا ، وأحياناً في مصاير العرش والسلطان .

وربما كانت هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبي من حيث الإنتاج العلمي الممتاز ، ومن حيث تبوؤه لمركز الزعامة والنفوذ .

وفي أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية في مصر الإسلامية في الاضمحـلال وذلك تبعـاً لاضمحلال الـدولـة المصـرية والمجتمـع المصري . وكانت دولة السلاطين قد شاخت وأخذت تسير نحو الانهيار بخـطى سريعـة، وتصدع بنـاء المجتمع المصـري وأخذ في الانحـلال والتفكك ؛ واضطربت أحـوال المعاهـد والمدارس المصـرية وتضـاءلت مواردها ، وفقدت كثيراً مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء ؛ وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود . ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة فانهارت الدولة المصرية ، وفقدت مصر استقلالها التالد وسقطت صريعة الغزو العثماني سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧م) .

جلال الدين السيوطي

ترجم الشيخ لنفسه ترجمة وجيزة في كتابه (حسن المحاضرة)

قال عن والده: هو الشيخ كمال الدين أبو المناقب السيوطي، الذي توفي وسن ولده جلال الدين ستة أعوام. وقد تأثر الولد بسيرة أبيه ميتاً أكثر مما كان يتأثر بها حياً.

اشتغل ببلده أسيوط وتولى القضاء قبل قدومه إلى القاهرة، وهذا يدلنا على أن مدرسة العلم في هذه الحقبة لم تكن قاصرة على الأزهر وإنما كانت في كثير من عواصم البلاد. كما هو الحال الآن، ثم ذكر لنا كيف كانت أحوال أبيه بعد قدومه إلى القاهرة. حيث درس على كبار الشيوخ علوم الفقه والأصول والكلام والنحو والإعراب والمعاني والمنطق والحديث، ثم يقول (وأتقن علوماً جمة)، وبرع في كل فنونه. وأقر له كل منْ رآه في صناعة الإنشاء وأذعن له فيه أهل عصره كافة. بل كان شيخنا قاضي القضاة شرف الدين المناوى في أوقات الحوادث يسأله في إنشاء خطبة تليق بذلك ليخطب بها في القلعة.. ثم يقول عن والده من الناحية الخلقية:

وكان على جانب عظيم من الدين والتحري في الأحكام وعزة النفس والصيانة، يغلب عليه حب الانفراد وعدم الاجتماع بالناس.

ثم عدد تآليفه فقال:

« وله من التصانيف حاشية على شرح الألفية لابن المصنف . وحاشية على شرح العضد كتب منها يسيراً ، ورسالة في الإعراب وأجوبة على اعتراضات ابن المقري علي الحاوي وله كتاب في التصريف ، وآخر في التوقيع » .

هذه خلاصة وافية لما كتبه الشيخ جلال في ترجمة والده ، وقد أسلفت أنه تركه بالموت وهو في سن السادسة . فكيف ــ وهذه هي الحال ــ كتب ترجمة أبيه المتوفي ، وكيف تأثر بحياته ؟

إنه لم يشاهد من حالات والده إلا حالة واحدة ساعده على مشاهدتها أنه كان يقوم بها في منزله، أما غيرها فلم يشاهده فيها. هذه الحالة هي التي حدثنا عنها بقوله :

« ... مواظبا على قراءة القرآن، يختم كل جمعة ختمة ، ولم أعرف من أحواله شيئاً بالمشاهدة إلا هذا » .

وقد وجد عند والده كل آثاره العلمية والأدبية فحببه ذلك في الانقطاع لطلب العلم والأدب .

بيئة جلال الدين العلمية هي بيئة الأزهر الشريف بكل خصائصها الحقبة التي انتسب فيها جلال الدين إلى الأزهر هي منتصف القرن التاسع الهجري . وكان في الأزهر في ذلك الوقت قد قطع في بعثه الجديد أشواطاً فإنه بعد أن عطله عن الحياة حساً ومعنى ـ السلطان صلاح الدين الأيوبي، ليزيل بذلك كل أثر للفاطميين . واستبدل به مدارس تدرس فيها المذاهب الأربعة ــ بعد هذا جاء عهد السلطان الظاهر بيبرس من ملوك الجراكسة ، فقد ولي هذا السلطان ملك مصر عام ٦٥٨ هجرية وكان ــ أول ما عني به من الشؤون ــ بعث الأزهر بعثاً جديداً بترميمه بعد التهدمة ، وبإعداده ليكون معهداً علمياً تدرس فيه العلوم الدينية ، كما تدرس فيه العلوم العقلية مثل (المنطق ــ آداب البحث والمناظرة) أما علوم التاريخ والجبر والمقابلة والإنشاء والأدب ، فلم يكن لها نظام معين تدرس

به ، فقد تدرس وقد لا تدرس ، وإذا رغبها طالب لم يرغب فيها طلبة .

لم يكن هناك مناهج ولا أوقات تضبط الدروس وتحدد أوقاتها . كما أن الطلبة كانوا أحراراً في كل شيء: في العلم الذي يختارونه. وفي الشيخ الذي يحضرون عليه ، هذه الحرية في التحصيل هي التي مكنت الرعيل الذي كان فيه السيوطي من الإجادة والإتقان والتبحر في مختلف أنواع العلوم والفنون فكانوا أعلاما نابهين . أمثال السيوطي ، والعز بن عبد السلام ، والقرافي ، وابن هشام والسبكي وأبناؤه ، وزكريا الأنصاري وغيرهم :

كما كان الزهد في المال، طابعاً للطلبة يقول العلامة ابن دقيق العيد :

لعمري لقد قاسيت بالفقر شدة
وقعت بها في حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتي
وإن لم أبح بالصبر خفت مماتي
وأعظم به من نازل بملمةٍ
يزيل حيائي أو يزيل حياتي

وتحدث السيوطي عن قوة حافظته فقال:

« فحفظت القرآن ولي دون ثمان سنين. ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك » حفظ كل هذه المحفوظات قبل أن ينقطع إلى طلب العلم بالأزهر كما حدثنا.

وتحدث عن تبحره في العلوم وتعمقه في فهمها .

« ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع... والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ــ سوى الفقه ــ والنقول التي اطلعت عليها فيها

لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلاً عمن هو دونهم. . . ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله . . . ».

ويقول أيضاً : « وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى » .

ثم يقول في مقدمة كتابه (المزهر في علوم اللغة) .

« هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه. وذلك في علوم اللغة وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الأحاديث في التقاسيم والأنواع، وأثبت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع، وقد كان كثير ممن تقدم يلم بأشياء من ذلك، ويعتني في تمهيدها ببيان المسالك، غير أن المجموع لم يسبقني إليه سابق، ولا طرق سبيله قبلي طارق».

هذا ما كتبه الشيخ متفرقا في ترجمته لنفسه، وفي مقدمات بعض كتبه .

* * *

ويقول السيوطي ــ «وقد بلغت مؤلفاتي للآن ثلثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » .

ومن هذا العدد الكبير نعرف أنه كان سريع الكتابة إلى حد كبير، وهو في ذلك يشبه إمامنا الجاحظ في السرعة لا في إشراق الأسلوب، ولا في متانة التعبير، ولا في إجادة الإنشاء.

إن الثلثمائة كتاب التي ألفها السيوطي تدور في مدار العلوم الآتية كما ذكرها هو بتعبيراته :

١ ـ فن التفسير وتعلقاته والقراءات .
٢ ـ فن الحديث وتعلقاته.
٣ ـ فن الفقه وتعلقاته .

٤ ـ الأجزاء المفردة (وهي المؤلفات التي يتناول كل منها مسألة واحدة) .

٥ ـ فن العربية وتعلقاته .

٦ ـ فن الأصول والبيان والتصوف .

٧ ـ فن التاريخ والأدب .

هل درس السيوطي كل هذه العلوم في الأزهر؟ اذا صح أنه درس التفسير والحديث والأصول واللغة العربية وبقية ما عرف من العلوم الأزهرية في وقته، فهل درس أيضاً التاريخ والأدب على الصورة التي رسمها لنا في تعداد الكتب التي ألفها، أنه لم يترك طبقة من الطبقات إلا ألف فيها كتاباً: (الصحابة ــ الحفاظ ــ النحاة كبرى ووسطى وصغرى ــ المفسرين ــ الأصوليين ــ الكتاب ــ الشعراء ــ الخلفاء) .

كما أنه الف في التاريخ العام والخاص والرحلات كتباً كثيرة مثل (حسن المحاضرة ـ رفع البأس عن بني العباس ـ ياقوت الشماريخ في علم التاريخ ــ رفع شأن الحبشان . . . الرحلة الدمياطية) .

فهل درس الطبقات والتاريخ وكتب اللغة والأدب في الأزهر فأهلته المدارسة ليؤلف فيها بهذه الغزارة كما ألف في العلوم الأزهرية؟

ان السيوطي كانت له صوفية علمية تجعله يدرس التاريخ والسير والمغازي على نفسه، ولم يكن في الأزهر حلقات لمثل هذه العلوم.

لقد شبهت جلال الدين السيوطي بالجاحظ في سرعة الأداء والكتابة، ولكنني فرقت بينهما من حيث طلاوة الأسلوب، وإشراق الديباجة. والآن أشبه مرة أخرى السيوطي بالجاحظ في كثرة الاطلاع ومتنوع الدراسات، فلقد كان الجاحظ يستأجر دكاكين الوراقين ليطلع على ما فيها من كتب وربما كان يقضي فيها الليالي بأكملها لنهمه في القراءة والاطلاع . وكذلك الشيخ السيوطي فإنه لم يترك كتاباً في زمانه إلا قرأه واستفاد به .

وقد كانت له رحلات، ولكنه لم يكشف لنا عن الدافع إليها ، فقد قال في ترجمته.

« وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور» وهي رحلات بعضها شاق طويل، وأي رحلة أبعد من الهند؟ وأي متاعب أقسى في زمنه من الجمع بين الرحيل إلى الشام والحجاز واليمن والهند والغرب والتكرور؟ إنه طوف في ذلك بأكثر اجزاء نصف الكرة الشرقي .

وقد ولد السيوطي عام ٨٤٩ وانتقل الى رحمة الله عام ٩١١ هجرية .

الفصل السابع

الأزهر في عهد الدولة العثمانية ٩٢٣ - ١٢٢٠هـ

تمهيد:

خضعت مصر للحكم العثماني خضوعاً تاماً منذ عام ٩٢٣، واستمرت ولاية عثمانية إلى أن وضع محمد علي يده عليها عام ١٢٢٠ هـ، وكان يتولى الحكم فيها الوالي التركي ومساعدوه، ويسنده الجيش والمماليك.

الحركة العلمية في الأزهر:

في أواخر القرن التاسع أخذت الحركة العلمية في مصر الإسلامية تضمحل، وكانت دولة السلاطين هي الأخرى في طريقها إلى الإنهيار، واضطربت أحوال المجتمع وتفككت عراه، وأصاب المدارس الركود، وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول، وفقدت مصر استقلالها، وسقطت في يد الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧م) وتقلص ظل الازدهار العلمي، وانصرف كثير عن العلوم العقلية والفلسفة والرياضة والجغرافيا، وأخذ القول بحرمتها يقوى شيئاً فشيئاً، حتى تركت هذه العلوم من الأزهر، وبقيت مهجورة ينظر إليها بعين السخط، حتى صدرت أخيراً فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الإنبابي والشيخ محمد محمد البنا المفتي بجواز تعلمها وعدم حرمة تدريسها.

وفي الحق أن الفتح العثماني قضى على مظاهر النشاط الفكري التي كانت مزدهرة في عهد السلاطين. فقد عني الغزاة الأتراك عقب الفتح

مباشرة بتجريد مصر الإسلامية من ذخائرها النفيسة في الآثار والكتب، وحمل كل ذلك الى القسطنطينية، وقد قبض الغزاة على العلماء الأعلام والزعماء وقادة الفكر وبعثوا بهم جميعاً إلى تركيا، وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية الإسلامية، وتضاءل شأن العلوم والفنون، وانحط معيار الثقافة، بعد أن كانت مصر موئل الثقافة ومحط العلماء بعد سقوط بغداد على أيدي المغول، وانقضاء البقية الباقية من سلطان المسلمين في الأندلس. بعد أن وجد العلماء من المماليك ما أملوا، ووجد الإسلام فيهم حماة يقفون له كما وقف الأيوبيون من قبل، وكان ردهم للمغول في موقعة عين جالوت على يد قطز حدثا تاريخياً حفظ الحضارة الإسلامية من معاول التتر، ورفع شأن مصر، وجعلها مهبط الثقافة الإسلامية، والأمينة على تراث الإسلام منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد كان الفضل في ذلك للأزهر. فقد اتسع صدره للواردين من العلماء والطلاب في كافة البلاد، ومكن لهم من الدراسة الهادئة والبحث المنظم مما أفاد الحضارة الإنسانية بأجزل الفوائد، بما أخرجوا من فرائد الكتب في الفقه والحديث والتفسير واللغة .

وإذا كان الأزهر قد انطوى على نفسه في العصر التركي وذوت آثاره العلمية، فقد استطاع بما له من نفوذ في نفوس العامة والخاصة أن يحمل العناصر الاستعمارية على احترام مكانته وعلى اللجوء إليه في الملمات، وكان يتوسط فيما ينشب بينهم وبين المصريين من خلاف، واستطاع الأزهر في هذه الحقبة المظلمة من تاريخه أن يحفظ اللغة العربية، وأن يقاوم لغة الفاتحين، وأن يبقى بابه مفتوحا لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية مدى ثلاثة قرون، حتى انزاح عن صدره الكابوس التركي، وبدأ النور يبزغ من جديد في أوائل القرن التاسع عشر يحمل في طياته الأمل . . وقد تميز العصر التركي في مصر بفتور الهمم عن التأليف والتدوين، وانصراف المؤرخين عن تناول الشؤون العامة والأمور النافعة إلى ملق الحكام والأكابر، وتدوين سيرهم الشخصية. وأما العلماء فقد استكانوا إلى الراحة

وظنوا أنه لا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس، فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث، وما جد في الحياة من علم، وما جد فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنهم، ونقموا هم على الناس، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له .

ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف. عمدوا الى مصنفات السلف الصالح رضوان الله عليهم وشرحوها، ثم عمدوا إلى الشرح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا الى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف، وشرح، وشرح شرح، وشرح شرح الشرح، وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام الى المعاني الأصلية، واضطربت المباحث ، واختلت التراكيب، وتعقدت العبارات ، واختفى مراد المصنف .

وورث الأزهر من هذا التعقيد العناية بالمناقشة اللفظية، وتتبع كلمات المؤلفين في المصنفات والشروح والحواشي والتقارير، وتغلبت هذه العناية اللفظية على الروح العلمية الموضوعية، وصرفت الذهن عن الفكرة الأصلية الى ما يتصل بها من ألفاظ وعبارات .

واتجه العلماء إلى الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التي لا تقع وما يتصل بها من أحكام، وعلى الأخص في العبادات والمعاملات ، وبدأوا يصنفون الرسائل في هذه الفروض والاحتمالات ؛ وبذلك انصرفوا عن تنمية الفقه العملي الذي يحتاج إليه الناس في معاملاتهم .

وانصرف الأزهر في هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية ، ووجد فيه من ينادي بتحريمها ؛ وهكذا بدت بوادر الانحلال في الأزهر ، وانقطعت صلته بماضيه الزاهر ، ووقفت حركة التفكير العلمي ،

وكادت هذه المدرسة الاسلامية الكبرى أن تفقد مميزاتها ، من حرية الفكر والإنتاج الخصب ، لولا أن قيض الله لها مصلحين أخذوا بيدها ، وجنبوها عواقب هذه الآفات والعلل حتى تجمعت فيها ، وأثرت في مجرى حياتها .

لقد نفى العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية[1] ؛ وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية . وما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة في مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجري المصريين مثل المقريزي ، والسيوطي ، والسخاوي ، وابن إياس ، مما يندر وجوده بمصر صاحبة هذا التراث العلمي .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية في مصر عقب الفتح التركي ، كما انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصري ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة ، واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التي أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دارسة ، يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، واختفى من حلقاته كثير من العلوم التي كانت زاهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية . لم تكن تدرس به في أواخر القرن الثاني عشر ، وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والي مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨م) ، في نقاشه للشيخ عبدالله الشبراوي شيخ الأزهر يومئذ وأنكره في حديث أورده الجبرتي[2] ، مما يدل على ما آلت اليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركي من التأخر والركود .

---

(١) يعقد ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني فصلا خاصاً يذكر فيه أسماء مئات من الأكابر والعلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى القسطنطينية (بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ١٩٣

على أن الجامع الأزهر ـ كما يقول عنان ـ قام عندئذ بأعظم وأسمى مهمة أتيح له أن يقوم بها . فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقي شيئاً من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالد وهيبته القديمة في نفوس الغزاة انفسهم ، فنجد الفاتح التركي يتبرك بالصلاة فيه غير مرة(١) ، ونجد الغزاة يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه مكاناً خاصاً ، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية . وفي خلال ذلك صار الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ، وغدا بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية، يحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها، ويدرأ عنها عادية التدهور النهائي ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها، وردها عن التغلغل في المجتمع المصري(٢) .

وهكذا استطاع الأزهر في تلك الأحقاب المظلمة أن يسدي إلى اللغة العربية أجل الخدمات . وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركي ملاذاً لطلاب العلوم الاسلامية واللغة العربية من سائر أنحاء العالم

(١) راجع ابن إياس في بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ و١٣٢

(٢) كان بين الأساتذة الذين تولوا التدريس بالجامع الأزهر في أوائل العصر العثماني: نور الدين علي البحيري الشافعي المتوفي سنة ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وشمس الدين الشيشيني القاهري الشافعي، والإمام شمس الدين أبو عبدالله العلقمي المتوفي سنة ٩٦٢ هـ ، والإمام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي المتوفي في حدود التسعين وتسعمائة (راجع في تراجم هؤلاء العلماء، الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ـ مخطوط بدار الكتب) .

وكان منهم في أواسط العصر العثماني: عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوي المتوفي سنة ١١٠١ هـ، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشرنبابلي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ . والإمام العلامة إبراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوي المتوفى سنة ١١٠٦ هـ والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي جد والد الجبرتي المؤرخ، وقد توفي سنة ١١١٦، والعلامة عبد الحي بن عبد الحق الشرنبلالي المتوفى سنة ١١٧ هـ (راجع في تراجم هؤلاء العلماء عجائب الآثار للجبرتي ، الجزء الأول) .

العربي والعالم الإسلامي ، فأكبر الفضل في ذلك عائد إلى الأزهر . وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها ان تحمي هذا التراث نحو ثلاثة قرون ، حتى انقضى العصر التركي بمحنه وظلماته ، وقيض لها أن تبدأ منذ اوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة بمازجها النور والأمل

وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها الى الجامع الأزهر في تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية ، والعالم الإسلامي بأسره ، هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالته ، وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .

نصيب الأزهر من التعمير في هذا العصر :

في عام ١٠٠٤ هـ أيام ولاية الشريف محمد باشا على عمر الأزهر، وجدد ما خرب منه، ورتب فيه غذاء للفقراء .

وفي عام ١٠١٤عمر الوزير حسن والي مصر مقام السادة الحنفية أحسن عمارة وبلطة بالبلاط الجيد، وقد تولى مصر من عام ١٠١٤ - ١٠١٦ هـ.

وجدد اسماعيل بن إيواظ سقف الجامع الأزهر الذي كان آيلاً للسقوط، وقد مات اسماعيل عام ١١٣٦ هـ ومن آثاره إنشاء مسجد سيدي إبراهيم الدسوقي ومسجد سيدي علي المليجى.

وأنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة في الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقي ، وبنى به محراباً جديداً ، وأنشأ به منبراً وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة المعروف بالدوداري وهو المشهور اليوم بباب الصعايدة وبنى بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن الشريف وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً وسقاية للشرب ، وعمل لنفسه مدفناً بتلك الرحبة وجعل

عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة منقوش عليها اسماء العشرة المبشرين بالجنة وكتابات أخرى . . وقد توفي الامير عبد الرحمن كتخدا[1] عام ١١٩٠ هـ[2] : .

وبنى أمام المدفن المذكور رواقا مخصوصا بمجاوري الصعايدة المنقطعين لطلب العلم الشريف بالأزهر ، وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب وبني بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المشهور بباب الشوربة ، وجعل أيضاً على يمينه منارة ، وجعل فوقه مكتبا وبداخله على يمين الداخل ميضأة ، وأنشأ لها ساقية ، وصار الان محل الميضة حجرة مكتبة إدارة الأزهر ، وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من الطيبرسية والاقبغاوية من أحسن المباني في العظم والوجاهة والفخامة وأرخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات :

تبارك الله باب الأزهر انفتحا	وعاد أحسن مما كان وانصلحا
تقر عيناً إذا شاهدت بهجته	بإخلاص بأن له للعلم والصلحا
وادخل على أدب تلق الهداة به	قد قرروا حكماً يزدانها رجحا
بالباب قد بدأ الأكوان أرخه	بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا

وجدد رواقا للمكاويين والتكروريين وزاد في مرتبات الجامع ، ورتب لمطبخه في خصوص أيام رمضان في كل يوم خمسة أرادب أرزا أبيض وقنطاراً من السمن ولحوماً وغير ذلك من المرتبات والزيت والوقود للطبخ ، وزاد في طعام المجاورين .

ولما مات هذا الأمير عام ١١٩٠ هـ صلى عليه في الأزهر ودفن في مدفنه الذي أعده لنفسه فيه .

(١) ٥ ـ ٨ جـ ٢ الجبرتي .

(٢) وتوفي الأمير حسن بك رضوان عام ١١٩٢ وكان شاعر مجيدا (٣٨ ـ ٥٠ جـ ٢ الجبرتي) وكان الشيخ محمد الهلباوي الشهير بالدمنهوري شاعر الأمير علي بك وكاتبه وتوفي عام ١١٩٣ هـ (٥٤ ـ ٥٦ جـ ٢ المرجع) .

وقد حدثت في الأزهر في هذا العهد عدة حوادث مختلفة. . فلما توفي ثاني شيخ للأزهر وهو الشيخ النشرتي وقعت فتنة بالأزهر عام ١١٢٠ هـ بسبب المشيخة والتدريس بالاقبغاوية وافترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوي والأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القليني ولم يكن حاضراً بمصر ، فتعسب له جماعة النشرتي ، وارسلوا يستعجلونه للحضور فقبل حضوره تصدر الشيخ النفراوي وحضر للتدريس بالاقبغاوية فمنعه القاطنون بها وحضر القليني فانضم اليه جماعة النشرتي وتعصبوا له فحضر جماعة النفراوي الى الجامع ليلاً ومعهم بنادق وأسلحة وضربوا بالبنادق في الجامع وأخرجوا جماعة القليني وكسروا باب الاقبغاوية وأجلسوا النفراوي مكان النشرتي ، فاجتمعت جماعة القليني في يومها بعد العصر وكبسوا الجامع واقفلوا ابوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوي فقتلوا منهم نحو العشرة وجرح بينهم جرحى كثيرون وانتهبت الخزائن وكسرت القناديل وحضر الوالى فأخرج القتلى وتفرق المجاورون ولم يبق بالجامع أحد ولم يصل فيه ذلك اليوم وأمر النفراوي بلزوم بيته واستقر القليني مكانه .

ولما قربت وفاة شيخ الاسلام الشيخ الدمنهوري الشيخ التاسع للأزهر رغب الشيخ العريشي الحنفي في المشيخة اذ هي اعظم مناصب العلماء فحضر الى الجامع مع ابراهيم بك وجمع الفقهاء والمشايخ وعرفهم أن الشيخ الدمنهوري أقامه وكيلاً وبعد أيام توفي الشيخ الدمنهوري فتعين هو للمشيخة بتلك الطريقة وساعده الأمراء وكبراء الأشياخ وأبو الأنور السادات وكاد أمره يتم ، ومنع من ذلك اجتماع بعض الشافعية وذهابهم إلى الشيخ أحمد الجوهري حيث ساروا إلى بيت البكري وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية مثل الشيخ احمد العروسي والشيخ أحمد السمنودي والشيخ حسن الكفراوي ، وكتبوا طلباً للأمراء مضمونه أن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد وخصوصاً إذا كان آفاقياً كالشيخ عبد الرحمن العريشي وفي العلماء الشافعية من هو أهل لذلك

علمـا وتنا وانهم اتفقـوا على ان يكون المتعين لـذلـك الشيـخ احمـد العروسي، وختموا جميعاً على الطلب وأرسلوه إلى إبراهيم بك ومراد بك فتوقف الأمراء وشددوا في عدم النقض ورد الطلب للمشايخ فقاموا على ساق، وشدد الشيخ الجوهري في ذلك وركبوا بأجمعهم إلى جامع الامام إلشافعي وباتوا به ليلة الجمعة، فهرعت الناس ينظرون فيما يؤول اليه هذا الأمر وكان للأمراء اعتقاد في الشيخ الجوهري ، فسعى أكثرهم في انفاذ غرضه وخافوا العطب أو ثوران فتنة وحضر مراد بك للزيارة، فكلمه الشيخ الجوهري وقال له لا بد من فروة تلبسها للشيخ العروسي ويكون شيخاً على الشافعية وذاك شيخ على الحنفية كما أن الشيخ الدرديري شيخ المالكية والبلد بلد الامام الشافعي وقد جئنا اليه وهو يأمرك بذلك فـان خالفت يخشى عليك فاحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي وذهب العروسي الى بيته وأخذ شأنه في الظهور واحتد العريشي لذلك وذهب إلى السادات والأمراء فألبسوه فروة وتفاقم الأمر وصاروا حزبين، وتعصب للعريشي طائفة الشوام والمغاربة ومنعوا الطائفة الأخرى من دخول الجامع واستمر الامر نحو سبعة أشهر إلى وقوع حـادثة بين الشـوام والأتراك واحتـد الامراء للجنسية واكدوا في طلب الفصل في الامر وتصدى العريشي للذب عن الشوام ، فانطلقت عليه الألسن وانحرف عليه الأمراء وطلبوه فاختفى فعزلوه عن الافتاء وحضر الأغا وصحبته العـروسي للقبض على الشوام ففـروا فاغلقوا رواقهم وسمروه أياماً، ثم اصطلحوا وثبتت مشيخة العروسي وامر العريشي بلزوم بيته فاختلى بنفسه للعبادة ومرض من الحزن وتوفي سنة ١١٩٣ هـ رحم الله الجميع . . .

وفي غـرة رمضان سنـة ١١٩٩ ثار فقـراء المجاورين والقـاطنون بـالأزهر وأقفلوا أبوابه ومنعوا منه الصلوات وكان ذلك يوم جمعة فلم يصل فيه ذلك اليوم وكذلك اغلقوا المسجد الحسيني وخرج العميان والمجاورون يسيرون في الأسواق ويخطفون ما يجدونه مـن الخبز وغيره ، وسبب ذلك قطع رواتبهم واخبازهم المعتادة، واستمروا على ذلك حتى حضر سليم اغا بعد

العشاء في المدرسة الأشرفية وأرسل إلى مشايخ الأروقة وتكلم معهم والتزم لهم بإجراء رواتبهم . . . وفي سنة ١٢٠٠ هـ قطعت أخبازهم ومرتباتهم وفعلوا مثل ذلك وحضر إليهم سليم أغا مثل الأول والتزم ولم يوف ، فضجت المجاورون فوق المنارات فحضر ونجز لهم بعض المرتبات مدة ، ثم انقطع ثم التزم وتكرر الغلق والفتح مراراً عديدة مع منع المرتبات وإجرائها .

وفي أول جمعة من جمادى الأولى سنة ١٢٠٠ هـ ثار جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل من حسين بك بشفت فإنه تسلط على هجم البيوت فركب بجنده إلى الحسينية وهجم على دار أحمد سالم الجزار المتولي رياسة دراويش الشيخ البيومي ونهبه حتى حلى النساء والفرش ، فحضر أهل الحسينية إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول وانضم اليهم كثير من العامة وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير فساعدهم بالكلام ، وقال لهم أنا معكم فخرجوا من نواحي الجامع وأقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على المنارات يصيحون ويدقون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة وأغلقوا الحوانيت، وقال لهم الشيخ الدردير : في غداً نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ونركب معهم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا ومحمد كتخدا الجلفي كتخدا إبراهيم بك وجلسوا في الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه وخافوا من تضاعف الحال وقالوا اكتبوا لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون وقرءوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا، وركب الشيخ إلى إبراهيم بك وأرسل إلى حسين بك وأحضره وكلمه في ذلك فقال : كلنا نهابون أنت تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب ثم انفض المجلس وهدأت القضية .

وبعد حادثة أهل الحسينية السابقة بأيام قليلة تعصب مجاورو الصعايدة في الأزهر وأبطلوا دروس المدرسين به بسبب نهب سليمان بك الأغا سفينة لهم فيها تمر وسمن مدعياً أن له مالاً متأخراً عند أولاد وافي في الصعيد وأن ذلك

ماهم، وليس كذلك بل هو مال مجاوري الصعايدة، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي والشيخ المصيلحي وآخرون إلى إبراهيم بك وتكلموا معه بحضوة سليمان بك كلاماً كثيراً مفحماً، فرد سليمان بك بعض ما أخذه.

وقد حدثت حوادث أيام مشيخة الشيخ الشرقاوي، منها أن طائفة المجاورين بالأزهر من الشرقاويين كانوا قاطنين بالطيبرسية وكانت لهم خزائن برواق معمر فوقع بينهم وبين أهل الطيبرسية مشاجرة وضربوا نقيب الرواق ومنعهم شيخ الطيبرسية منها وكان ذلك سبباً لبناء رواق السراقوة.

ومنها في سنة ١٢٠٩ هـ حضر أهل قرية بشرقية بلبيس، وذكروا أن أتباع محمد بك الألفي ظلموهم وطلبوا منهم مالاً لا قدرة لهم عليه، فاغتاظ الشيخ الشرقاوي من ذلك وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك وإبراهيم بك ولم يبديا شيئاً، وأمر الشيخ الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا ثاني يوم إلى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة وازدحموا أمام الباب والبركة، بحيث يراهم إبراهيم بك، فأرسل لهم أيوب بيك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا نريد العدل وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها، فقال لا تمكن الإجابة إلى هذا كله فإنا إن فعلنا ذلك لضاقت علينا المعايش، فقالوا ليس هذا بعذر عند الله وما الباعث على الإكثار من النفقات والمماليك والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ، فقال حتى أبلغ وانصرف وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمع أهل الأطراف وباتوا به، فبعث مراد بك يقول أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين : ديوان بولاق وطلبكم المتأخر من الجامكية، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح، وفي اليوم الثلث اجتمع الأمراء والمشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوي وانعقد الصلح على رفع المظالم ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتابعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا في الناس سيرة حسنة، وكتب القاضي حجة بذلك

ووقع عليها الباشا والأمراء وانجلت الفتنة، وفرح النّاس نحو شهر، ثم عاد الحال إلى أصله .

ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم شاه العثماني دخل الجامع الأزهر يوم الجمعة سنة ٩٢٣ هـ فصلى به الجمعة وتصدق هناك بمبلغ كبير . . وزار الأزهر الشريف السلطان الأعظم عبد العزيز خان، وقد حظي بكثير من خيرات ملوك آل عثمان .

الأزهر والحركة العلمية في هذا العهد :

نبغ من هذا العصر عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء، منهم : الشهاب الخفاجي المتوفى ١٠٦٩ هـ ، والبديعي المتوفى عام ١٠٧٣ هـ ، وعبد القادر البغدادي المتوفى عام ١٠٩٣ هـ صاحب خزانة الأدب، والسيد مرتضى الزبيدي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ) مؤلف تاج العروس، والصبان المتوفى عام ١٢٠٦ هـ .

ومنهم المحبي (١٠٦١ ـ ١١١١ هـ) مؤلف خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، والشعراني المتصوف المتوفى عام ٩٧٣ هـ ، وعبدالله الشبراوي المتوفى عام ١١٧٢ هـ ، وسواهم .

وهؤلاء كانوا من غير شك ممن أفادوا من الأزهر، وتأثروا به .

وفي هذا العهد استمر الأزهر مدى القرون الثلاثة التي حكم العثمانيون فيها مصر، يجاهد لحفظ البقية الباقية من اللغة العربية والعلوم القرآنية التي أصبحت في حال ذبول أو شبه جفاف، وكان له الفضل على كل حال في الإبقاء على حشاشة هذا التراث الإسلامي، لقد صار الأزهر أشهر الجوامع في التدريس على الإطلاق. وقصده طلاب العلم من كل ناحية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار. ولكل طائفة منهم رواق باسمهم كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم، أو الزيالعة، أو اليمنية أو الهندية، فضلاً عن أروقة الصعيد .

وبلغ عدد تلاميذ الأزهر في أوائل القرن التاسع للهجرة ـ أي نحو عام ٨١٨ هـ ـ ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة، وكانوا مقيمين في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم يتعلمون فيه في الفقه والحديث والنحو والمنطق ، وزادوا في عصر العثمانيين على ذلك زيادة كبيرة .

وفي كتاب التعليم العام في مصر ما يفيد أن العلوم التي كانت تدرس غالباً بالأزهر حتى منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) هي الآداب والفقه التوحيد .

وكانت تدرس أحياناً بصفة استثنائية علوم الفلك ، والعلوم الرياضية، والعلوم الطبيعية، والتجريبية ، إجمالاً .

واشتدت المنافسة الفكرية التي كانت بين المذاهب في الأزهر، والتي أدت إلى ظهور المذهب الشافعي على سائر المذاهب، حيث نرى منذ هذا الوقت المذاهب كلها تدرس سويا بالأزهر ، إلا أن المشيخة كانت في الغالب للشافعيين . والمنافسة كما يدلنا التاريخ كانت شديدة على هذا المنصب، وكانت في أكثر الأوقات تدور بين المذهبين الشافعي والحنفي، والمذهب الحنفي كان غالباً مذهب الأمراء والولاة من الأكراد والمماليك والأتراك . ولا زلنا للآن نجد المذهب الحنفي في صف السلطة القضائية في هيئة الحكم ، فعليه تسير المحاكم الشرعية في قضائها. ويرى الأستاذ «فولر» أن وجود جدث الامام الشافعي الطاهر في مسجده المنيف، وكذلك سلطانه الروحي في نفوس الأهالي، مما ساعدا على كثرة أتباعه. وقد يكون هذا صحيحاً، والواقع أن مرجع هذه المنافسة يعود إلى خلاف في طبيعة المذهبين .

ومهما يكن من أمر فالأزهر في كل عصوره حتى حكم محمد علي كان مركز التعليم الذي تدور حوله الحركة العلمية في البلاد، ولهذا المركز الممتاز أدت هذه الجامعة خدمتين من أجل الخدمات التي لها أثرها الواضح في حياة مصر الاجتماعية والسياسية عامة : الأولى عمله على نشر

اللغة العربية وتوطيدها بالبلاد المصرية، وشد أزرها ضد اللغة القومية التي غزاها الإسلام بلغته العربية العريقة . والثانية دعم أسس الديانة الإسلامية ووقوفها تسند الإسلام بكل ما انبعث فيها من المجهودات العقلية والروحية .

والخطة التي انتهجها الأزهر تتلخص في أنه بعد زوال الدولة الفاطمية وعمل صلاح الدين على إبادة آثارها ، أدخلت المذاهب الأربعة في الأزهر وصارت سواسية في التدريس فيه ، وكان لكل مذهب شيخ، وله مطلق السلطة على الأساتذة والطلاب الذين ينضمون تحت لواء مذهبه .

وكان من آثار الأزهر فوق هذا أن جعل لمصر مكانة ممتازة وسلطاناً أدبياً على شعوب الشرق، وأصبحت البلاد الشرقية تنظر إلى مصر نظرة الحائر إلى الهادي المرشد. وتعترف لها بالفضل والعلم .

وكان التعليم فيه على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى يبدأ التلميذ فيها بتعلم الهجاء والقراءة والكتابة ويحفظ ما تيسر من القرآن عن ظهر قلب ليكون هذا الجزء المادة التي يستطيع أن يطبق التلميذ فيها عملياً ما أخذ من المعلومات النظرية في تعلمه قواعد الهجاء والكتابة، فيطالب التلميذ بكتابة هذا الجزء وقراءته، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابة وقراءة وحفظا حتى يتم القرآن وهذه أول مراحل التعليم ، ويكون التلميذ فيها قد تعلم القراءة والكتابة وتستغرق هذه المرحلة من سنتين إلى ثلاث .

ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية ويظل تحت إشراف أستاذه، يعطيه دروساً في القراءة والكتابة، وموضوعات إنشائية سهلة تتدرج فيها من السهولة إلى الصعوبة، متمشياً في ذلك مع النمو العقلي للتلميذ، ويكون التلميذ في هذه السن على أبواب دور المراهقة وكل ما استفاده من هذه البرامج تحصيله للقرآن الشريف، فالتلميذ يستطيع أن يستغل ما حفظه منه في تعمير حياته الروحية ، وتلاوته تكون سلواه وأنيسه، ويتخير من الآيات ما يتفق ونفسه فيستعملها في دعائه وعبادته وصلاته كل يوم، وتكون قواه

العقلية بهذا التمرين قد نشطت بوجه ما ، ويكون لسانه قد تقوم واكتسب اللهجة العربية الفصحى . . وأظهر ما يبدو في هذا الأسلوب التعليمي أنه لا يبدأ بتعليم القواعد والتعاريف والكليات في اللغة إلا بعد أن يكون التلميذ قد تذوق هذه اللغة بنفسه، وتكونت في عقله ملكة وذوق.

وأغلب المتعلمين كانوا يقفون عند هذا الحد، ويتخرجون في سن الثانية عشرة ، وبعضهم كان يخطو إلى المرحلة الثالثة، يدرسون فيها علوم الدين من فقه وحديث وتوحيد الخ، وفي الأحوال الاستثنائية كان بعض الأفراد يدرسون العلوم الطبيعية والرياضية .

والمتخرج ما كان يحصل على شهادة يعترف بها رسميا، وإنما كان يعتمد على مجهوده الشخصي وشهرته وكفاءته في إلزام الناس بالاعتراف بوجوده ومنزلته، وكان لا يتصدر للتدريس إلا من مارس الفنون المتداولة بالأزهر، وتلقاها من أفواه المشايخ ، وصار متأهلا للتصدر، حلّالاً للمشكلات ومعضلات المسائل، فلا يحتاج لاستئذان إلا على جهة الأدب والبركة، وإنما يعلم بعض المشايخ والطلبة فيحضرون درسه، ويتراكمون عليه، وهو يتأنق في الابتداء ويتهالك في طريق الإغراب والتوغل وقد يتعصب عليه بعض الحاضرين ويتعنت، والبعض الآخر ينتصر له، وإذا تلعثم في إجابته لسائل ربما أقاموه ومنعوه من التصدر، وإذا عاند ربما ضربوه .

ولم يكن للأزهر شيخ منذ أن أنشىء إلى القرن العاشر، وإنما كان يتولاه الملوك والأمراء الذين كانوا يهتمون بشأنه ويكرمون أهله، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري جعل للأزهر شيخ، ومما يجمل ذكره أن شيخ الأزهر كان بمثابة شيخ الإسلام في دار الخلافة ، فكان يقوم بشؤون الأزهر ويرعى أمور أهله ويفصل في قضاياهم ويضبط مرتباتهم، ويمثلهم لدى الحكومة، ومنوط به إقامة شعائر الدين في أنحاء القطر قاطبة .

وأول من تولى المشيخة ـ كما قاله الجبرتي ـ هو الإمام محمد بن

عبدالله الخرشي المالكي، وقد توفي سنة ١١٠١ هـ ، وتولى بعده الشيخ محمد النشرتي وتوفي سنة ١١٢٠ هـ ، وجاء بعده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني، فلما مات تقلد بعده الشيخ محمد شنن المالكي المتوفى سنة ١١٣٣ هـ؛ ثم تولى بعده الشيخ إبراهيم ابن موسى الفيومي المالكي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ إبراهيم الشبراوي الشافعي وتوفي سنة ١١٧١ هـ ، فتولى المشيخة بعده الشيخ الحفني المتوفى سنة ١١٨١ هـ ، ثم تولى المشيخة بعده الشيخ عبد الرؤوف السجيني وتوفي سنة ١١٨٢ هـ ، ثم تولى بعده الشيخ أحمد الدمنهوري المذاهبي وتوفي بمنزله ببولاق سنة ١١٩٢ هـ ، وبعد وفاته حصل نزاع في تولي المشيخة بين الشيخين عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي وأحمد العروسي الشافعي مدة سبعة أشهر، ثم آلت إلى الثاني وتوفي سنة ١٢٠٨ هـ ، فانتقلت المشيخة إلى الشيخ عبدالله الشهير بالشرقاوي وهو الذي أنشأ رواق الشراقوة ، وقد دخل الفرنسيون مصر في أيامه وانتخبوه عضوا في الديوانين : العمومي والخصوصي .

الأزهر وتاريخنا القومي :

قاد الأزهر ثورتين هامتين تعتبران من أسبق الثورات الدستورية العالمية، إحداهما كانت بقيادة أكبر علماء ذلك العصر وهو الإمام أحمد الدردير، والأخرى بقيادة شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عبدالله الشرقاوي رحمهما الله تعالى .

فالثورة الاولى سبقت إشارة لها وخلاصتها أنه في يوم من أيام ربيع الأول عام ١٢٠٠ هـ (يناير عام ١٧٨٦م). نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى أحمد سالم الجزار بالحسينية جهاراً نهارا ظلماً وعدواناً . فثارت ثائرة الأهالي، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه واتفقوا أخيراً على الالتجاء إلى أقوى العلماء شخصية وأوسعهم نفوذاً، وهو الإمام الدردير، فاجتمع الأهالي في اليوم التالي للحادث ويمموا شطر

الجامع الأزهر وقصدوا الشيخ وأخبروه بالواقعة، فغضب الشيخ لاستهتار الأمراء وتعسفهم ونادي في الجماهير غير هياب ولا وجل: أنا معكم، وغدا نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم وأمر الشيخ بدق الطبول على المنارات إيذاناً بالاستعداد للقتال، وترامت الأخبار بين الأهالي، فأسرعوا نحو الأزهر للاشتراك في المعركة، وكانت أخبار الجماهير الهائجة قد وصلت إلى إبراهيم بك، وبلغه تصميم الإمام الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء ، وكان يعلم مقدار ما للشيخ من نفوذ ومكانة على الأهالي، فخشى أن يستفحل الأمر ويؤدي إلى ضياع سلطته في مصر، فأرسل نائبه ومعه أحد الأمراء إلى الإمام الدردير واعتذر له عما حدث، ووعد بأن يكف أيدي الأمراء عن الناس. كما قرر توبيخ حسن بك شفت على صنيعه وطلب قائمة بجميع ما نهبه ليأمره برد ذلك إلى صاحبه، وهكذا وضع الامام قاعدة دستورية هامة وهي احترام الحكم لارادة المحكومين(١) .

والثورة الثانية(٢) تتلخص كما تقدم في أنه في شهر ذي الحجة عام (١٢٠٩ هـ - ١٧٩٥م) اشتكى فلاحو قرية من قرى بلبيس إلى الشيخ عبدالله الشرقاوي من ظلم محمد بك الألفي ورجاله، فبلغ الشيخ الشرقاوي الشكوى إلى كل من مراد وإبراهيم بك، وخاطبهما في كف أذى محمد بك الألفي عن الفلاحين فلم يفعلا شيئاً، فما كان من الشيخ الشرقاوي رحمه الله تعالى إلا أن عقد اجتماعا في الأزهر حضره العلماء وتشاوروا في الأمر فاستقر رأيهم على مقاومة الامراء بالقوة حتى يجيبوا مطالبهم، وقرروا إغلاق أبواب الجامع الأزهر، وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال .

---

(١) مجلة الأزهر عدد شوال ١٣٧٢ الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله - والجبرتي طبعة بولاق جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) الجيرتي جـ ٢ ص ٢٥٨ ، والأستاذ خلف الله في مجلة الأزهر .

وفي اليوم التالي: ركب الشيخ الشرقاوي ومعه العلماء وتبعهم الجماهير وسار الجميع الى منزل الشيخ السادات يستشيرونه في بدء المعركة، وكان قصر ابراهيم بك قريباً من قصر الشيخ السادات، فراعه احتشاد الجماهير هناك، وعلم باجتماع العلماء عند الشيخ السادات، فبادر بارسال أيوب بك الدفتردار ليسأل عن مرادهم .

فقالوا له: نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها .

فأجابهم قائلًا : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقالوا له: هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون اميراً بالاعطاء لا بالأخذ !.

فقال لهم: حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب .

صمم العلماء في هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الأمراء ، فإما ان يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة . وأعلنوا أهالي القاهرة بعزمهم. فتقاطرت الجماهير صوب الأزهر وباتوا هم والعلماء داخل المسجد وحوله.

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب ومرابطته مع العلماء استعدادا للقتال. فأرسل الى العلماء يعتذر إليهم ويبرىء نفسه ملقياً التبعة على شريكه في الحكم مراد بك، بل ذهب الى أبعد من هذا إذ يقول «أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي»، وأرسل مراد بك يستحثه لعمل شيء ويخيفه عاقبة الثورة التي توشك ان تنفجر .

وفي اليوم الثالث للثورة توجه والي مصر إلى منزل إبراهيم بك واجتمع مع أمراء المماليك وقرروا إيجاد حل سريع حاسم قبل ان يفلت الزمام فتشتعل الثورة، وأرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع، فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري

والشيخ الأمير وطال الحديث بينهم، وكان مداره حول حقوق الشعب، ولم يستطع ابراهيم بك ولا مراد بك ولا الأمراء المكابرة في هذه المرة، فقد كانت القاهرة تغلي كالمرجل وكانت أشبه ببركان يوشك أن يثور، وكان الشعب المتكتل في الخارج يلوح مهددا متوعدا، وانتهى هذا المجلس التاريخي بموافقة الأمراء والوالي على القرارات الآتية :

أولا : لا تفرض ضريبة الا إذا أقرها مندوبو الشعب.

ثانيا: أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثالثاً: ألا تمتد يد ذي سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

وكان القاضي الشرعي حاضر فحرر (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها الوالي، وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضاً وانحلت الأزمة . ورجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأهالي وهم ينادون: حسب مارسمه سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية .

ولو تأملنا في هذا النص الذي ساقه مؤرخ مصر الجبرتي ودققنا النظر في قوله «حسب ما رسمه سادتنا العلماء» لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلاً: وهو أن الأمة مصدر السلطات .

وقد توافق رأي أكثر المؤرخين الفرنجة على ان هذه الحجة بمثابة وثيقة إعلان حقوق الانسان، سبقت بها مصر غيرها .

وقد طبق وكلاء الشعب ويمثلهم العلماء والأعيان هذا المبدأ ــ مبدأ الأمة مصدر السلطات ــ على والي مصر خورشيد باشا، حين عجز عن ضبط الأمن في البلاد، إذ عقدوا مؤتمراً وطنياً يوم ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ ، وقرروا عزل الوالي. ولما رفض الاذعان لهذا القرار قام العلماء والأعيان والشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة ودارت رحا الحرب بينهم

وبين الوالي، وكانت الأوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفتهم وكلاء الأمة، وأجبروه أخيراً على الاذعان لقرار الأمة في ٢٩ جمادي الأولى عام ١٢٢٠ هـ .

هذا وقد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة في الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الإمام شمس الدين محمد الحنفي المتوفى ي عام ٨٤٧ هـ ، والشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ بالأزهر الشريف والمتوفى عام ٩٢١ هـ ، وشيخ الاسلام الامام محمد بن سالم الحنفي المتوفى عام ١١٨١ هـ .

الشهاب الخفاجي المصري
٩٧٥ - ١٠٦٩ هـ

والده هو محمد بن عمر الخفاجي المصري الشافعي احد علماء عصره، وأعلام دهره .

وكان من الفضلاء والأدباء البارعين، المتعمقين المحققين المتقنين، وأخذ عن كبار الشيوخ، وتصدر للإفادة، فانتفع به جماعة من كبار العلماء، من جملتهم ابنه الشاعر العلامة الشهاب الخفاجي صاحب طراز المجالس وسواه من المؤلفات القيمة .

وتوفي الخفاجي عام ١٠١٩ هـ بعد حياة حافلة، وخدمات جليلة أسداها للعلم والدين والأدب واللغة[١] .

أما الشهاب الخفاجي[٢] :

---

(١) ٤١١ جـ ٧ دائرة المعارف للبستاني ، وورد في هذا المرجع أن وفاته عام ١٠١١ هـ وهو غير صحيح إذ قد ذكر الشهاب في الريحانة في ترجمته لخاله أبي بكر الشنواني أنه توفي هو ووالده في وقت واحد [١١٦ الريحانة] ؛ وقد توفي خاله سنة ١٠١٩ هـ .

(٢) ترجم لنفسه في الريحانة [٢٧٢ - ٣٠٩] . وترجم له المحبي في الجزء الأول من تاريخ خلاصة الأثر [٣٣١ - ٣٤٣] . كما ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر [٤٢٠ - ٤٢٧] ، وأشار إلى كتابه الريحانة في ص ٨ وأثنى عليه . وله ترجمة في مصباح العصر في تواريخ شعراء مصر طبع بيروت ١٢٨٨ . وترجم له جورجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٨٧ جـ ٣ .

وترحم له الأستاذ محمود مصطفى في الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي . وفي الجزء الثاني من المفصل ترجمة له [٣٠٨ - ٣١١) . وترجم له فنديك في اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ـ

فمجال الحديث عنه واسع، والمراجع التاريخية والأدبية عنه وعن حياته وشعره كثيرة

وسأتناول جوانب هذه الشخصية الكبيرة في إيجاز :

يقول ابن معصوم في «السلافة» عنه :

أحد الشهب السيارة، والمقتحم من بحر الفضل لجه وتياره ، فرع تهدل من خفاجة(1) وفرد سلك سبيل البيان ومهد فجاجه(2)، إلى آخر ما يقول :

ويقول فنديك في كتابه «اكتفاء المطبوع» :

والخفاجي يرجع نسبه إلى قبيلة «خفاجة»، وسكن أبوه في قطعة أرض بقرب سرياقوس شمالي القاهرة(3) وهي قبيلة عربية كبيرة كان لها دولة في العراق ومنها أمراء كثيرون .

وإذاً فالشهاب يرجع في نسبته إلى بني خفاجة على وجه التحقيق كما رأينا في هذه المصادر وكما ورد في سوى هذه المصادر .

وإذا كان المحبى في خلاصة الأثر لم يحقق هذه النسبة واكتفى بقوله : خفاجة هي من بني عامر فلعل أصل والده منهم(4)، فذلك لأنه لم

= ٣٥١ . وترجم له البستاني في دائرة المعارف ٥٨٧ و ٥٨٨ جـ ١٠ ـ كما ترجم له كثير من علماء الأدب في شتى المؤلفات وله ترجمة في عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر للشلي (ص ١٧٧ من التراجم الملتقطة منه الملحقة بآخر طبقات الشافعية للاسدي رقم ٢٤٠ تاريخ ـ تيمورية) وله ترجمة من كتابي بنو خفاجة الجزء الثاني ص ٥٩ ـ ٧٣ .

(١) هي قبيلته العربية التي ينتمي الشهاب إليها .

(٢) ٤٢٠ السلافة .

(٣) ٣٥١ اكتفاء القنوع

(٤) راجع خلاصة الأثر ٣٤٢ ج ١، ومقدمة الجزء الأول من حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ص ٧ حيث صدر بذكر ترجمة المحبي للشهاب في كتابه خلاصة الأثر .

يكن من علماء الأنساب وكانت حياته بعيدة عن الحجاز ونجد وصميم القبائل العربية، ولم يكن من العرب الخلص، وغير العرب الخلص لا يهتمون بالأنساب ومعرفتها اهتماما كبيرا .

والشهاب هو شهاب الدين محمود بن محمد بن عمر الخفاجي .

ترجم لنفسه في الريحانة فقال ما ننقله عنها في إيجاز «كنت بعد سن التمييز، في مغرس طيب النبت عزيز، في حجر والدي. ومقام والدي غني عن المدح، فلما درجت من عشى قرأت على خالي سيبويه زمانه علوم العربية[1] ، ونافست إخواني في الجد والطلب، ثم قرأت المعاني والمنطق وبقية علوم الأدب الاثني عشر ونظرت في كتب المذهبين : أبي حنيفة والشافعي. ومن أجل من أخذت عنهم: شيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام الشمس الرملي وأجازني بجميع مؤلفاته ومروياته بروايته عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري [توفي ٩٢٦ هـ] وعن والده، ومنهم أحمد العلقمي[2] أخذت عنه الأدب والشعر، والعلامة الصالحي الشامي[3] والشيخ داود البصير أخذت عنه الطب »[4]

---

(١) خاله هذا هو أبو بكر إسماعيل بن شهاب الدين، والده شهاب الدين الشنواني القطب الرباني، وجده الأعلى ابن عم سيدى علي وفا الشريف الوفائي التونسي، وكان أبو بكر علامة عصره في جميع الفنون وكان في عصره إمام النحاة. ولد بشنوان، ودرس في القاهرة عل ابن قاسم العبادي وعلي محمد الخفاجي والد الشهاب وأخذ عن كثير سواهما، وتخرج عليه كثير من العلماء وانتهت اليه الرياسة العلمية، ولازمه وتخرج عليه ابن أخته الشهاب الخفاجي وسواه من أكابر العلماء، ثم ابتلي بالفالج فمكث فيه سنين لا يقوم من مجلسه إلا بمساعدة وله عدة مؤلفات، وله شعر رواه الشهاب في الريحانة (١١٥ الريحانة) وتوفي سنة ١٠١٩ عقب طلوع الشمس من يوم الأحد ثالث ذي الحجة وبلغ من العمر نحو الستين ودفن بمقبرة المجاورين [راجع ترجمته في الريحانة (١١٤ - ١١٧) وفي الجزء الأول من خلاصة الأثر (٧٩ - ٨١)، وفي الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا في الكلام على شنوان (١٣٨ - ١٢/١٤٣)]

(٢) ترجم له في الريحانة ص ١٩٥

(٣) هو محمد بن نجم الدين الصالحي الهلالي م ١٠١٢ هـ-١٦٠٣م وله ديوان شعر اسمه «سجع الحمام في مدح خير الأنام طبع في القسطنطينية سنة ١٨٩٨ (٣٩٣ اكتفاء القنوع)

(٤) راجع ٢٧٢ الريحانة وترجم له في الريحانة ص ٢٠٥

ثم ارتحلت مع والدي للحرمين وقرأت هناك على ابن جاد الله وعلى حفيد العصام وغيره .

ثم ارتحلت الى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من الفضلاء والمصنفين واستفدت وتخرجت عليهم ، وممن أخذت عنه الرياضيات وقرأت عليه اقليدس وغيره أستاذي ابن حسن ، ثم انقرض هؤلاء العلماء في مدة يسيرة فلم يبق بها عين ولا أثر وآل الامر إلى اجتراء السلاطين والوزراء بقتل العلماء وإهانتهم. ولما عدت إليها ــ أي القسطنطينية ــ ثانيا بعدما وليت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأمر وغلبة الجهل فذكرت ذلك للوزير فكان ذلك سبب عزلي وأمري بالخروج من تلك المدينة[١] .

« فان أردت مالي من المآثر فمن تأليفي: الرسائل الأربعون، وحاشية تفسير القاضي في مجلدات، وحاشية شرح الفرائض، وشرح الدرة، وطراز المجالس، وحديقة السحر، وكتاب السوائح، والرحلة[٢]، وحواشي الرضى، والجامي، وشرح الشفاء وغير ذلك: ولي من النظم ما هو مسطور في ديواني؛ ومن المنثور رسائل منها : الفصول القصار[٣] والمقامة الرومية[٤] التي ذكرت فيها أحوال الروم وعلمائها[٥] » .

وللشهاب عدة مقامات نسج فيها على منوال مقامات الحريري منها : مقامة الغربة[٦]، والمقامة الساسانية[٧]، ومقامة عارض بها مقامة

(١) راجع ٢٧٣ الريحانة

(٢) قرأه عليه تلميذ للشهاب اسمه عبد القادر وأجازه الشهاب بماله من التآليف والآثار وما رواه من مشايخه الأخيار (راجع ٢٨٦ الريحانة) وعبد القادر هذا هو عبد القادر البغدادي نزيل القاهرة وتلميذ الشهاب وصاحب خزانة الأدب وتوفي سنة ١٠٩٣ (٣٠٦ فنديك).

(٣) نسج فيها على منوال ابن المعتز وذكر منها جزءا في الريحانة (٢٨١ ــ ٢٨٥)

(٤) راجعها في الريحانة ٢٧٦ ــ ٢٨١

(٥) ص ٢٧٦ الريحانة

(٦) راجعها في الريحانة (٢٨٦ ــ ٢٩٠) وذكر شرحا موجزا لبعض ما فيها من معان غريبة (راجع ٢٩٠ ــ ٢٩٢)

(٧) راجعها في الريحانة (٢٩٢ ـ ٢٩٥)

الوطواط[1]، والمقامة المغربية[2] .

« وله كتاب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، وكتاب ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين وله كتاب طراز[3] المجالس وهو مجموع حسن الوضع جم الفائدة رتبه على خمسين مجلسا ذكر فيه مباحث لغوية ونحوية وأصولية وتفسيرية، وله رسائل كثيرة ومكاتبات وافرة لم يجمعها ومقامات ذكر بعضها في ريحانته[4] » .

« وكان لما وصل إلى الروم في رحلته الأولى ولي القضاء ببلاد «الروم ايلي» حتى وصل إلى أعلى مناصبها في زمن السلطان مراد حتى اشتهر بالفضل الباهر فولاه السلطان قضاء سلانيك فاستفاد مالا كثيرا ثم اعطي بعدها قضاء مصر وبعدما عزل عنها رجع الى الروم فمر على دمشق وأقام بها أياما ومدحه فضلاؤها بالقصائد واعتنى به أهلها وعلماؤها، ودخل حلب إثر ذلك ثم رحل إلى الروم وكان إذ ذاك مفتيها يحيى بن زكريا فأعرض عنه فصنع مقامته التي ذكرها في الريحانة وتعرض فيها للمولى المذكور فكان ذلك سبب نفيه الى مصر وأعطي قضاء فيها فاستقر بمصر يؤلف ويصنف وأخذ عنه جماعة اشتهروا بالفضل الباهر، منهم: عبد القادر والحموى وأخذ عنه والدي وكتب عنه أصل الريحانة الذي سماه «خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا»[5]، «وأصل والده من سرياقوس قرية من قرى الخانقاه»[6] .

---

(١) راجعهافي الريحانة (٢٩٥ ــ ٢٩٨)
(٢) راجعها في الريحانة (٢٩٨ - ٣٠٠) وشرحها في الريحانة (٣٠٠ - ٣٠٩)
(٣) طبع في القاهرة ١٢٨٤
(٤) ٣٣٣ ج ١ خلاصة الأثر
(٥) ٣٣٣ و٣٣٤ ج ١ خلاصة الأثر
(٦) ٣٤٣ج ١ خلاصة الأثر

«ومنى الشهاب بعداوة بعض شعراء عصره[1] » «وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ ـ١٦٥٨م»[2] في رمضان وعمره فوق التسعين[3] » . وإذا يكون ميلاده حوالي سنة ٩٧٥ هـ .

مكانته العلمية :

«الشهاب الخفاجي الحنفي قاضي القضاة المصري وصاحب التصانيف الكثيرة واحد الأفراد المجمع على إمامته وتفروقه وبراعته في عصره[4]» .

أجرى من ينبوع الفضل ما أخجل بمصر نيلها وبالشام سيحانه، وأهدى لأرباب الأدب من رياض أدبه أطيب ريحانه[5] .

وكان أحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وكان في عصره بدر سماء العلم ونير أفق النثر والنظم رأس المؤلفين ورئيس المصنفين، سار ذكره مسير المثل، وطلعت أخباره طلوع الشهب في الفلك، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته معترفون له بالتفرد في التقرير والتحرير وحسن الإنشاء وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك. وتآليفه كثيرة مقبولة وانتشرت في انبلاد ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها، وأشعاره ومنشآته مسلمة لا مجال للخدش فيها. والحاصل أنه فاق كل من تقدمه في كل فضيلة، وأتعب من يجيء بعده مع ما خوله الله من السعة وكثرة الكتب ولطف الطبع والنكتة والنادرة[6] .

---

(١) ٤٢٧ السلافة لابن معصوم
(٢) ١١٥ فنديك
(٣) ٥٨٨ ج ١٠ البستاني
(٤) ٥٨٧ ، ١٠ البستاني
(٥) ٤٢٠ السلافة لابن معصوم
(٦) ٣٢١ و٣٣٢ ج ١ خلاصة الاثر للمحبي م ١١١١ هـ ، وص ٧ ج ١ من حاشية الشهاب علي البيغاوي .

وهذا يغنينا عن كل كلام في بيان منزلة الشهاب الخفاجي في عصره وبعد عصره .

ثقافة الشهاب:

اما ثقافة الخفاجي الأدبية فواسعة جدا تنبئنا عنها الريحانة وطراز المجالس أحد مؤلفاته ويدلنا عليها أيضا شعره ومقامته؛ ولقد كان الخفاجي متضلعا في علوم اللغة والأدب والبلاغة الى حد بعيد .

وأما ثقافته الدينية فقد أهلته لتولي عدة مناصب قضائية عظيمة منها منصب قاضي القضاة المصري.

وأما ثقافته العامة الأخرى فواسعة جدا كما تنبئنا عنها آثار الخفاجي وكما ذكر في ترجمته لنفسه وكانت له مكتبة مشهورة، وذكر بعضهم أنه وجد في مخلفاته عشرة آلاف مجلد .

نثره :

عاش الخفاجي في آخر عصر المماليك حيث الملكات الأدبية في اضمحلال وفناء والإنتاج الأدبي في الشعر والنثر سقيم مرذول ؛ ولكن الخفاجي مع هذا كله سليم العبارة قوي الملكة حسن الأسلوب بليغ الأداء يسير كلامه مع الطبع والذوق ولاتنبو عنه الإسماع ولا الأذواق فهو في نثره: رسائله ومقاماته وكتبه الأدبية التي ألفها ــ زعيم عصره في هذا المذهب الأدبي المطبوع المقبول البعيد عن أثر الصنعة والتكلف أو الحوشية والإغراب أو السوقية والابتذال.

شعره :

للخفاجي ديوان شعر مفقود ذكره في الريحانة وقد عثرنا بعد ذلك على نسخة خطية منه بمكتبة الأزهر (بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب) وله عدا ذلك شعر كثير جدا ذكره في كتابه الريحانة وفي كتابه طراز المجالس .

وله مقصورة في مدح النبي صلوات الله عليه عارض بها مقصورة

ابن دريد وقصائد أخرى في هذا المعنى ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب (٧٦ مجاميع[١]) ومقصورته في مدح النبي عارض بها مقصورة زهير ابن أبي سلمى ضمن ترجمة له وعدة أشياء أخرى من آثاره ألحقت بكتاب خبايا الزوايا المخطوط[٢] وروى المحبى في خلاصة الأثر بعض شعره، قال:[٣] ومن أجود شعره قصيدة دالية مشهورة:

قدحت رعود البرق زندا ... أضرمن أشجانا ووجدا
في فحمة الظلماء إذ ... مدت على الخضراء بردا
حتى تشاءب نوره ... وتمطت الأغصان قدا
وعلى الغدير مفاضة ... سردت له النسمات سردا
وحبابه من فوقه ... قد بات يلعب فيه نردا
فسقى معاهد بالحمى ... قد أنبتت حبا وودا
تذر الليالي في ثرى ... من عنبر للمسك أهدى
عجبا لدر ناصع ... أودعن في مسك مندى
في ظل عيش ناعم ... بنسيم اسحار تردى
والدهر عبد طائع ... أهدى لنا شرفا وسعدا
مازال أصدق ناصح ... كم قال ل هزلا وجدا
سلم امرؤ عن طوره ... في كل حال ما تعدى
فالخطب بحر زاخر ... فاصبر له جزرا ومدا
في ذمة الأيام للأحـ ... ـرار دين قد يؤدى
إن ماطلت فلربما ... أنجزن بعد المطل وعدا
فإذا رمى طأطىء له ... رأسا تراه عنك عدى

---

(١) راجع الجزء الثلث من فهرس دار الكتب حيث قال: «قصائد الخفاجي ١٠٦٩٢» وذكر فيها ميميته التى عارض بها معلقة زهير، ومقصورته التي عارض بها ابن دريد، وخمس قصائد أخرى في مدح الرسول.

(٢) بالدار [٨٤ و١٣١٢ و ٤٦٩٧] أدب .

(٣) ٣٣٦ وما بعدها ج ١ خلاصة الأثر

أفبعد إخواني الألى درجوا أخاف اليوم نقدا
عيني إذا استسقت بهم تسقى بدمع العين خدا
لو كانت القطرات تجمد نظمت في الجيد عقدا
قوم لهم يدعو الثنا من شاسع الأقطار وفدا
كم في عكاظ نديهم جلبوا لهم شكرا وحمدا
لا يشترون بذخرهم إلا جميل الذكر نقدا
أبقى لهم حسن الحديث برغم أنف الدهر خلدا
ورثوا المكارم كابرا عن كابر فرضا وردا
من كل طود شامخ متسربل برداه مجدا
أمست عيوننا كلها ترنو إلى الأعداء حقدا
تلقى الورى بنديهم نكس العيون إذا تبدَّى
لبس الجلال على الجمال فصد عنه الطرف صدا
فهمو بسلطان التقى اتخذوا قلوب الناس جندا
أمسوا بغمد ضريحهم وبقيت مثل السيف فردا
مالي أقيم ببلدة فيها بناء الدين هدا
ونها الشهاب إذا سما يخشى من السلطان طردا

وستأتي نماذج صغيرة من شعره .

مؤلفات الخفاجي :

١ ـ الريحانة واسمها «ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا» ويقول فيها الشهاب ذخائر من «خبايا الزوايا فيها في الرجال من البقايا»[١] وقد سار عليها هذا الإسم أيضاً[٢] .

وهي تراجم أدبية واسعة لشعراء القرن الحادي عشر وأدبائه وعلمائه في مصر والشام واليمن والحجاز والمغرب، قسمها عدة أقسام :

---

(١) ص ٦ من الريحانة

(٢) ولكن للشهاب كتاب آخر بهذا الاسم سنذكره عما قليل.

فالقسم الأول في تراجم اهل الشام ونواحيها .

والقسم الثاني في تراجم العصريين من أهل المغرب وما والاها :

والقسم الثالث في تراجم مكة ومن بحماها ذكر فيه الدولة الحسينية ومن بها من بقية العلماء والشعراء والأعيان .

والقسم الرابع في ترجمة أهل اليمن ممن بلغه خبره في هذا الزمان ممن بقي بها من الفضلاء والشعراء وكان قريب العهد .

والقسم الخامس في الترجمة لأدباء وعلماء مصر .

والقسم السادس في الترجمة لنفسه

وقد اثنى عليها كل العلماء ورجال الأدب ويقول فيها ابن معصوم :

«أهدى إلى من مكة المشرفة كتاب ريحانة الألبا تأليف العلامة النحرير. شهاب الدين الخفاجي وهو الشهاب الذي أضاء نور فضله في هذا الزمن الداجي، فرأيته قد أجاد فيما ألف وتكفل بالمقصود وما تكلف فلله كتابه من ريحانة تنفست في ليلها البارد وعطرت، معاطس الإسماع بطيب نشرها الوارد حتى خاطبها كل كلف بالأدب راح لعرفها منتشقا الخ »[1] .

«وقد بنى الخفاجي الريحانة على التراجم ولكنه توسع في تراجم الشعراء فشرح أقوالهم ونقد ما يستحق النقد منها وهو كتاب أدب وتاريخ جليل الفائدة[2] .

وقد ذيلها المحبى صاحب خلاصة الأثر م ١١١١ هـ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» وقد طبعت الريحانة في مصر سنة ١٢٩٤ هـ في ٣٢٨ صفحة وهذه الطبعة المذكورة هي التي نقلنا منها ما ذكرناه عن الشهاب ثم طبعت مرة أخرى سنة ١٣٠٦ هـ في ٤٣٢ صفحة .

---

(١) ص ٨ من السلافة .

(٢) ٢١٠ ج ٢ الأدب العربي لمحمود مصطفى

٢ ـ حديقة السحر أشار إليه الشهاب في الريحانة(١) .

٣ ـ الفصول القصار وأشار إليه الشهاب في الريحانة(٢) .

٤ ـ الشهب السيارة(٣) .

٥ ـ طراز المجالس كتاب أدب ولغة بناه على خمسين مجلسا (أي درسا) بحث فيها كثيرا من موضوعات البلاغة والنقد والأدب واللغة والتفسير والحديث والتاريخ وسواها وقد طبع في القاهرة سنة ١٢٨٤ وطبع بطنطا طبعة أخرى وقد أشار إليه الخفاجي في الريحانة(٤) .

٦ ـ خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا، وهو من كتب الأدب ولكنه متضمن تراجم من أهل عصره فيهم شيوخه وشيوخ ابنه وعددهم يزيد على سبعين ومنه عدة نسخ خطية بدار الكتب(٥)؛ وهو خمسة أقسام وخاتمة: الأول في رجال الشام والثاني في رجال الحجاز والثالث في رجال مصر والرابع في رجال المغرب والخامس في رجال الروم(٦) .

٧ ـ شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل، صدره بمقدمة في التعريب وشروطه ثم أورد الكلمات المعربة مرتبة على حروف المعجم وبين أصلها في لغاتها الأولى وكان يأتي بين هذه الألفاظ بكثير من المحرف والمولد مع الإشارة الى أصلهما والكتاب نافع عظيم الفائدة في بابه(٧) وقد طبع الشفاء في مصر سنة ١٢٨٣ في ٢٤٥ صفحة ثم طبعته دار الكتب أخيراً في مجلد كبير الحجم .

---

(١) راجع ص ٢٠ و٣٨ و٣٧٦

(٢) راجع ٢٧٦و٢٨١

(٣) راجع ١١٩ الريحانة

(٤) راجع ص ٢٧٦

(٥) ٣/٣١٠ الأدب العربي لمحمود مصطفى، ٣/٩٢ فهرس الدار (وهي بنمرة [٨٤و ١٣١٢، ٤٦٩٧ أدب بدار الكتب)

(٦)والخاتمة في نظم المؤلف وشعره، وقد فرغ من تأليفه في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٠٤٢ ويليها ترجمة للمؤلف وقصيدة نوبية عارض بها معلقة زهير

(٧) راجع ٣/٣٠٨، الأدب العربي لمحمود مصطفى

٨ ـ شرح درة الغواص في أوهام الخواص وهو نقد شديد للحريري تعقبه فيه في كل ما أورده في «درة الغواص» ورد عليه بحجج وشواهد قوية. وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة الجواكب بالقسطنطينية من مدة كبيرة[1].

٩ ـ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي سماها «عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي» طبعت في ثمانية أجزاء ببولاق سنة ١٢٨٣ هـ، فالجزء الأول والثاني في تفسير البقرة، والثالث والرابع إلى آخر التوبة.

والخامس والسادس إلى آخر الفرقان.

والسابع إلى آخر الزخرف

والثامن هو نهاية هذا الكتاب.

وقد طبع بتصحيح الشيخ محمد الصباغ في عهد الخديوي إسماعيل عام ١٢٨٣ هـ وفي آخر الجزء الثامن قصيدة للسيد عبد الهادي نجا تقريظا للكتاب.

وفي مقدمة الجزء الأول منه تقريظ للشيخ محمد الدمنهوري.

١٠ ـ وللخفاجي شرح للشفاء سماه «نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض» وقد طبع في أربعة أجزاء في القسطنطينية سنة ١٢٦٧ هـ.

١١ ـ ومن مؤلفاته: كتاب الرحلة، وكتاب السوانح[2] وكتاب حديقة السحر، وكتاب الرسائل الأربعون، وكتاب حاشية شرح الفرائض، وكتاب

(١) وللألوسي م ١٢٧٠ ه مفتي بغداد كتاب على الدرة سماه كشف الطرة عن الغرة أخذ فيه كثيرا عن شرح الخفاجي ووافقه في كثير من نقده للحريري.

(٢) ومنه نسخة خطية بمكتبة الأزهر [نمرة ٦٥٣ خصوصية أدب]، وفي المكتبة أيضاً نسخة خطية من ديوانه [بنمرة ٥٠٥ خصوصية أدب] وسنتولى نشرهما بمشيئة الله ونشر كتابه «خبايا الزوايا» وذلك إذا وفق الله وأراد.

حواشي الرضى والجامي؛ مما ذكرناه سابقا .

١٢ ـ وللخفاجي ديوان شعر، وله عدة مقامات ورسائل أوردها في الريحانة وقد ذكر جورجي زيدان أن في الخزانة التيمورية نسخة من ديوان الشهاب في نحو ٣٠٠ صفحة بخط المؤلف على الأرجح .

وله قصائد مختلفة في برلين والمكتبة الخديوية .

وله كتاب ريحانة النار أو ذوات الأمثال يتضمن كل بيت مثلا وهو في باريس .

وقد ذكرنا أن له ابنا ترجم الشهاب لشيوخه في كتابه خبايا الزوايا، وليس لدي الآن شيء عن تاريخ ابنه وقد بقيت ذرية الشهاب في شنوان حتى العصر الحديث، فقد جاء في الخطط التوفيقية في الكلام عن[1] شنوان ما يأتي :

ومن ذرية الشيخ شهاب الدين المتقدم ذكره عبد الفتاح افندي صبري (الخفاجي) تربى بالمهند سخانة الخديوية ثم نقل من هذه المدرسة في أواخر سنة ١٢٦٩ إلى آلاى المهندسين للحصول على التعليمات والفنون الحربية ثم ترقى إلى ملازم ثاني بآلالاى المذكور ثم نقل إلى هندسة الاستحكامات بقلعة القناطر وبلغ فيها رتبة اليوزباشي والآن ـ أي سنة ١٢٩٢ هـ هو رئيس هندسة القناطر الخيرية برتبة صافول أغاشي .

ووالده أصله من سرياقوس وكل ما أستنتجه من هذا أن أم الشهاب كانت من شنوان[2] وهي إحدى قرى المنوفية وأقام بأرض له بجوار

---

(١) ١٣٨ ـ ١٤٣ ج ٢ الخطط

(٢) لشنوان حديث في المجد والتاريخ طويل وقد ذكر الجبرتي عنها في حوادث سنة ١٢٢٣ هـ أن منها الفقيه العلامة محمد الشنواني الشافعي الأزهري شيخ الإسلام بعد موت الشيخ الشرقاوي وقد تولى المشيخة عام ١٢٢٧ هـ وتوفي في ٢٤ من المحرم سنة ١٢٣٣ هـ [١٣٥ ـ ١٣٧ كنز الجوهر في تاريخ الأزهر] وقد يكون هذا الإمام العالم العظيم من أحفاد الشهاب ومن شنوان خرج أيضا كثير من العلماء والأدباء والشعراء .

سرياقوس، وإن الشهاب كان له ذرية كبيرة بقيت إلى العصر الحديث .

وأخيراً فإن التراث العلمي والأدبي للشهاب الخفاجي كبير ضخم وعظيم خالد وهو في حاجة إلى البحث عنه والعناية به .

رحم الله الخفاجي وطيب ذكراه وأكرم مثواه فلقد خدم الدين والعلم والأدب أجل الخدمات .

نماذج من شعره :

١ ـ أرح طرف عين جفاها الهجوع فإن عناء الجفون الدموع
حسيت كؤوس الهوى سحرة وساقي المنى لمرادي مطيع
إلى حين غابت نجوم الهدى فكان لها في عذارى طلوع
تقنعت بالوصل من طيفه وكل محب لعمري قنوع
ولي عنده حاجة للهوى وليس لها غير ذلي شفيع
رهنت فؤادي على حبه فما باله لفؤادي يضيع
تقيل المحاسن في ظله وماء الجمال عليه يشيع

٢ ـ قلت للندمان لما مزقوا برد الدياجي
قتلتنا الراح صرفا فاقتلوها بالمزاج

٣ ـ ومن شعره :

لا وغصن راق لطرف ورق رعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظري والشعور الليل والخد الشفق
وعيون حرمت نومي وما حللت لي غير دمعي والأرق

وله أيضاً :

ما احمرار الراح الا خجل من رضاب سكرت منه الحدق
فجعلت أيام الوصال قصيرة ولبست ليلا للهموم طويلا

٥ ـ وله [١]:

سلا بانة الوادي لدى المنزل الرحب   متى فقدت غر المناقب من صحبي
فهل لي في حماها نفحة عنبرية   فقد استودعتها الريح من نفس الركب
وهل بين أطلال الرسوم ونؤيها   حمائم بان في الربى طيرت لبي
وهل من عهود قد تقضت بقية   يوفي بها حقي ويقضي بها نحبي
سقى الله عهداً للأحبة صيبا   من الطرف تغنيه عن الوابل السكب
وهيف غصون جادها هاطل الغنى   فتنبت أوراقاً من الشجر القضب
وكل خليل رقرق الود صافيا   فكل ملام في محبته يصبي
أصدق فيه الظن من ضنتي به   على كل شيء قد عرفت سوى قلبي
وما ذاك من سوء الفعال جبلة   فكم جاء سوء الظن من شدة الحب

وبعد فشعر الخفاجي كثير وقوي الأسلوب واضح المعنى كثير ألوان الخيال ينم عن ثقافة صاحبه وعقليته وشخصيته؛ والخفاجي ولا شك بين شعراء القرن الحادي عشر الهجري زعيم الشعر والشعراء.

---

(١) ١٢٤ الريحانة

الفصل الثامن

الأزهر بعد الحكم العثماني

الأزهر والغزو الفرنسي لمصر:

بعد دخول نابليون بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب اليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم، فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة: عبد الله الشرقاوي، خليل البكري، مصطفى الصاوي، سليمان الفيومي، محمد المهدي الكبير، موسى السرسي، مصطفى الدمنهوري، أحمد العريشي، يوسف الشبراخيتي، محمد الدواخلي، ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوي، واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضاءه، وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة. وهذه الصور ما تزال محفوظة في معرض فرساي، وهو أول ديوان وطني، ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية.

وفي ثورة القاهرة على الفرنسيين ضرب الأزهر بالمدافع، وتتابع الرمي من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزعت الأركان وهدمت حيطان الدور، فركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويكف عسكره عن الرمي، فعاتبهم في التقصير فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمي وقاموا من عنده ينادون بالأمان في المسالك والطرقات.

وبعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف وبين الإفرنج وتراموا، ولم يزل الرمي بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى

البارود، فأثخنهم الفرنج بالرمي المتتابع، وبعد هجعة من الليـل دخل الفرنج المدينة ومروا في الأزقة والشوارع وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا في الطرقات وتراسلوا رجالا وركبانا. ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم ودشتـوا الكتب والمصاحف وطـرحوهـا على الأرض وداسوهـا بـأرجلهم ونعالهم، وبالوا عليها وتغوطوا فيه، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوهم وأصبحوا مصطفين بباب الجامع، وكل من حضـر للصلاة يـراهم فيكر راجعا، ونهبوا بعض الدور التي بالقرب من الجامع، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، وبقي الأمر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى، ونهبت أموال لا تستقصى، فركب المشايخ بإجمعهم وذهبوا الى بيت سر عسكر الفرنساوية وطلبوا منه الأمان، فوعدهم مع التسويف، وطلب منهم بياناً بمن تسبب في إثارة الفتنة من المعممين فغالطوه، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد، فرجوه في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك وأمر بخـروجهم وأسكن منهم نحو السبعين في الخطة، ثم فحصوا عن المتهمين، فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبرواي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، وحبسـوهم ببيت البكري، ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ إلى بيت سر عسكر وتشفعوا في المسجونين، فقيل لهم: لا تستعجلوا، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيين إلى بيت البكري نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم، فـذهبوا بهم إلى بيت قـائمقام بـدرب الجماميز وهناك جردوهم من ثيابهم وطلعوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم خلف القلعة.

ولما توجه بونابرت إلى الشام بعد استيلائه على مصر؛ استولى على

مدينة العريش وغزة وخان يونس وورد الخبر الى مصر، فعمل الفرنساويون حصاراً وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية وحضر عدة منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة وعلى بعضهم عمائم بيض ومعهم نفير ينفخون فيه، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر واصطفوا ببابه رجالاً وركبانا وطلبوا الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، وأمروه برفع تلك البيارق على منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبير ذات الهلالين وعلى منارة أخرى بيرقاً وضربوا عدة مدافع بهجة وسرورا، وكان ذلك ليلة عيد الفطر وعند الغروب ضربوا مدافع إعلاما بالعيد.

وفي افتتاح محرم سنة ١٢١٥ هـ وقعت حادثة عجيبة وهي أن سر عسكر الفرنساوية كليبير كان واقفاً في بستان داره بالأزبكية وفي صحبته أحد خواصه فدخل شخص يوهم أن له حاجة وضربه بخنجر فشق بطنه وفر هارباً، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميا، فسألوه فخلط في كلامه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار فقال لهم لا تظلموا أهل مصر فأنا من جملة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على قتل رؤسائكم فقيل له أين كنت تأوي فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالي فأحضروا الشيخ الشرقاوي والعريشي وألزموهما بإحضار الذين كان يأوي اليهم وهم أربعة ثم ركبوا إلى الأزهر وصحبتهم أغوات الانكشارية وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع ثم أخذوا المقتول وألبسوه برنيطة، ووضعوا معه الخنجر الذي قتل به وحملوه على عربة إلى تل العقارب حيث القلعة التي بنوها هناك وضربوا له المدافع واحضروا القاتل وضربوا رقاب الشوام الثلاثة المظلومين وحرقوا جثثهم ورفعوا رؤوسهم على خوازيق ثم وضعوا قتيلهم في تخشيبة وضعوا عندها عسكرا يتناوبون ليلاً ونهاراً وخلفه منو واظهر أنه أسلم وتسمى بعبد الله، وحضر قائمقام والأغا الى الازهر وشقوا فيه وفي أروقته وأرادوا نبش اماكن للتفتيش على السلاح واخذ المجاورون في نقل أمتعتهم وإخلاء الأروقة ونقلوا كتب الوقف، ثم أنهم كتبوا أسماء

المجاورين في قائمة وأمروهم أن لا يأووا آفاقيا مطلقاً وأخرجوا منه الأتراك بالكلية، وفي اليوم نفسه توجه الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي إلى عسكر منو، واستأذنوه في قفل الجامع وتسميره فتكلم بعض القبط وقال هذا لا يصح فحنق عليه الشيخ الشرقاوي وقال اتركونا يا قبط واكفونا شر دسائسكم وقصد الشيخ منع الريبة فإنه ربما دسوا من يبيت به واحتجوا بذلك على إنجاز أغراضهم ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة أبواب الجامع واتساع زواياه، فأذنوا لهم بذلك وسمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسة محمد بك المقابلة له وأخرجوا منها الاتراك واستمرت الشدة والازعاج إلى أن أخذ الفرنساويون في الجلاء من الديار المصرية.. وفي غاية محرم سنة ١٢١٦ هـ فتح الجامع الأزهر وكذلك المدرسة وفرح الناس فرحاً شديداً وهنأ بعضهم بعضاً.

وفي صفر سنة ١٢١٩ هـ فرض على أرباب الحرف والصنائع خمسمائة كيس فضجوا مع ما هم فيه من وقف الحال وأصبحوا لم يفتحوا الدكاكين وحضر منهم طائفة إلى الجامع الازهر ومر الأغا والوالي ينادون بالأمان وفتح الدكاكين، وفي ثاني يوم تجمع الكثير من غوغاء العامة والأطفال ومعهم طبول وصعدوا إلى منارات الجامع الأزهر يصرخون ويطبلون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ووصل الخبر إلى الباشا فأرسل إلى السيد عمر مكرم النقيب يقول إنا رفعنا عن الفقراء فقال السيد عمر إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف كلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من القحط ووقف الحال فكيف تطلب منهم مغارم الجوامك، فرجع الرسول بذلك ثم عاد بفرمان يتضمن رفع الغرامة عن المذكورين ونادى المنادي بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا إلى بيوتهم وخرج الأطفال يفرحون.

وفي صفر سنة ١٢٢٠ هـ أكلت العسكر الدلاتية الزرع وخطفوا ما صادفهم من الفلاحين والمارين وأخذوا النساء والأولاد بلا فساد فحضر سكان مصر القديمة نساء ورجالاً إلى الجامع الأزهر يستغيثون ويخبرون أن الدلاتية أخرجوهم من ديارهم وأخذوا أمتعتهم ونساءهم، فخاطب المشايخ

الباشا في أمرهم فكتب للدلاتية بترك الدور لأهلها فلم يمتثلوا فاجتمع المشايخ بالأزهر وتركوا قراءة الدروس وخرجت الأولاد الصغار يصرخون في الأسواق فأرسل الباشا كتخداه إلى الازهر فلم يجد به أحداً وكان المشايخ انتقلوا إلى بيوتهم، فذهب إلى بيت الشرقاوي وحضر هناك السيد عمر مكرم وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف فرجمه الأولاد بالحجارة وبقي الأمر على السكون أياماً.

لقد قاد الأزهر الحركة الوطنية ضد الفرنسيين والطغاة، وكانت له زعامة الشعب، وقيادة الحركة العقلية والعلمية في البلاد.

جهاد الأزهر الوطني في الحملة الفرنسية وما بعدها:

مرت مصر [1] خلال هذه الفترة بأحداث مثيرة استدعت بذل ضروب عالية من التضحية، وقد خاض الأزهر غمار هذه الحوادث، واستجاب زعماؤه لداعي الوطن، باذلين ما في وسعهم من تضحيات في سبيله.

فلم تكد تستقر الحملة الفرنسية في القطر المصري في صفر ١٢١٣ هـ (يوليه ١٧٩٨) حتى نفر الشعب وزعماؤه دفاعاً عن كرامة الوطن وحريته، فقامت الثورات في جميع أنحاء القطر، لطرد المستعمرين من البلاد. وكانت القاهرة مركزاً لثورتين مهمتين: الأولى في جمادي الأولى ١٢١٣ هـ (أكتوبر ١٧٩٨) وعلى رأسها الشيخ السادات، وكان رئيساً لمجلس الثورة. والثانية في ٢٣ شوال ١٢١٤ هـ (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعلى رأسها زعيم العلماء في ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الأشراف. وقد استعمل الفرنسيون جميع أنواع القسوة لكبت الشعور القومي والقضاء على المقاومة الأهلية، ولكنهم لم ينجحوا في خطتهم، وانتهى الأمر بفوز المقاومة الأهلية، وجلاء الغاصبين عن ارض الوطن.

فبعد ثورة القاهرة الأولى في ٩ جمادي الأولى ١٢١٣ (٢٠ أكتوبر ١٧٩٨)

---

(١) راجع الأزهر عدد ربيع الأول ١٣٧٣ ـ الأستاذ احمد عز الدين خلف الله .

وجه نابليون نظره إلى الأزهر، إذ كان يعلم أنه المعسكر العام للثورة، فقبض على زعماء الحركة، وأصدر أمره إلى الجنرال بون قومندان القاهرة بأن يأخذهم ليلاً إلى شاطىء النيل - ما بين مصر القديمة وبولاق - حيث يعدمهم، ثم يلقى بجثثهم في النهر. وبهذه الطريقة خفى علينا تاريخ كثير من المجاهدين الذين استشهدوا في هذه الثورة.

اما الذين حوكموا رسميا من العلماء باعتبارهم من زعماه الثورة فهم:

الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ أحمد الشرقاوي وكانا يقومان بالتدريس في الأزهر، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي وكان يقوم بقراءة كتب الحديث كالبخاري ومسلم في المشهد الحسيني، والشيخ يوسف المصيلحي وكان يقوم بالتدريس في جامع الكردي، والشيخ سليمان الجوسقي وكان من العلماء المشهورين بشدة السطو والبأس، وكانت محاكمتهم سرية وقد حكم عليهم بالإعدام في يوم ٢٧ جمادي الأولى ١٢١٣ (٣ نوفمر ١٧٩٨).

وفي الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٨ جمادي الأولى (٤ نوفمبر) أخرجوا من سجنهم إلى القلعة حيث تلى عليهم الحكم، ثم أعدموا رميا بالرصاص، ولم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم، ويروي الجبرتي أن الفرنسيين ألقوهم من السور خلف القلعة بعد تنفيذ الحكم.

وقد نشرت صحيفة (كورييه دليجبت) بالعدد الصادر في ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ م (غرة جمادي الآخرة ١٢١٣ هـ) نبأ إعدامهم وأضافت إلى الأسماء التي ذكرها الجبرتي اسم (السيد عبد الكريم) الذي لم يوقف له على ذكر.

وكان الشهداء من العلماء خلال هذه الثورة أكثر من هذا العدد، إذ قرر الشيخ عبد الله الشرقاوي في تاريخه «تحفة الناظرين» أن الفرنسيين قتلوا ثلاثة عشر عالماً ويؤيد ذلك ما رواه المعلم نقولا الترك في كتابه «ذكر

تملك الفرنساوية للديار المصرية» إذ قرر أن نابليون أمر بإعدام اثنين من العلماء كانا من أعضاء المجلس العالي.

وعلى الرغم من أن نابليون كان يعلم تمام العلم أن الشيخ السادات كان رئيساً لمجلس الثورة إلا أنه لم يمسسه بسوء نظرا لمكانته في نفوس المصريين المستمدة من نسبه الشريف، وقد طلب الجنرال كليبر من نابليون أن يقبض عليه فأجابه بأن إعدام مثل هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدي إلى عواقب وخيمة.

أما ثورة القاهرة الثانية التي حدثت في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤هـ إلى ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢١٤ هـ (٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠م)، فتتلخص أحداثها في أن نابليون غادر القطر المصري تاركاً قيادة الحملة الفرنسية للجنرال كليبر الذي لم يلبث أن واجه أعنف ثورة قامت بها القاهرة، ويرجع عنف هذه الثورة إلى أن رأسها المفكر كان زعيم علماء ذلك الوقت السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، ولولا خيانة المماليك لكان لهذه الثورة الوطنية الجارفة شأن آخر. أما العلماء الذين تعرضوا لانتقام الفرنسيين بعد إخمادها فهم:

الشيخ مصطفى الصاوي وقد فرضت عليه غرامة ٢٦٠ الف فرنك

الشيخ محمد الجوهري وأخوه فتوح وقد فرضت عليهما غرامة قدرها ٢٦٠ الف فرنك.

وكان الشيخ السادات معروفا لدي الجنرال كليبر بوطنيته منذ تزعم الثورة الأولى، ولكنه لم يتمكن من النيل لمعارضة نابليون، فانتهز فرصة اشتراكه في هذه الثورة لينكل به تنكيلاً، إذ فرض عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك، وسجن في غرفة قذرة بالقلعة حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر، مع ضربه ضربا مبرحاً. ثم سمح له بالنزول مخفوراً إلى داره لبسعى في سداد الغرامة المفروضة عليه، فجمع ما في منزله من المال، وقوم الفرنسيون ما وجدوه من مصاغ وملابس ومتاع فبلغت

قيمـة ذلك كله ١١٢ ألف فـرنك، ولم يكتف الفـرنسيون بـذلك بـل جاسـوا خلال الدار وحفروا الارض بحثا عن الخبايا، حتى أعياهم البحث ولم يجدوا شيئاً، ثم نقلوه إلى السجن وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في الليل، وجدوا في البحث وراء زوجته وابنه حتى قبضوا أخيراً على تابعة محمد السندوبي الذي عذبوه حتى أقر على مكانهما، فقبضوا عليهما، وسجنوا زوجته معه، وصاروا يضربونه أمامها زيادة في التعذيب، فشفع فيها كبار العلماء لنقلها من السجن، فأصدر الجنرال كليبر أمرا بتاريخ ٢٢ مايو بنقلها إلى منزل الشيخ سليمان الفيومي. وصودرت املاك الشيخ السادات ومرتباته وأوقـاف أسـلافـه، وبقي معتقلاً حتى أفـرج عنه في عهد قيادة الجنرال مينو في ٢٥ صفر سنة ١٢١٥ (١٩ يولية سنة ١٨٠٠) وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس، وألا يركب دون إذن من القيادة الفرنسية. وقد بقي رهن المراقبة في داره حتى اعتقل للمرة الرابعة في أواسط شـوال ١٢١٥ (أوائل مـارس سنة ١٨٠١) بعـد وصـول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى مصر، وقد اتخذ الفرنسيون هذا الإجراء خوفاً من ان يثير عليهم الشيخ السادات الأهالي ، وقد توفي ابنه أثناء اعتقاله فأذن له بتشييعه مخفوراً، ولما انتهى ذلك أعيد إلى سجنه بالقلعة.

ويقول نابليون في مذكراته تعليقاً على اضطهاد الشيخ السادات: أن تعذيبه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى مصرع الجنرال كليبر في ٢ صفر ١٢١٦ (١٤ - يونيه سنة ١٨٠٠).

وكان السيد عمر مكرم الرأس المفكر لثورة القاهرة الثانية، واليه يرجع الفضل في تعبئة القوات الوطنيـة تعبئة قلمـا تتوفـر في ثورة من الثورات، ولم يستطع الفرنسيون القبض عليه عقب إخماد الثورة، إذ تمكن من الفرار من القاهرة تاركاً أملاكه عرضة للنهب والمصادرة، ولم يدخل القاهرة بعد ذلك حتى جلاء الفرنسيين عن عاصمة البلاد في ربيع الأول سنة ١٢١٦ (يولية ١٨٠١).

وقد اختارت الزعامة الشعبية ممثلة في السيد عمر مكـرم والشيخ

عبد الله الشرقاوي محمد علي والياً على مصر بشرط أن يحكم بمشورة وكلاء الشعب. ولكن محمد علي كان يميل إلى الحكم المطلق، وسرعان ما ضاق ذرعا برقابة وكلاء الشعب خصوصاً السيد عمر مكرم زعيم العلماء، الذي أخذ يحاسب محمد علي باشا على جمع الضرائب التي فرضها، وبلغ من حماسته في الدفاع عن حقوق الشعب أن عقد مجلساً عاما من العلماء في (أواسط جمادي الأول سنة ١٢٢٤ ـ أول يولية سنة ١٨٠٩)، وقد أقسم المجتمعون على ألايلينوا حتى يجيب الوالي مطالبهم التي تتخلص في عدم فرض ضرائب جديدة وإلغاء الضرائب المستحدثة، وقد ازدادت العلاقات توتراً حينما رفض السيد عمر مكرم أن يوقع الميزانية السنوية. كما يريدها محمد علي، وأن من المعتاد أن يوقع على الميزانية وجوه المصريين قبل إرسالها إلى السلطان العثماني.

تنكر محمد علي للسيد عمر مكرم، وأخذ يسعى في التخلص منه، حتى سمحت له الفرصة في رجب ١٢٢٤ (اغسطس ١٨٠٩)، فقرر خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط، وقد تلقى السيد عمر مكرم هذا النبأ بقوله: «أما منصب النقابة فإني راغب عنه وزاهد فيه وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة، ولكني أريد أن أكون في بلدة لا تدين لحكم محمد علي».

مكث السيد عمر مكرم أربع سنوات في دمياط نقل بعدها إلى طنطا التي استمر بها حتى عام ١٢٣٣ (١٨١٨)، ثم أذن له بالعودة إلى القاهرة، ولكن استقبال الشعب الرائع لزعيمه أثار شكوك محمد علي مرة اخرى، فأمر بنفيه الى طنطا عام ١٣٣٧ (١٨٢٢) حيث توفي في نفس العام.

وقام الأزهر بتأييد القوات الوطنية في جهادها ضد الإنجليز عام ١٨٠٧ هـ، وأفتى زعماؤه في المؤتمر الوطني المنعقد في الأزهر بوجوب الجهاد الوطني، وقام العلماء ببذل مجهود كبير في سبيل الدفاع عن الوطن سواء بالتطوع أو إمداد الجيش بالمؤن والذخائر أو الدعوة إلى الجهاد.

عمر مكرم الأزهري الزعيم المصري الخالد:

وكان عمر مكرم من أرفع أسماء المصريين ذكراً في القرن الثامن عشر، قضى حياته في خدمة الشعب وتحقيق أمانيه ورفع الحيف عنه والسعي إلى تحريره وإعلاء كرامته، وقد حفزته عاطفته الوطنية المشبوبة الى مناهضة الفرنسيين توطئة لإخراجهم من مصر.

كانت بيوت البكري والسادات ومكرم هي البيوتات المعروفة في غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإذا ألم ظلم بأفراد الشعب من الحكام العثمانيين أو المماليك أو رجال الحملة الفرنسية لجأوا إلى هذه البيوت يستظلون بحماها، ويستعدون أربابها ويطلبون المشورة ودفع الحيف عنهم.

وكان أول ظهور عمر مكرم في ميدان السياسة في عام ١٧٩٥ حين اضطربت الأمور في القاهرة وفزع الناس من طغيان إبراهيم ومراد من أمراء المماليك، فقد أبى الشعب وعلى رأسه العلماء ونقيب الأشراف أن يترك الطاغية يحكم على هواه، وألزموه بشروط يعدها المؤرخون وثيقة حقوق الإنسان الأولى التي سبقت في تاريخها إعلان حقوق الانسان في فرنسا في اعقاب ثورة سنة ١٧٩٨، وفي هذه الوثيقة الاجتماعية الكبرى أعلن الأمراء المماليك أنهم يتعهدون بالعدل، ويتوبون عن المظالم، ويعدون بالقيام بالواجبات التي يفرضها عليهم القانون والعرف: من صرف الأموال على مستحقيها، ورفع الضرائب الإضافية، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم بالأذى، وبأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة.

ومضت عدة أعوام حتى إذا كان يوم ٣ يوليه عام ١٧٩٨ هبطت قوات الحملة الفرنسية مدينة الإسكندرية تغزو البلاد، وكان شعب القاهرة في حالة فزع واضطراب، فهل في وسع المماليك أن يدافعوا ويكافحوا ويردوا الغزاة الفاتحين؟ وتمثلت هذه المحنة في خاطر عمر مكرم بأنها امتداد للحروب الصليبية، ولذلك أذاع نداء على الشعب يحثه على الجهاد

الديني، فخرج الرجال والشبان ولم يبق سوى الضعفاء والأطفال والنساء، وجاد كل منهم بما يملك من دراهم، وابتاعوا السلاح والذخيرة والخيام. وهبط مكرم من القلعة إلى ساحل بولاق يحمل علماً يسميه العامة «البيرق النبوي»، والناس حوله ألوف مؤلفة، وفي أيـديهم السلاح السـاذج من سيوف ومدى وهراوات، ومعهم الطبول والزمور، ووقفوا على غير نظام يشدون أزر جيش المماليك الذي كان يقاتل على الضفة الأخرى للنيل.

كان مكرم يحسب أن الأمراء المماليك من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين صدوا جحافل التتار والصليبيين، ولكن موقعة النيل بددت أحلامه، فقد هزموا في ساعات معدودات، مما جعله يؤمن بأن مماليك أيامه لايحـاكـون في شيء المماليك الأول، فهم جبناء، عتاة، ظالمون.

وعلى الرغم من ان مكرم لادراية له بفنون الحرب ولا أسـاليب القتال، إلا أنه شهد بعينيه فرار قوات المماليك، وزحف القوات المغيرة على القاهرة، واحتلال أطرافها، وأبت عليه كرامته أن يقبل هذا الهوان، فخرج الى الشام وأقام في جنوبها يرقب الأحداث التي تجري في وطنه عن كثب، فلما كان نابليون بونابرت في يافـا حرص على أكرام من وجدهم من المصريين هناك.. وأكبر في عمر مكرم عـاطفته المشبـوبة ورأسه المرفوع، وكرامته التي يذود عنها، فيسر له سبيل العودة إلى وطنه.

وكانت القاهرة في غضون الفترة التي عاد فيها مكرم تغلى كالمرجل، والثورة على الأبواب. كانت في حالة ثورة نفسية كامنة، وكان تحرير الوطن من نير الأجنبي قبلة الجميع، فلما شرع الزعيم يدعو أفراد الشعب إلى الخروج والجهاد ولقاء الغاصب المحتل، أقبل الناس على تلبية دعوته، فأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وتحصنوا في الجوامع، وانشأوا معملاً للبارود، وجاءوا بالصناع والعمال، واحتالوا في صنع آلات القتال من بنادق وذخائر، وأشرف مكرم على جـمع التبرعات لتمويل الحركة، وأخيراً بدأ النضال عنيفاً سافراً بين المحاصرين والمدافعين، وشهد الفرنسيون ببسالة المصريين واقتحامهم المخاطر والأهـوال، ولكن المقاومـة انتهت بتغلب

المحتلين لتفوقهم في معدات القتال، وفرضوا على السكان غرامة مقدارها عشرة ملايين من الفرنكات، ولجأوا الى أحط وسائل العسف والقسوة في تحصيلها، ونقموا على زعيم الحركة، فأمروا بنفيه الى مدينة دمياط.

جلت الحملة الفرنسية وعادت مصر إلى حكم العثمانيين، وفي خلال السنوات الخمس المتعاقبة تولى الحكم خمسة من الولاة، قتل منهم اثنان وطرد الباقون بعد أن سجنوا في القلعة.. كان آخر هؤلاء الولاة أحمد خورشيد، وكان رجلاً ضيق الأفق، من بقايا الارستقراطية العثمانية، يدعى السيادة على كل شيء، ولكن دولته كانت تخذله فلا تمده بالمال والرجال.. كان في موقف حرج، فخزائنه خاوية من المال لدفع مرتبات الجند، والمماليك يغيرون على القرى ويتولون تحصيل الضرائب والاستيلاء عليها، وطبقات الشعب متذمرة من الكلف الفادحة المفروضة عليهم. فاحشدت في الأزهر جموع من التجار والصناع وطلبة العلم وجاهروا بالتمرد والعصيان، ثم أغلقوا المتاجر والمصانع والمنازل، حتى بدت القاهرة كمدينة مهجورة.

وانتهز محمد على أحد قواد الفرقة الألبانية غير النظامية فرصة تذمر طبقات الشعب، فصار يتودد إلى مكرم بوصفه زعيم الشعب، ويزوره سراً في الليل ويستميله بشتى الوعود، ويقسم له الإيمان الكاذبة بأنهم أن مكنوه من الحكم، فإنه يسير حسب نصوص الشرع، والإقلاع عن المظالم، ولا يبرم امرا إلا بمشورة العلماء، وانه إذا خالف هذه الشروط عزلوه، وأخرجوه من الحكم.

وصدق عمر مكرم هذه الوعود، وأخذ على عاتقه إقناع العلماء بمشاركته فكرته، وأذاع نداء على الشعب بالاجتماع امام المحكمة الشرعية. فلما كان اليوم التالي خرج الأفراد والجماعات من دورهم ومصانعهم ومتاجرهم، وأقبل المزارعون من الضواحي حتى احتشدت بهم الطرق والمسالك المؤدية إلى المحكمة، وكانوا جميعاً يهتفون بقولهم: «يا رب يا متجلي أهلك العثمانلى»، وهم يقصدون طبعاً الوالي العثماني، ثم

أقبل السيد عمر مكرم، فاقترح المناداة بعزل خورشيد وإسناد الولاية إلى محمد علي.

وكان الشعب قد ضاق ذرعا بالاعتداءات المتكررة وبالضرائب الفادحة التي يطلب إليها دفعها صاغراً. كان في حاجة إلى مصافحة اي يد تمتد إليه، لعل فيها خلاصه مما يعانيه من الكروب والمحن، ولذلك وافق على الاقتراح الذي تقدم به السيد مكرم، لا حبا في القائد الألباني، وإنما كرها في الوالي العثماني.

وطلب العلماء وعلى رأسهم مكرم إلى الوالي النزول عن الحكم طوعاً لإرادة الشعب، فأبى مستكبراً وأجابهم بأنني معين بأمر السلطان فلا أنزل بإرادة الفلاحين.

واستشاط العلماء غضباً من هذه الإهانة الموجهة إلى الشعب، واتفقت كلمتهم على محاصرة الوالي في القلعة لإرغامه على التنازل عن الحكم، وبدأ النضال سافراً، وشرع أفراد الشعب في تكوين فرق شبه عسكرية تتولى إقامة المتاريس وحفر الخنادق وحراسة مداخل المدينة ومد المساعدة إلى الجنود وتسليح الشعب بالأسلحة البيضاء والهراوي، ومنعوا الماء والغذاء والمدد عن الوالي في القلعة.

وكان مكرم في غضون فترة الحصار حركة لاتهدأ، كان يتنقل بين الصفوف، ويستثير الهمم والنخوة القومية ويشجع المحاصرين، وبرزت إلى جانبه أسماء زعماء من الشعب: كابن شمعة وحجاج الخضري الذي تمكن من أسر قافلة من الإبل محملة بالذخائر والمؤن كانت في طريقها إلى القلعة لتموين الوالي، وقدم هذه القافلة غنيمة باردة إلى القائد المرشح للولاية.

وانتهى النزاع طوعاً لإرادة الشعب، فنزل الوالي المعزول عن الحكم، وأسندت الولاية إلى الحاكم الجديد، وبذلك انتصرت إرادة الشعب.

ثم وفدت بعد عامين حملة عسكرية بريطانية لاحتلال مصر وتمكنت من أن تسيطر على مدينة الاسكندرية دون مقاومة تذكر، بتأثير خيانة الضباط العثمانيين في المدينة، ثم سارت الحملة إلى رشيد، فقاومها أهل رشيد في بسالة وبطولة وتمكنوا من قهرها وحملت رؤوس القتلى على أسنة الرماح إلى القاهرة وعلقت بأبوابها، وسيق الأسرى من الضباط والجنود الإنجليز وطيف بهم في شوارع العاصمة.

وشرع مكرم في حفز همم سكان القاهرة لمقاومة المعتدين إذا ما حاولوا اقتحام العاصمة، فجمع الجموع وحصن المداخل وأقام المتاريس في الشوارع، وكون فرقاً نظامية سلحها بالأسلحة الخفيفة، وكان محمد علي في غضون ذلك في أرباض أسيوط يقاتل المماليك، فلما وفد على القاهرة وأفضى إليه مكرم بما اعتزمه الشعب من الكفاح والنضال لرد غارة المعتدين، صدمه محمد علي في عواطفه بأن قال له: عليكم بالمال وبمعدات الحرب وعلى أنا وحدي مقاتلة المغيرين.

كان الوالي الجديد لايفتأ يلجأ الى مكرم لأنه يدرك قوة زعامته الشعبية في نفوس العلماء وقادة الرأي وجميع الطبقات، ولكن لما استولى على مقاليد الأمور أخذ يقلب له ظهر المجنّ، ويقصيه عن الاشتراك في المسائل العليا للدولة وفي مهمة الدفاع عن الوطن.

وكان الوالي كلما أعوزته الحاجة إلى المال، مال إلى أموال الأوقاف، فاغتصب منها ما هو في حاجة إليه، فضج العلماء بالشكوى لأن هذه الأموال مرصودة على تعمير بيوت الله وإنفاقها في وجوه البر، وكان ان اجتمع عمر مكرم بالمشايخ ورجال الدين، واحتجوا على مسلك الوالي احتجاجاً مرا فكان جوابه:

- أنا وحدي الذي ينتفع بالضريبة، وأما أنتم فتبهظون كاهل الأمة بأثقل الأعباء، إنكم تعقدون الاجتماعات في المساجد، وتتكلمون عني بلهجة تكاد تكون لهجة الآمر، وهذه نزعة باطلة لا يمكن قبولها بغير

الازدراء والاستخفاف، وإنني على استعداد لأن أرمي عنق كل من يستظل بلواء المعارضة في وجه سياستي.

وبادر مكرم بأن جمع العلماء وقال لهم:

- ان هذا الحاكم محتال وإذا تمكن فسيصعب إزالته فلنعزله من الآن.

ونمى ذلك إلى محمد علي فأسرع إلى نفي مكرم تحت الحراسة، وكان ان أجاب على هذا الأمر بشجاعة: أن النفي غاية ما أتمناه. غير أنني أريد العيش في بلد لا يدين بحكم محمد علي.

ورأى مكرم بعين الحسرة أن الآمال التي كان يعلقها على قيام دولة جديدة يشترك فيها المصريون قد تبخرت وذهبت في الهواء.

وفي يوم ١٣ أغسطس عام ١٨٠٩ احتشدت على ساحل بولاق طوائف مختلفة من الشعب، يودعون زعيمهم الراحل، وهو يبحر في مركبه الى دمياط وانهمرت الدموع من مآقيهم وهم يودعون الرجل الذي وقف حياته في سبيل الدفاع عن حقوقهم ورد المظالم عنهم.

وبنفي مكرم اختفت الزعامة الشعبية من الميدان، وخلا جو المعارضة امام الوالي الذي رفعه الشعب إلى منصة الحكم بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق ليحكم بالعدل والمحبة فتخلى عن هذه العهود والمواثيق.

* * *

فحول العلماء في قرنين

وهؤلاء أعلام من فحول علماء الأزهر في القرنين: الثاني عشر والثالث عشر الهجرى. . . نذكر أسماءهم في إيجاز:

الشيخ محمد البناني: طلب العلم في الأزهر. وحضر دروس الشيخ الصعيدي والدردير وغيرهم، حتى مهر وأنجب ودرس ومات سنة ١١٨٦ هـ عن ثلاثين سنة (١).

الشيخ حسن الشبيني، رحل من بلدته فوه إلى الجامع الأزهر، فطلب العلم وأخذ من الشيخ الديربي فجعله ممليا عليه في الدرس (٢) وتوفي عام ١١٨٣ هـ.

الفقيه الشيخ الحماقي الحفني من كبار علماء الشافعية. وتصدر للإقراء والتدريس بالأزهر عدة سنين. ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسي (٣) وقد توفي عام ١١٨٧ هـ.

المحدث المقري شمس الدين محمد بن قاسم البقري شيخ القراء والحديث بصحن الجامع الأزهر (٤).

---

(١) ٣٧٥ ج ١ الجبرتي
(٢) ٣٣٨ ج١ الجبرتي
(٣) ٤٠٨ ج ١ الجبرتي
(٤) ٨٨ ج ١ الجبرتي

والشيخ المحدث منصور بن عبد الرزاق الطوخي الشافعي إمام الجامع الأزهر (١)

شيخ الإسلام البراوي الشافعي الأزهري. ورد الجامع الأزهر وهو صغير، فقرأ العلم على مشايخ عصره، وتفقه على الشيخ مصطفى العزيزي، وحضر دروس الملوي والجوهري والشبراوي، وشهد له بالفضل أهل عصره وأحدقت به الطلبة، واتسعت حلقته وقد صلى عليه في الأزهر في مشهد حافل (٢) ودفن عام ١١٨٢ هـ.

الفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنبلاوي الشافعي الأزهري، كان عالماً مواظباً على تدريس الفقه والمعقول بالجامع الأزهر، ولازم على قراءة ابن قاسم بالأزهر كل يوم بعد الظهر، وكان يحترف بيع الكتب - توفي سنة ١١٨٠ﻫ (٣)

الشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحي.

الفقيه (١١٤٠ - ١١٨٠ هـ)(٤) المحدث شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدي الشافعي الأزهري الشهير بالجوهري (١٠٩٦ هـ - ١١٨٢ هـ). وقد اشتغل بالعلم، وجد في تحصيله حتى فاق أهل عصره، ودرس بالأزهر وأفتى نحو ستين سنة، ومات فصلى عليه بالأزهر(٥) عام ١١٨٢ هـ.

الشيخ عبد الرؤوف بن محمد البشبيشي ولد ببشبيش من أعمال المحلة الكبرى، وقد تصدر لتقرير العلوم الدقيقة والنحو والمعاني والفقه، وانتفع به غالب مدرسي الأزهر. وتوفي سنة ١١٤٣(٦)

---

(١) ٨٨ ج ١ الجبرتي.
(٢) ٣١٢ ج ١ الجبرتي
(٣) ٢٨٥ ج ١ الجبرتي
(٤) ٢٦٥ ــ ٢٨٤ ج١ الجبرتي
(٥) ٣٠٩ - ٣١٢ ج ١ الجبرتي.
(٦) ١٥٧ ج ١ الجبرتي

الشيخ أبو الحسن البكري خطيب الأزهر(١)

شيخ مشايخ الاسلام عالم العلماء الاعلام الشيخ علي العدوي المالكي (١١١٢ - ١١٨٩ هـ). وهو من بني عدي، ومن مشهوري العلماء، صلى عليه في الأزهر بمشهد عظيم، ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى(٢) عام ١١٨٩ هـ.

المفتي الفقيه الشيخ إبراهيم الشرقاوي. وكان لا يفارق محل درسه بالأزهر طول النهار(٣)، وتوفي عام ١١٨٥ هـ.

الشيخ علي الشاوري المالكي مفتي فرشوط قرأ بالأزهر العلوم. وقدم الى مصر ومات بها وصلى عليه في الأزهر(٤) عام ١١٨٥هـ

الشيخ علي العدوي المالكي الأزهري (١١٠٠ - ١١٨٥هـ) تلقى العلم في الأزهر ثم درس بالأزهر ونفع الطلبة(٥).

الشيخ مصطفى الصاوي، وقد تعلم في الأزهر، ولازم الشيخ البراوي وتخرج به وأقرأ الدروس، وكان شاعراً لطيفاً وكاتباً مجيداً. وتوفي عام ١٢١٦هـ(٦).

الشيخ محمد الخالدي الشافعي (١١٥١ - ١٢١٥ هـ)، وقد كان من مشهوري علماء الأزهر في عهده.. وله كتب كثيرة، وصلى عليه بالأزهر في مشهد حافل، رحمه الله(٧)

السيد مصطفى الدمنهوري الشافعي من العلماء المشهورين

---

(١) ١٦١ ج ١ الجبرتي
(٢) ٤١٥ و ٤١٦ ج ١ الجبرتي
(٣) ٣٦٩ ج ١ الجبرتي
(٤) ٣٦٧ ج ١ الجبرتي
(٥) ٣٦٧ ج ١ الجبرتي
(٦) ٢١٣ ـ ٢١٧ ج ٣ الجبرتي
(٧) ١٦٥ ج ٣ الجبرتي

المذكورين، تفقه على أشياخ العصر ولازم الشيخ الشرقاوي الذي صار شيخ الأزهر، وكـان يكتب على الفتاوي على لسـان الشيخ الشـرقاوي ويتحرى الصواب. . . ومات في عهد الفرنسيين مقتولاً[١].

الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي، من علماء الأزهر الشريف، درس ودرَّس بالأزهر مدة في أنواع الفنون في الدين واللغة، وتوفي سنة ١١٩٨ هـ[٢].

الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي الأزهري، صاحب المؤلفات الذائعة المشهورة التي خلدت ذكره، وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ[٣].

الشيخ أحمد العروسي الشافعي الأزهري (١١٣٣ ـ ١٢٠٨ هـ) حضر في الأزهر علي شيوخه وعلمائه[٤].

الشيخ شهاب الدين السمنودي المحلي الشافعي، العالم الأزهري، وقد قرأ بالجامع الأزهر، وتوفي عام ١٢٠٩ هـ[٥].

الشيـخ أحمد السمـاليجي الشافعي المـدرس بـالمقـام الأحمـدي بطنطا. . توفي عام ١٢٠٩ هـ[٦].

الشيخ عبد الرحمن النحراوي الأجهوري، درس بالأزهر وأفاد الطلبة وتوفي عام ١٢١٠ هـ[٧].

وفي هـذه السنة أيضـاً توفي الشيـخ حسن الهـواري المـالكي شيـخ رواق الصعايدة[٨].

---

(١) ٦٧ ج ٣ الجبرتي
(٢) ٨٥ وما بعدها ج ٢ الجبرتي
(٣) ٢٢٧ ـ ٢٣٣ ج ٢ الجبرتي
(٤) ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ج ٢ الجبرتي
(٥) ٢٥٩ ج ٢ الجبرتي
(٦) ٢٦٠ ج ٢ الجبرتي
(٧) ٢٦٢ ج ٢ الجبرتي
(٨) ٢٦٣ ج ٢ الجبرتي

الشيخ عثمان بن محمد الحنفي المصري الشهير بالشامي، وتوفي عام ١٢١٠ هـ[١] وكذلك الشيخ شمس الـدين الفرغـلي الشافعي[١] ولـه شعر عذب.

الشيخ أحمد محمد السجاعي الأزهري قدم الأزهر صغيرا فتمهـر ودرس وأفتى وألف، وترك آثار علمية مشهورة توفي عام ١١٩٠هـ[٢].

الشيخ عطية الأجهوري الشافعي، العالم الأزهري؛ وقد توفي عام ١١٩٠ هـ[٣].

الشيخ إبراهيم بن خليل الصبحاني الغزي الحنفي العالم الأزهري، وقد ولد بغزة وورد إلى الأزهر فتعلم فيه، ثم عاد إلى غزة وتولى فيها الإفتاء، وارتحل إلى دمشق وتولى أمانة الفتوى. توفي عام ١١٩٠ هـ[٤].

الشيخ محمد العوفي المالكي كان شاعراً ماجنا، ومع ذلك كانت حلقة درسه في الأزهر تزيد على الثلثمائة. مات سنة ١١٩١ هـ[٥].

الإمام الشيخ أحمد بن عيسى الزبيري الشافعي البراوي من علماء الأزهر، ولد بمصر وبها نشأ وحضر دروس مشايخ الوقت، ولما توفي والده أجلس مكـانـه في الأزهـر وقـد تـوفي بـطنــطا عـام ١١٩٢ هـ، وصــلى عليـه بالأزهر، ودفن بتربة المجاورين[٦]

الشيخ محمد العدوي من علماء الأزهر، درس في الأزهر ودرَّس فيه وتوفي عام ١١٩٣ [٧]

---

(١) ٢٦٣ ج ٢ الجبرتي
(٢) ٣ ج ٢ الجبرتي
(٣) ٤ ج ٢ الجبرتي
(٤) ٤ ج ٢ الجبرتي
(٥) ١٥ و١٦ ج ٢ الجبرتي
(٦) ٣٥ ج ٢ الجبرتي
(٧) ٥٨ ج ٢ الجبرتي

الشيخ شهاب الدين أحمد السجاعي الشافعي الأزهري من علماء الأزهر، ولد بمصر ونشأ بها وتصدر للتدريس في حياة أبيه وبعد موته في مواضعه، وصار من أعيان العلماء. وتوفي عام ١١٩٧ هـ[١].

الشيخ عبد الله بن أحمد المعروف باللبان الشافعي الأزهري. توفي عام ١١٩٨ هـ[١].

ومن مشهوري العلماء الشيخ محمد بن حسن الشافعي الأحمدي الأزهري المتوفى عام ١١٩٩ هـ[٣].

الشيخ محمد الخشني الشافعي وكان من خيار شيوخ الأزهر[٣] وتوفي سنة ١٢٢١ هـ.

والشيخ سليمان البجيرمي الشافعي من علماء الأزهر المشهورين[٤]

الشيخ أحمد البرماوي الشافعي (١١٣٨ ـ ١٢٢٢هـ). . وكان من الشيوخ الأجلاء[٥]

الشيخ إبراهيم الحريري مفتي مذهب السادات الحنفية كوالده، وقد توفي عام ١٢٢٤ هـ[٦]. . وتوفي في هذا العام الشيخ عبد المنعم العماوي المالكي وهو من كبار الشيوخ[٧]

الشيخ محمد أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي الأزهري من علماء البلاغة، تصدر للإقراء والتدريس بالأزهر وإفادة الطلبة، وكان فريداً في تسهيل المعاني وتوفي عام ١٢٣٠ هـ ودفن بتربة المجاورين[٨].

---

(١) ٧٥ ج ٢ الجبرتي
(٢) ٨٤ ج ٢ الجبرتي
(٣) ٩٤ ـ ٩٥ ج ٢ الجبرتي
(٤) ٢٤ ج ٢ الجبرتي
(٥) ٢٤ ج ٤ الجبرتي
(٦) ٧٦ ج ٤ الجبرتي
(٧) ١٠٤ ج ٤ الجبرتي
(٨) ٢٣١ ج ٤ الجبرتي

الشيخ محمد الأمير المالكي الأزهري (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) من كبار الشيوخ الأجلاء في الأزهر(١)

الشيخ محمد الأشموني الشافعي (١٢١٨ - ١٣٢١هـ) تعلم في الأزهر وصار مدرساً فيه (٥٠ - ٥٢ تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور ط ١٩٤٠).

الشيخ أحمد الرفاعي المالكي، تعلم ودرس في الأزهر وحضر عليه محمد عبده والشيخ بخيت والشيخ أبو الفضل وسواهم، وقد رشح للمشيخة بعد استقالة الشيخ سليم عام ١٣٢٠هـ، ولكن لم يقدر الله له ذلك، وقد توفي عام ١٣٢٥ هـ (٦٤ - ٦٦ المرجع).

الشيخ حسين الطويل المالكي (١٢٥٠هـ - ١٣١٧هـ) من مشهوري العلماء، حضر ودرّس في الأزهر، وأول درس قرأه بالأزهر عام ١٢٨٣ هـ، وتتلمذ عليه الكثيرون، وعين مفتشاً ثانياً للغة العربية بوزارة المعارف، ثم مدرساً بدار العلوم(٢)

الشيخ أحمد خطوة الحنفي (١٢٦٨ - ١٣٢٤ هـ)، من جلة العلماء، وحضر ودرس في الأزهر، وكان أكثر اشتغاله في المعقول على الشيخ حسن الطويل، وكان ابتداؤه للتدريس في الأزهر سنة ١٢٩٦ هـ، وقد عين مفتياً للأوقاف، ثم نقل عضوا في المحكمة الشرعية العليا(٣)

---

(٥) ٢٨٤ ج ٤ الجبرتي

(٦) ١٢٠ — ١٢٩ أعيان القرن الثالث عشر لأحمد تيمور، وله ترجمة في مجلة الضياء ج ١ ص ٦٩٠

(٣) له ترجمة في مجلة المقتبس ج ١ ص ٥٥١، وراجع ص ١٣٠ — ١٣٢ تراجم أعيان القرن ١٣ لأحمد تيمور

الباب الثاني

تاريخ الأزهر الحديث

الفصل الأول

القوة الشعبية بعد الحملة الفرنسية ممثلة في الأزهر

بعد خروج الفرنسيين من مصر تنازعت الوطن أياد قوية؛ كل يد تعمل على الاستئثار بحكم مصر، وكان من هؤلاء الطامعين في العرش طامح من رعايا خلافة تركيا هو محمد علي القوللي رئيس إحدى الفرق العسكرية التي أرسلتها تركيا إلى مصر لطرد الفرنسيين منها.

وتودد محمد علي إلى شعب مصر والى علماء الأزهر الشريف، ودس أعوانه في وسط الشعب لينادي به حاكماً على مصر، واستجاب علماء الأزهر لرغبة الشعب، ورأوا في تولية مثل محمد على حكم مصر دفعاً لأخطار الحكام الأتراك المتغطرسين، فتوجهوا وعلى رأسهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد المهدي المفتي، والشيخ محمد الأمير من كبار العلماء، والشيخ سليمان الفيومي، والسيد عمر مكرم نقيب الإشراف، والسيد محمد السادات شيخ مشايخ الطرق الصوفية، والشيخ العريشي القاضي، وغيرهم من الشيوخ والعلماء، إلى قصر محمد علي وأفضوا إليه برغبتهم في المناداة به والياً على مصر لإجماع الشعب على ذلك، وخرج العلماء من عنده إلى الجامع الأزهر لرسم الخطة ومتابعة الحوادث. غير أن الانتظار لم يطل، فما كاد يعلن نبأ تولية «محمد علي» ولاية «جدة» واستعداده للرحيل، حتى خرج أهل القاهرة عن حد الاحتمال فالتفوا حول شيوخ الأزهر، وطالبوا بوضع حد لسوء الحال، وانتهوا إلى المطالبة بعزل الوالي، والمناداة بمحمد علي

والياً على مصر: وكان عدد المحتشدين من الشعب في الأزهر يربو على الأربعين ألفاً. ولم يجد العلماء إزاء هذا الموقف بدا من تحقيق رغبة الشعب، فاتجهوا الى دار المحكمة في بيت القاضي، وحولهم هذا البحر الزاخر من الشعب الهائج يهتف بسقوط الوالي، وفي المحكمة حضر الجميع واتفقوا على كتابة عريضة بمطالب الشعب عددوا فيها المظالم التي وقعت بالناس من مصادرة الحريات وفرض الضرائب، وطالبوا برفع هذه المظالم، وكان ذلك في يوم الأحد ١٢ من صفر سنة ١٢٢٠هـ (١٢ مايو سنة ١٨٠٥م). ولما وصلت هذه القرارات إلى الوالي استدعى العلماء لمقابلته، ولكنهم رفضوا، لأنهم علموا أنه دبر مؤامرة لاغتيالهم في الطريق والقضاء على هذه الحركة الشعبية، فلما امتنعوا عن الذهاب رفض الوالي إجابة مطالبهم، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء في يوم الاثنين ١٣ من صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥ م) بدار المحكمة وقرروا عزل خورشيد باشا وتنصيب محمد علي والياً على مصر.

وعقب إصدار القرار في المحكمة توجهت الجموع إلى محمد علي، وفي طليعتهم علماء الأزهر على رأسهم: الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، ونقيب الاشراف السيد عمر مكرم «وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له: إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية. فقال: ومن تريدونه أن يكون والياً؟ قالوا: لا نرضى الا بك، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير. فامتنع أولاً، ثم رضي. وأحضروا له كركا وعليه قفطان. وقام إليه شيخ الاسلام الشيخ الشرقاوي والسيد عمر فألبساه إياه، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة».

وفي ١١ من ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ هـ (٩ من يوليه سنة ١٨٠٥ م) وصل مرسوم الدولة، ومضمونه الخطاب لمحمد علي والي جدة سابقاً وواليه مصر حالاً، من ابتداء ٢٠ من ربيع الأول، حيث رضي بذلك العلماء والرعية.

هذه هي رواية الجبرتي ونحن لا نكاد نسلم بها، فإن محمد علي عندما علم بنبأ وصول الوحدات البحرية التركية بقيادة قبودان باشا يحمل أمر السلطان بعزل محمد علي وتولية موسى باشا، سارع إلى الالتجاء إلى القلعة مستعداً للمقاومة وجمع فيها ما استطاع أن يجمعه من معدات الحرب والعمال والاجناد، وفي هذه الأثناء علم أن محمد بك الألفي المتحصن في البحيرة قد اتصل بالأتراك واتفق معهم. فرأى أن المقاومة لن تجدي ما دام الشعب لا يظاهره، وأن أعوانه في المقاومة هم قواد الجيش الذين اجتمع بهم وشاورهم فأيدوه في المقاومة «لأنه ما من أحد منهم إلا وصار له عدة زوجات وعدة بيوت والتزام بلاد (جمع ضرائبها) وسيادة لم يكن يتخيلها ولم تخطر بذهنه أن ينسلخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه».

ووصلت الأنباء أن الألفي بعث إلى قبودان هدية فيها ٣٠ جواداً و ٤٠٠٠ رأس من الغنم والبقر والجاموس ومائة جمل بالذخيرة ونقود وثياب وأقمشة.

وهنا التجأ محمد علي إلى زعيم مصر الكبير السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وبعض الأعيان، وعرض عليهم الموقف وما فعله الأمراء والمماليك واتفاقهم مع السلطان، وطلب منهم دراسة الموقف فتركوه وانصرفوا.

حدث هذا في يوم الجمعة ولو أن الشعب المصري كان متعلقاً بمحمد علي لا يرضى عنه بديلاً، كما صوره المؤرخون، لما استدعى بحث الموقف طويلاً، بل كان الرد أن الشعب سيقف بجانب محمد علي في موقفه ومقاومته ولا يحتاج إلى تفكير. ولكن الذي حدث فعلاً أن البحث والدرس وتقليب الموقف استمر بين الزعماء المصريين أياماً. فمضى السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء دون أن يتلقى محمد علي رداً، وهنا قرر محمد علي اتخاذ إجراء حاسم.

بعث باثنين من رجاله هما مدير مكتبه ورئيس التراجمة، وقد فاجئا

السيد عمر مكرم في داره صباح الخميس، وقدما إليه صورة التماس كتبه ديوان محمد علي، على لسان المشايخ الى الباب العالي لتثبيت محمد علي لولاية مصر.

ولو أن المصريين كانوا متمسكين بمحمد علي لوقع الزعماء - الذين دعاهم السيد عمر النقيب إلى داره لبحث هذا التطور الجديد في الموقف - الالتماس دون مناقشة، ولكن الذي حدث هذه المرة أيضاً أن الاجتماع استمر اليوم كله.

وفي اليوم التالي، السبت، حمل هذا الالتماس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي ومعه أمر بتنظيم «العرضحال» وترصيعه «وتوقيعه» بتوقيعات المشايخ وبصمه بأختامهم ليرسله الباشا إلى الدولة، فلم تسعهم المخالفة»... وقد تم هذا فعلاً.

وهذا الالتماس رغم طوله لم يخرج عن كونه مدحا للسلطان، ثم تحقير أعمال الأمراء المماليك، ثم رفع شأن محمد علي وتبرير لبعض تصرفاته التي أنكرها عليه السلطان وينتهي بطلب إبقائه والياً.

وسارع محمد علي، بطبيعة الحال، بإرسال العريضة إلى تركيا، ولكن حدث مساء الاثنين أن وصل إلى القاهرة رسول من قبودان باشا ليبلغ المسؤولين عن الشعب وهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والأئمة قرار السلطان بعزل محمد علي. ولما كان الأمر قد خرج من أيدي هؤلاء الزعماء بعد توقيع الالتماس، فقد ذهبوا إلى محمد علي يعرضون الأمر فأمرهم بالعودة إلى منازلهم على أن يرسل إليهم في اليوم الثاني صورة التماس جديد ينسخونه ويوقعونه.

وفي هذا العرضحال يبدي الزعماء خضوعهم وامتثال لقرار السلطان ولكنهم يبدون تخوفهم من الجند ألا يمتثلوا للأوامر بسبب رواتبهم. وكان محمد علي قد احتاط بتدبير هذه المؤامرة بالاتفاق مع قواد الجند الذين يهمهم البقاء في مصر.

وانتهز محمد علي الفرصة وماطل في تنفيذ أمر السلطان، وهنا وجد قبودان باشا مركزه حرجاً، وأن الاعتماد على الأمراء المماليك لا خير فيه وسيؤدي إلى ضياع هيبته، فقر رأيه أن يتصل بمحمد علي الذي انتهز الفرصة فعرض العروض الباذخة وتعهد ان يؤدي ضعف ما تعهد الأمراء بتأديته لقبودان: بعضه معجل والآخر مؤجل.

واتفق قبودان مع محمد علي أن يعود الى استكتاب الزعماء كتاباً آخر يرسله إليه مع ولـده شخصياً. على أن يتضمن أن محمد علي حامى الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقامع المعتدين وأن الكلية من الخاصة والعامة راضية بولايته وأحكامه وعدله، وأن الشريعة مقامة في أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم.. الخ الفضائل والصفات التي اتفق قبودان باشا مع محمد علي، على نسبتها إلى مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ مصر!!..

وقد انتهت هذه المساعي كلها بإلغاء أمر النقل وتثبيت محمد علي على ولاية مصر.

وهذه هي حقيقة مطالبة المصريين بولاية محمد علي عندما عزله السلطان، في المرة الثانية.. وهذا هو موقف الزعماء المصريين، الذين لم يطالبوا بتثبيت محمد علي إلا بحد السيف الذي سلطه عليهم.

ولكن ماذا فعل محمد علي وأولاده بهذه الثقة الغالية؟ لقد قـرر محمد علي منذ اللحظة الاولى أن يستبد بالأمر، ويبعد الشعب وزعيمه عن الميدان..

وأخذته الغيرة من زعيم المصريين عمر مكرم، وأنكر منه أن يتحدث اليه عن آلام الشعب مما فرضه عليهم من الضـرائب بسبب الاستعداد للحملة الوهابية.. ثم أراد أن يأخذ إمضاء السيد عمر على حساب غير مضبوط أعده ليرسله إلى الدولة.. فأبى السيد عمر مكرم ذلك قائلاً:

ان الضرائب المعتادة كانت تكفي لكل ما قام به الباشا من الأعمال

العامة. . . وإني لا أستطيع أن أشهد بغير ما أعتقد أنه حق. . .

فقرر محمد علي التخلص من عمر مكرم. . وأراد أن يحتال عليه، وطلب إليه أن يذهب لمقابلته في الديوان، فأجاب السيد عمر مكرم قائلاً:

إن الباشا إذا أراد مقابلتي، فلينزل من القلعة لمقابلتي في بيت السادات، لتكون المقابلة على سواء.

وكان محمد علي يجمع من الضرائب أكثر مما ينفق. . ويحتجز الأموال لنفسه، فاحتج عمر مكرم، وقال كلاماً كثيراً جاء فيه:

أما ما صرفه الباشا في سد الترعة فإن الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافاً كثيرة، وأما غير ذلك، فكله كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعته المظالم. .

فقرر محمد علي نفيه من القاهرة، فابتسم الشيخ عمر مكرم وقال:

أما منصب النقابة فإني راغب عنه وزاهد فيه، وليس فيه إلا التعب: وأما النفي فهو غاية مطلوبي، وأرتاح من هذه الورطة، ولكن أريد ان أكون في بلد لم تكن تحت حكمه، فإذا لم يأذن لي في الذهاب إلى أسيوط، فليأذن لي في الذهاب إلى الطور أو إلى درنة.

فأخبروا الباشا بذلك، فلم يرض إلا بذهابه إلى دمياط.

وخرج عمر مكرم زعيم الشعب إلى منفاه في ١٣ اغسطس ١٨٠٩.

وهكذا أخرج محمد علي الشعب المصري من الميدان، وقرر أن يستبد بأمر مصر وحده.

وهكذا أنكر فضل هذا الشعب عليه، وأخذ طريق المستبدين، وخلفه أبناؤه فساروا في طريقه، ووضعوا أيديهم في يد أعداء البلاد. . وزاد أمرهم سوءاً، وأحاطت بهم الأزمات. .

وتقدم شعب مصر ليعينهم، فمكروا به، وسخروا منه، إلى أن حدث ما لم يكن لهم في حسبان

الأزهر يسير في حياته العلمية:

وقد سار الأزهر في حياته العلمية يائساً من الحكام والولاة، واهتم علماؤه بإصلاحه وصدر أول قانون لذلك في سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧٢ م) وقد نظم هذا القانون طريقة نيل الشهادة العالمية وبين مواد امتحانها وقسم الناجحين فيها إلى ثلاث درجات: (أولى، ثانية، ثالثة) على أن تصدر بذاك براءة ملكية بتوقيع ولي الأمر: وعنى الغيورون بالأزهر، وحرصوا على أن ينهض. وقد كان لهذا التنظيم الذي بدىء في عهد إسماعيل أثره في حفز الهمم على الإصلاح، فتوالت القوانين المنظمة للأزهر، وكان أهمها القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١، إذ قسم الدراسة بالأزهر إلى مراحل، وجعل لكل مرحلة نظاماً وموادا للدراسة، وحدد اختصاص شيخ الجامع الأزهر، وأنشأ هيئة تشرف على الأزهر تسمى المجلس الأعلى للأزهر، وأوجد هيئة كبار العلماء وجعل لها نظاماً خاصاً، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة التي تدرس في الأزهر شيخاً، ونظم مجالس إدارات المعاهد، ووضع نظاماً للمدرسين والموظفين في التعيين والترقية، ووضع للطلاب شروطاً للقبول، ونظم الامتحانات والشهادات.

وحدث في هذا العهد عدة أحداث: منها أن بعض الشوام والصعايدة تزاحموا في الجلوس في الدرس وتضاربوا فجاء جملة من الشوام بالعصي وساقوا الصعايدة سوقاً عنيفاً إلى رواق الصعايدة، فحضرت طائفة من الصعايدة بعصيهم ووقعوا بالشوام ضرباً وهموا وراءهم بقوة شديدة حتى ادخلوهم رواق الشوام وحاصروهم به، ولم يسع الشوام إلا قفل باب الرواق، بل تسور لهم بعض الصعايدة من فوق السطح، واستمروا كذلك، حتى ذهب الشيخ محمد الرافعي إلى بعض الأعيان من تجار الشوام وأخبرهم، وذهبوا جميعاً إلى خير الدين باشا ضابط مصر، فأرسل جملة

من عساكر الأرنؤود وخلافهم فدخلوا الأزهر بصورة شنيعة وتطاولوا على كل صعيدي بلا تحقيق فأخذ الصعايدة في الذب عن أنفسهم حتى أخرجوا العساكر من الأزهر ولم يلبثوا أن جاءت عساكر جهادية وأتراك بكثرة من طرف الضابط لما بلغه من التهويل فدخلوا الأزهر بأسلحتهم ونفيرهم وطبلهم لابسين أحذيتهم فقبضوا من الصعايدة على نحو ثلاثين وسجنوهم بالمحافظة، ثم أخذوا ثلاثة من مشايخهم وعوقوهم هناك قليلاً وبعد مدة أطلقوهم، وبقي المجاورون في السجن وكان إذ ذاك سعيد باشا في الأرض الحجازية فسعى بعض المشايخ عند وكلائه في الإفراج عنهم فأفرج عنهم بعد نحو عشرين يوماً وحصل الكلام في طريقة يسير عليها الأزهر حيث أن شيخه أقعده الكبر، واجتمع الرأي على توكيل أربعة من العلماء، وصدر الأمر بذلك، وكان في مشيخته الشيخ الباجوري

حادثة الشوام:

وقد حدثت هذه الحادثة المفجعة في ١٩ من ذي الحجة سنة ١٣١٣ بالأزهر الشريف في مشيخة شيخ الأزهر حسونة النواوي بسبب وباء ذلك العام وتفصيلها أنه مرض برواق الشوام مجاور بالطاعون، وحضرت الحكومة لنقله بالعربة السوداء للمستشفى وكان من أخذ بها لا يرجى له أن يشم هواء الدنيا، فأبت رفقته من طلبة الأزهر تسليمه حيث كان قد أخذ آخر ولم يوقف له على أثر، فاشتد الجدال بين الفريقين وأبلغ الأطباء الحكومة أنهم أهينوا، فحضر إلى الجامع الأزهر المحافظ ومعه وكيل الحكمدارية وشرذمة من العساكر فخيل للمجاورين الشوام أنهم مأخوذون لامحالة، فتطاولوا على المحافظ ورجموه ومن معه ببعض الحجارة، فأصاب وكيل الحكمدارية رمية فجرح وكانت الشوام أغلقت باب الشوام، فطلب قوة عسكرية أخرى فحضرت وعملوا حصاراً على الجامع الأزهر وامر الحكمدار العساكر بكسر الباب وإطلاق الرصاص على الطلبة داخل الجامع فانقضوا عليه حتى خلعوا عقب إحدى أبوابه، ثم بدأ الحكمدار يطلق بندقيته واتبعته العساكر بإطلاق الرصاص، فتفرق الطلبة في جميع

نواحي الجامع ثم دخل الضباط والعساكر واشتغلوا بضبط من بالأزهر مع الإهانة من غير تمييز بين طالب وعالم، فقبضوا على ٨٢ من الشوام و ٢٣ من المصريين وفيهم بعض المدرسين وأصيب بالرصاص خمسة مات بعضهم في الحال وبعضهم بعد ذلك ثم أفرج عن المقبوضين وانحصرت التهمة في ١٤ تقريباً من الشوام ونفى البعض وسجن البعض، وأقفل رواق الشوام سنة كاملة، واستاء لذلك الخديوي وشيخ الأزهر وانصدعت لذلك قلوب الشعوب الإسلامية.

جهاد الأزهر في الثورة العرابية:

قام الأزهر بنصيب[1] كبير في إذكاء الحماسة ونشر التعليم وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية، فقد قام رجاله وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب وإلزام الوالي باحترام هذه الحقوق، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا اللأزهر صفحات خالدة في تاريخنا مثل رفاعة رافع والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده.

فالأول كان زعيماً لنهضة العلم والأدب في عصره، ومن أهم أعماله تأسيس مدرسة الألسن التي خرجت نخبة من العلماء والأدباء والشعراء، كما قام بترجمة الدستور الفرنسي، وعلق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه، وميل فطرى إلى[2] النظم الحرة، وترجم القانون المدني الفرنسي ونشر رحلته في فرنسا وسماها «تخليص الإبريز»، ولم يقتصر نشاطه على التأليف والترجمة والتدريس، بل خدم الأدب، وله قصائد شعرية تدل على وطنية صادقة وتفان في محبة الوطن، وبلغ من حماسته أنه عرب نشيد المارسلييز الفرنسي الذي يعتبر من أجمل الأناشيد الحماسية القومية، حتى لا يحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد.

---

(١) مجلة الأزهر ١٣٧٢ ـ الأستاذ احمد عز الدين خلف الله.

(٢) تاريخ الحركة القومية الرافعي ج ٣ ص ٤٧٩

وأما السيد عبد الله النديم، فقد حاول أن ينفث في الأمة الحماسة كي يستيقظ الشعب من غفوته، ونادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليماً نافعاً، وفي سبيل تحقيق أغراضه أسس «الجمعية الخيرية الإسلامية» ونحانحوا جديداً لنشر أفكاره، فألف مسرحيتين إحداهما (الوطن وطالع التوفيق) والأخرى (العرب)، مثلهما هو وتلاميذه على مسرح زيزينيا بالإسكندرية. وقد بين في مسرحيته الأولى جميع الأمراض والعلل التي تهدد الأمة في وجودها.

وبينما كان صوت النديم يجلجل بالإصلاح ويمهد للثورة في نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغاني في دروسه، ويعالج الشئون العامة للبلاد في صحيفتي الأهرام والوقائع الرسمية.

ورأس الثورة المفكر أحمد عرابي (باشا) تلقى علومه في الأزهر مدة أربع سنوات، وكان لهذه المدة على ضآلتها أثر كبير في تكوين شخصية عرابي كزعيم ثوري، إذ جعلت منه خطيبا مفوها يستولى على عقول سامعيه ويهز مشاعرهم... ووسط هذا النضوج الذهني اندلع لهيب الثورة.

وفي ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة يطلبان فيها إبعاد عرابي (باشا) وإرسال كل من: على (باشا) فهمى وعبد العال (باشا) حلمى إلى أية جهة داخل القطر المصري، واستقالة وزارة البارودي، فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين، واجتمع أحمد عرابي ومحمود سامي البارودي وكبار الضباط في قشلاق عابدين واتفقوا فيما بينهم على ان يكونوا يداً واحدة في الدفاع عن البلاد، وارسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم، وتلاها عليهم، فرددوها في صوت واحد.

واستقالت وزارة البارودي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢، وأراد الخديوي

توفيق أن يبث التفرقة في صفوف الزعماء، فعقد اجتماعاً يوم ٢٧ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الإنبابي شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ أبو العلا الخلفاوي وحضره شريف باشا وكبار النواب والضباط وعرض الخديو على المجتمعين تشكيل وزارة برياسته، وقبول المذكرة الإنجليزية الفرنسية. فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلاً «إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهاني وللجناب الخديوي. ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها، ولا حق للدولتين في طلب تنفيذها، فهي تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالي أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيساً للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابي»، ووافق على قوله الشيخ عليش والعلماء جميعاً. ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان وتبعه الضباط والعلماء.

وبعد ضرب الإسكندرية في ١١ يولية عام ١٨٨٢ هب عرابي باشا للدفاع عن البلاد، فأصدر الخديو أمر بعزله في ١٠ يولية، وبناء علي ذلك اجتمع المؤتمر الوطني للمرة الثانية في ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذي أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الإنجليز. وتلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامر الخديو التي تثبت إدانته ومنشورات عرابي باشا التي تدعو إلى الدفاع عن الوطن. ثم ألقى علي باشا الروبي خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى إزاء قضية البلاد، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده، فأصدر المؤتمر الوطني قراره التاريخي بعزل الخديو ووقف أوامره وتكليف عرابي بالدفاع عن البلاد، وتكليف المجلس العرفي بتبليغ هذه القرارات للسلطان، ووقع الحاضرون على ما قرره المؤتمر الوطني وكان من بين العلماء الموقعين على ذلك: الشيخ محمد الإنبابي شيخ الجامع الأزهر، الشيخ حسن العدوي، الشيخ عبد الله الدرسناوي مفتي الحنفية، الشيخ محمد عليش مفتي المالكية، الشيخ يوسف الحنبلي مفتي الحنابلة، مفتي الأوقاف؛ الشيخ عبد الهادي الإبياري، الشيخ محمد

الأشموني الشيخ خليل العزازي، الشيخ مسعود النابلسي، الشيخ محمد القلماوي، الشيخ زين المرصفي، الشيخ حسين المرصفي، الشيخ سليم عمر القلعاوي، الشيخ عثمان مدوخ، الشيخ عبد الرحمن السويسي، ومن رجال القضاء الشرعي: الشيخ أبو العلا الخلفاوي الشيخ عبد القادر الرافعي، الشيخ عبد القادر الدليشاني، الشيخ أحمد الخشاب.

الأزهر يغذى ثورة عرابي:

ولقد كان البارودي ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد نديم قادة التفكير والقلم في هذه الثورة، واستأنفت الحركة الفكرية سيرها الذي قطعته الحوادث، وبدت طلائع نهضة جديدة في الآداب العربية، وظهر في الإنتاج الأدبي يومئذ عنصر قوي من الأدب المبتكر، وأخذت في نفس الوقت عناصر الثقافة الجديدة تحدث أثرها في إنتاج الجيل الجديد. ويعود الفضل في ذلك كله إلى الأزهر، وظهرت طائفة من المؤلفات والكتابات القومية التي تحررت من اغلال القديم سواء في اللفظ أو المعنى، وحملت هذه الروح الجديدة في طريقها كل شيء، وغدت أقوى دعامة في صرح النهضة.

قويت الحاجة الى الصحافة وظهر عبد الله نديم بحريدته «التنكيت والتبكيت»، إلا ان النديم ابدل الاسم في آخر لحظة باسم الطائف تيمنا باسم مدينة الطائف في الحجاز، وبالنسبة إلى انها تطوف بأرجاء الدنيا، كما كانت «الجواكب» التي يصدرها أحمد فارس الشدياق باستامبول تجوب أرجاء العالم. واتخذ رجال الثورة «الطائف» لسان حالهم، فكانت تذيع المنشورات والأوامر وتحض على الجهاد، وكانت تطبع من داخل معسكر كفر الدوار.

والى جانب الطائف صدرت عدة صحف للثورة منها: المفيد للسيد أمين الشمسي والزمان، والاعتدال وغيرها

وقام الشعراء في القاهرة وفي الإسكندرية يلقون الأشعار الحماسية

والقصائد الوطنية، فمن ذلك ما نظمه أحد علماء الأزهر من قصيدة مطولة له يقول فيها:

لعمــرك ليس ذا وقت التصــابي   ولا وقت السمــاع على الشــراب
ولا وقت الجلوس على القهـاوي   ولا وقــت التـغــافـل والتـغــابي
ولا وقــت التـشبـب في سـليمـى   ولا وقت التشــاغـل بــالـربــاب
ولـكــن ذا زمــان الـجــد وافـي   وذا وقــت الـفـتــوة والـشـبــاب
ووقت فيــه الاسـتعــداد فــرض   إقــامــة بــالقــلاع وبــالـطوابي
ووقت فيــه الاسـتعــداد فــرض   لـتنـفـيــذ الأوامــر مــن عــرابي
وقــولـوا يــا عــرابي دم رئيســاً   لحـزب النصـر محفـوظ الجنـاب

ومن قصيدة أخرى لشاعر آخر جاء فيها:

نــوال المعــالي طعــان الـكتــائـب   ونيــل الأمــاني من ثمــار المتــاعب
وظهــر الأعــادي بــالتــدبــر أولاً   وبعـد بإشهــار السيـوف القـواضب
ومن كعــرابي في البــرايــا وحـزبــه   أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وقام الخطباء يحضون الشعب على مقاومة أعداء الدستور، والأخذ بناصر زعماء الثورة، وكان عبد الله نديم خطيب الثورة لا يفتأ يخطب في كل ناد ومجتمع ومسجد، فمن ذلك خطبته التي خاطب بها جنود الجيش:

حماة البلاد وفرسانها. من قرأ التاريخ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل، عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف، وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سـابق، ولا يلحقكم في إدراكهـا لاحق ألا وهي حمـايـة البــلاد وحفظ العبـاد وكف يد الاستبداد عنهما، فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا، ويفاخر بأثركم الآتي من أبنائنا فقد حبا الله الوطن بحياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي، فإن الأمة جسد والجند روح، ولا حياة للجسم بلا روح، وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم.

وكانت خطبة الجمعة في المساجد تحض على الجهاد، فمن ذلك

خطبـة الشيخ على المليجي في مسجد أسيوط حيث كان يحض المصلين على الغزو والجهاد والتطوع في سبيل نصرة الجيش، إذ قال:

إن الانجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنـوا الضروريات، فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها. وقابلوا عيشنا بخداع، وفتشوا أكتافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان. وفينا لهم بعقد الذمة والأمان. فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعـزعة منـا ولا اضطراب. وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء.

وقد بذل العلماء جهوداً كبيرة، في سبيل الدفاع القومي، فدعوا إلى التطوع في صفوف الجيش المصري وإمداده بالمؤن والتبرعات. وكان من أبرزهم الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن العدوي، والسيد عبد الله النديم الذي كان لسان الثورة الناطق والذي كان يستدعى للخطابة بالبرق، حتى لقب بخطيب الثورة، بل (خطيب الشرق).

وبعد انتهاء الثورة العرابية قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا للمحاكمة وهذا بيان بالعلماء الذين قبض عليهم والأحكام التي صدرت ضدهم، وأمام كل منهم اسم البلد التي اختارها لمنفاه[1]:

الشيخ عبد الرحمن عليش، وقد نفى خمس سنوات خارج القطر المصري بالآستانة.

الشيخ عبد القادر قاضي مديرية القليوبية، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري ببيروت.

---

(١) الثورة العرابية الرافعي صفحة (٩٤٠) وما بعدها

الشيخ محمد الهجرسي، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري بمكة المكرمة.

الشيخ أحمد عبد الجواد القاياتي، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري ببيروت.

الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري ببيروت.

الشيخ يوسف شرابة، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري بغزة.

الشيخ محمد عبده، وقد نفى أربع سنوات خارج القطر المصري ببيروت.

هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف.

وحكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم:

الشيخ حسن العدوي وابنه الشيخ أحمد العدوي - الشيخ أحمد المنصوري - الشيخ محمد السملوطي - الشيخ أحمد البصري - الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوي العضو الأول بالمحكمة الشرعية - الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضي إسنا سابقاً - الشيخ محمد أبو عائشة قاضي بور سعيد سابقاً - الشيخ علي الجمال نقيب الأشراف بدمياط - الشيخ أحمد عبد الغني - الشيخ محمد عسكر - الشيخ أحمد مروان - الشيخ محمد جبر قاضي المنصورة سابقاً - الشيخ عبد البر الرملي قاضي العريش سابقاً - الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقاً - الشيخ محمد غزالي قاضي مركز البحيرة.

وقد استدعى الشيخ حسن العدوى من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء (١٤ محرم سنة ١٣٠٠ - ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢)، فنطق بالحق غير هياب

ولا وجل، ولا مكترث بالحكم الذي سيصدر عليه، ونقتبس هنا طرفا من محاكمته: سئل رحمه الله تعالى: هل ختم على عزل الخديوي وإسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى عرابي باشا برغبته ورضاه، أم لسبب آخر؟. فأجاب «ختمت تابعاً للعلماء الذين ختموا قبلي مثل شيخ الإسلام ومفتي الجامع الأزهر وشيخ الجامع وغيرهم، وكان ختمي برغبتي ورضائي للمدافعة الواجبة شرعاً وسياسة، وما كان ينبغي لأحد أن يمتنع عن الختم. ولما سئل: هل علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديو فهل هذا حقيقة أم لا؟ أجاب: بأنه: لم تصدر مني فتوى في ذلك، ولم أسأل في هذه المادة. ومع ذلك فإن جئتموني الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإني أوقعه، وما في وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن.

وقد وقفنا على قصيدة لحضرة الفاضل الشيخ محمد النجار جمعت ما جمعت من وصف الحال في الثورة العرابية، والدعاء لاستنهاض الهمم واستثارة الحمية، وجاء فيها:

بالنصر قد جاء الكتاب مشيرا ... وبه أتى هادى الأنام بشيرا
يا أحمد المرجو لمصر ومن غدا ... فينا أمينا للجيوش أميرا
بشراك بالنصر المبين فثق به ... وكفى بربك هاديا ونصيرا
فازحف بجيشك يا مظفر ضاربا ... في الإنجليز وقاتلن سيمورا
واقطع بسيفك أمة قد أمروا ... أنثى عليهم إذ عدمن ذكورا
قوم تربوا في الثلوج فطبعهم ... يهوى البرود ولا يطيق حرورا
يا يوم قد خرجوا وجر وبورهم ... رمما وجرحاهم تمج بحورا
رجعوا ويوم السبت مبغوض لهم ... إذ لم يروا في يوم سبت نورا
قد أحرقوا قتلاهم من ظلمهم ... حتى لقد ظلموا بذاك سعيرا
ضربوا مدافع حزنهم أسفا على ... من مات منهم خاسئا وحسيرا
ندبوا رؤوسهم وقد هلكوا وما ... بالبحر إلا من رأيت صغيرا
كتبوا لسيدة لهم أن جهزي ... غنما لعيد المسلمين كثيرا

وتغيبوا عنا زمانا وانثنوا ... مثل الفراش فدمروا تدميرا
يا إنجليز ومن ينادي ميتا ... يخطى وكيف أخاطب المقبورا
بالثغر جئتم بغتة وضربتمو ... من غير وعد أولا وأخيرا
واسكندرية قد ضربتم دورها ... ما الحرب ضربكم البنا والدورا
ما عندنا إلا رجال ذكرهم ... يسمو على مر الزمان دهورا
ما عندنا الا أسود عساكر ... وقفت لتنحر بالسيوف نحورا
أنسيتمو أرضا حبتكم ثروة ... وسكنتموها جنة وقصورا؟
ورأيتم فيها رجالا أمرهم ... في حفظهم لكم غدا مشهورا
أنسيتم أرضا دخلتم روضها ... وجنيتم ثمرا به وزهورا؟
ذوقوا رصاصاً من بنادق هيئة، ... لكم لتشرح في الصدور صدورا
وخذوا مدافع بالقنابل أرسلت ... لكم لتأخذ جسمكم وتطيرا
هذا جزاؤكم على كفرانكم ... نعما، ولا يرضى الإله كفورا
نحن الألى كنا نياما حيث لا ... عدل وكان أميرنا مأمورا
نمنا كأهل الكهف دهرا ليتنا ... قد كان حافظ أمرنا قطميرا
نحن الألى كنا ضعافا حيث لا ... شرع وكان كتابنا مهجورا
حتى فقدنا قوة العرب الألى ... فتحوا البلاد وأحسنوا التدبيرا
واليوم نبهنا الزمان وجاءنا ... حامي حمى القطر السعيد مجيرا
ياطالما كذبت جرائدكم على ... أولاد مصر واقترفتم زورا
وبعثتم أولادكم ونساءكم ... وسقيتم أهل الفساد خمورا
كنا ضعافا حيث لا حرية ... فينا ولم نعرف لذاك غيورا
واليوم قام لأحمد الجيش الذي ... وافى وأصبح جيشه منصورا
وأتته من أهل البلاد إعانة ... وعساكر ضربوا لذاك نفيرا
عرب التقى أهل التقى من خيلهم ... سبقت لتنزل في العدو صقورا
وعساكر هجموا أسود في الوغي ... ولدى اصطفاف الصف صاروا سورا
ورجال دين حيث قد خافوا على ... ذرية من بعدهم تكفيرا
خافوا على أعراضهم من أمة ... خانت وكم فضحت وفضت حورا
خافوا على أوطانهم وبلادهم ... خافوا على جعل الغنى فقيرا

خافوا على جعل المساجد مربطا   للخيل أو جعل الرجال حميرا
خافوا على الكتب التي قد دونت   ولكم حوت علما يزيدك نورا
خافوا على آل الرسول وبيته   والله فضلهم عليك كثيرا
خافوا على الدين القويم وأهله   من أشبهوا في الاهتداء بدورا
خافوا على مفتاح بيت الله   والبقع التي قد طهرت تطهيرا
خافوا على ترك الفروض وقطعنا   جهر الأذان وهجرنا التكبيرا
يا مسلمون استبشروا فعدوكم   ولي ، وأصبح جيشه مكسورا
ولسوف يغلو قدركم ومقامكم   يعلو وامركم يكون شهيرا
يا أيها الشجعان هذا وقتكم   فأروا العدا عزما لكم مشهورا
ان الحياة مع المذلة موتة   وبها نرى عذب المذاق مريرا
كونوا كما انتم عليه وجاهدوا   حق الجهاد وحاذروا التأخيرا
بيضتم صحف التواريخ التي   فاحت بذكركم الزكي عبيرا
لا كان أخذ الانكليز بلادنا   أبدا ولا قد كان ذا مقدورا
والله لو رحنا جميعا ما نرى   تسليمنا تلك البلاد يسيرا
أرض سقيناها دموع عيوننا   وبها جرى النيل السعيد غزيرا
أرض عليها استشهدت أجدادنا   فعلام لا يرث الصغير كبيرا؟
إن عاش منا واحد يا سعده   أو مات لاقى جنة وحريرا
وطن بأيدينا زرعنا أرضه   فغدا نضيرا ينبت الاكسيرا
يا آل مصر ألا فقووا عزمكم   واستغنموا بيد الجهاد أجورا
يا آل مصر ألا أعينوا جيشكم   إذ قام يحفظ بالدفاع ثغورا
إذ قام يحفظ أرضكم وبلادكم   ونساءكم وصغيركم وكبيرا
يا آل مصر ألا اتركوا من عضدوا   قوما لقد خانوا فكانوا بورا
هم خائنو الوطن الذي شبوا به   وفقيرهم منه لقى تنكيرا
هم خائنو الرتب التي قد نقصت   بهم فكانوا للعباد شرورا
آل النفاق علام تبغون العدا   ألكم بهم نسب غدا مستورا؟
أم أنهم لا كنتم أحبابكم   ولديهم صار اسمكم مسطورا
في بورسعيد وغيره قد خنتم   وفعلتم للانجليز أمورا

بـور لكم، وسعيـد طـالـع وقتنـا ولكم بـذا يـوم يكـون عسيـرا
من لم يكن فيـه لمسقط رأسـه خيـر رأى في غيـره التحقيـرا
سأرى بسعد الفـال شعرى نـاطقا ولـرب أشعـار تكـون ثـبـورا
عمـا قريب سـوف يظفـر جيشنـا ويجى عـرابينـا لنـا مسـرورا
ونرى الألى حملوا لواء النصر في حفظ البـلاد وأنجـزوا المـأمـورا
ويسـرنـا تقبيـل مسـك وجـوههم فلقـد بنوا لحمى الشـريعة سـورا
ونـرى بهـذا القـطر أعـظم زينة فـرحـا بمـا قـد نـالـه وسـرورا
ونـرى لمصـر سعـادة أبـديـة ويكـون من فيهـا بـذاك فخـورا
وتكـون للسـلطان أعـظم قـوة ولهـا يكـون معضـدا وظـهيـرا

وهي صورة للشعر الوطني في الثورة القومية الوطنية التي قام بها عرابي وإخوانه.

قوانين الأزهر

ومنذ عام ١٨٧٢ م (١٢٨٨ هـ) وضعت للأزهر عدة قوانين لتنظيمه وإصلاحه من أهمها:

١ ـ قانون بتنفيذ قانون التدريس ـ ٣ من فبراير ١٨٧٣ .

٢ ـ قانون امتحان من يريد التدريس بالجامع الأزهر ـ ٢٤ من مارس ١٨٨٥ .

٣ ـ قرار بضبط عدد أهل الجامع الأزهر ـ ١٥ اكتوبر ١٨٨٥

٤ ـ قانون بامتحان التدريس ـ ١٩ يناير ١٨٨٨ .

٥ ـ قانون بتشكيل مجلس إدارة الأزهر ـ ٣ يناير ١٨٩٥ .

٦ ـ قانون بامتحان من يريد التدريس في الأزهر ـ ١٧ يناير ١٨٩٥ .

٧ ـ قانون صرف المرتبات بالأزهر ـ ٢٩ يونيو ١٨٩٥ .

٨ ـ قانون كساوي التشريفة العلمية ـ أول فبراير ١٨٩٦ .

٩ ـ قانون الجامع الأزهر ـ ٨ محرم ١٣١٤ ـ أول يوليو ١٨٩٦ .

الفصل الثاني

بعد الثورة العرابية

واصل الأزهر سيره العلمي بعد الثورة، وعني الإمام محمد عبده والمصلحون من علماء الأزهر بالدعوة الى تجديد الدراسة في أروقة الأزهر ومعاهده.

وقد صدر عام ١٣٢٩ هـ، ١٩١١ م قانون بإصلاح الأزهر الشريف، كان له أثره الكبير في حياته العلمية، وجاء في المادة الأولى منه أن الجامع الأزهر هو المعهد الديني العلمي الإسلامي الأكبر: والمعاهد الاخرى هي: معهد مدينة الإسكندرية: معهد مدينة طنطا: معهد مدينة دسوق: معهد مدينة دمياط.. وكل معهد يؤسس في القطر المصري بإرادة سنية، وكذا كل معهد أهلي يتقرر إلحاقه بالجامع الأزهر أو بأحد المعاهد الأخرى بالشروط والأوضاع التي تبين في لائحة يضعها المجلس الأعلى ويصدق عليها بإرادة سنية.

وجاء في المادة الثانية أن الغرض من الجامع الازهر والمعاهد الأخرى هو القيام على حفظ الشريعة الغراء وفهم علومها ونشرها على وجه يفيد الأمة وتخريج علماء يوكل إليهم أمر التعاليم الدينية ويلون الوظائف الشرعية في مصالح الأمة ويرشدونها إلى طرق السعادة.

وفي المادة الثالثة تكون مدرسة القضاء الشرعي قسما ملحقاً بالجامع الازهر وتبقى حافظة لنظامها المقرر لها في قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٧، ويحل مجلس الأزهر الأعلى محل ناظر المعارف العمومية في جميع

الاختصاصات التي له الآن بمقتضى القانون المشار اليه وتفصل ميزانية المدرسة عن نظارة المعارف ويخصص لها باب مستقل في ميزانية الحكومة العمومية، وتجرى عليها الأحكام المتعلقة بها ويبقى موظفو المدرسة من مستخدمي الحكومة.

وفي المادةالرابعة: أن شيخ الجامع الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين والرئيس العام للتعليم فيه وفي المعاهد الأخرى والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى من ينتمي لجميع المعاهد من أهل العلم وحملة القرآن الشريف وكذا من كان من أهل العلم وحملة القرآن الشريف من غير المصريين.

وفي المادة الخامسة: أن شيخ الجامع الازهر بصفته رئيس المجلس الأعلى هو المنفذ الفعلي العام لجميع القوانين واللوائح والقرارات المختصة بالجامع الأزهر والمعاهد الاخرى. وأرباب الوظائف في جميع المعاهد تابعون بهذه الصفة وخاضعون لأوامره، طبقاً لما هو مقرر في هذا القانون.

وفي المادة السادسة: يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة بالجامع الأزهر شيخ، وكذا يكون لكل معهد من المعاهد الأخرى. ويجوز عند الاقتضاء تعيين وكلاء للجامع الازهر ولباقي المعاهد، ويكون لهم جميع الاختصاصات التي للمشايخ في حال غيابهم الرسمي.

وفي المادة الثامنة والتاسعة: يكون بالجامع الأزهر مجلس يسمى مجلس الأزهر الأعلى. وتنشأ مجالس إدارة للأزهر ولمعهد الإسكندرية وطنطا. ويؤلف مجلس الأزهر الأعلى من شيخ الجامع الأزهر بصفة رئيس ومن ثمانية أعضاء هم: شيخ السادة الحنفية، شيخ السادة المالكية، شيخ السادة الشافعية، شيخ السادة الحنابلة - مدير عموم الأوقاف المصرية - ثلاثة ممن يكون في وجودهم بالمجلس فائدة لترقية التعليم وحسن انتظام إدارته بشرط أن يكونوا من الحائزين للصفات الملائمة لحالة الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى،

ويكـون تعيينهم بإرادة سنيـة بناء عـلى قرار من مجلس النـظار وفي غياب شيـخ الجامع الأزهر ينوب عنه في الرياسة شيخ السادة الحنفية.

وفي المادة العاشرة يختص مجلس الأزهر الأعلى بما يأتي:

أولاً - وضع الميزانية العمومية للجامع الأزهر والمعاهد الأخرى.

ثانياً - النظر في إنشاء المعاهد الدينية العلميـة الإسلامية وإلحاق بعض المعاهد الصغرى بالتي هي أكبر منها أو تغيير تبعيتها.

ثالثاً - النظر في فصل المعاهد من تبعية غيرها وجعلها تابعة للجامع الأزهر مباشرة.

رابعاً - النظر في إنشاء مجالس إدارة للمعاهد التي ليس لها مجلس إدارة.

خامساً - وضع النظم العامة للتدريس والامتحانات.

سادساً - التصديق على تقرير الكتب التي تدرس بالجامع الأزهر والمعاهد الأخرى.

سابعاً - النظر في ترشيح مشايخ المعاهد الأخرى والوكلاء وترقيتهم ونقلهم وفصلهم.

ثامناً - النظر في ترشيح مجالس الإدارة.

تاسعاً - التصديق على ما تقرره مجالس الإدارة من تعيين المدرسين والموظفين وترقيتهم ونقلهم وفصلهم.

عاشراً - النظر في منح كساوي التشريف العلمية لمستحقيها بنـاء على قرارات مجالس الإدارة.

وقد نصت مواد القانون على أن مجلس الأزهر ينعقد بالجامع الأزهر مرة في كل شهر على الأقل بدعوة من الرئيس، ولشيخ الجامع عقده أكثر من ذلك إن دعا الحال.

وإن قرارات مجلس الأزهر الأعلى تكون بأغلبية الآراء، وإن استوى الفريقان فالأرجحية للفريق الذي فيه الرئيس، ولا تصح مداولته إلا إذا حضر الجلسة ستة من الأعضاء سوى الرئيس.

وفي المادة الثانية بعد المائة وما بعدها: يكون بالجامع الأزهر ثلاثون عالما اختصاصيا، لكل واحد منهم بالازهر كرسى خاص في المحل الذي يخصص للتدريس العام بمعرفة شيخ الجامع الأزهر ويجوز أن يوجد البعض منهم في المعاهد الأخرى بصفة شيخ المعهد أو وكيله.

ويطلق على العلماء الثلاثين المذكورين في المادة السابقة اسم هيئة كبار العلماء.

ويشترط فيمن ينتخب ضمن هيئة كبار العلماء:

أولاً ـ أن لا يكون سنة أقل من خمس وأربعين سنة.

ثانياً ـ أن يكون قد مضى عليه وهو مدرس في الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى عشر سنين على الأقل منها أربع على الأقل في القسم العالي.

ثالثاً ـ أن يكون قد ألف كتاباً في أحد العلوم الإسلامية، وأن يكون قد منح الجائزة العلمية المنصوص عليها في المادة الثانية والعشرين بعد المائة في هذا القانون

رابعاً ـ أن يكون معروفاً بالورع والتقوى وليس في ماضيه ما يشين سمعته.

الفصل الثالث

الأزهر والحركة الوطنية عام ١٩١٩

فجأة وعلى غير تدبير سابق نهضت مصر نهضتها الكبرى عام ١٩١٩. كما تضيء في الحفلة الرحبة الجوانب مئات الثريات الكهربائية بحركة لينة من أصبعك. ومرد هذه اليقظة الشاملة شعور مصر في كل حين أن حقها سليب وحريتها منتهبة، واستقلالها مفقود، وإنما تحتاج النهضات الأخر الى تدبير سابق يسلخ من العمر سنوات في غير النهوض للحرية والاستقلال. أما والمصريون أحياء يحسون ويشعرون، والإنجليز أمامهم في مظهر السيادة والتملك، فلم يحتج الأمر إلى تدبير مبيت في الخفاء، إلا أن يهتف هاتف: أيها المصريون هذا يوم الخلاص، ليدوى الصوت في أفق مصر ويستجيب له صائد الأسماك في بحيرة رشيد، كما يستجيب له القابض على يد المحراث في وادي حلفا.

خرجت مصر كلها... كلها حقا، تطلب الحرية وتنشد الاستقلال، وتدفقت قوة الشباب في جسوم الشيوخ، وجرت البطولة في أبدان الشباب، وتفتحت البطولة في روح الأطفال والغلمان، واحتوت الشجاعة والحماسة قلوب السيدات قرويات وحضريات، وأصبحت مصر أغرودة الجميع وحرية مصر لحنا يردده كل فم، واستقلال مصر آية مقدسة يرتلها العابدون الخاشعون.

ولقد تجلت كبرياء هذا العهد على الأزهر إذ كان مكانا صالحا للنهوض، وحمل أبناؤه علم الجهاد الشريف الوادع

تيقظ الأزهر دفعة واحدة وتحركت بواعث النخوة والوطنية فيه، كما تحرك كل ما في مصر، وانتظم الجيش المسلح بإيمانه، المعتد بحقه، ورفعت الراية، وأصبح معهد الدين والعلم مستقر النهضة الكبرى ومستودع آياتها، وعلى أبوابه سقط أول شهيد مصري وهو من أبناء الأزهر، احتمل المدفع الرشاش بين يديه. وكان لا يدري ماذا يصنع به، وبينا هو يهم أن يقصيه في مكان ما. إذا بثلاثين رصاصة تخترق جسمه فيخر صريعا!

ولست أستطيع أن أقول شيئاً عن الاجتماعات التي عقدت في الأزهر، فلم يكن منبره يخلو لحظة من خطيب. ولا عن أولئك الرجال الأبطال الذين كانوا يتوسدون أيديهم، ويناموا على أرض ذلك المسجد الفسيح.. ومن المجاهدين من علمائه الزنكلوني، وعبد الباقي سرور، والشيخ أبو العيون وسواهم، ممن اشتدت الحركة الوطنية بفضل ما أفادوه في بعث روح الإقدام والجرأة في نفوس المصريين.

وكان الفقيد الكريم القاياتي يؤوب من المظاهرة في منتصف الليل، فيطوي رداءه تحت رأسه على «حصيرة» في الأزهر وينام حتى الصباح ليخطب في المجتمعين.

أما المظاهرات فحدث عن إقدام الأزهريين ولا حرج، فقد كانت طرقات مصر كلها تغص بهم، وتمتلىء رحابها بإقدامهم، وهم يتراكضون في أنفة وعزة وشموخ إلى غاية المجد، إلى حيث الحرية والاستقلال.

كان كل شيء في هذه النهضة جميلا ساميا، كأننا في جنة من جنان الخلد، وكان الشعور السائد القوى، شعوراً سماوياً، حتى نسينا البغض والحقد والتمرد على الواجب، وأصبح كل فرد يحتضن أخاه المصري كأنهما ولدا في منزل واحد، ويناجيه كأنه وليه الحميم.

في هذا العهد الذي كان يتهم فيه الأزهر بالتعصب وصرامة الرأي، كان هو الذي فتح أبوابه لأبناء الطائفة القبطية محتفلا مرحبا، وكانت هذه الظاهرة العجيبة من أقوى أسباب التضامن الوثيق بين العنصرين.

كذلك اغتبط الأزهريون وفرحوا أن تشترك المصريات في هذه النهضة سافرات ومحجبات، ورأينا القس يعانق الشيخ الأزهري فوق منبر الازهر، كذلك رأينا السيدة المصرية تخطب في هذا المكان المقدس.

ونذكر أن السلطة قررت منع الجمهور من دخول الازهر، وأرصدت على أبوابه طائفة من الجنود المصريين وطائفة من الإنجليز.

وكان من يحضرون إلى الازهر، يلقون أمر المنع، غير أن الوطنية المصرية أبت على الجنود المصريين أن يشتركوا في صد جماهير الأمة عن كعبتها المقدسة، فكانوا يقولون لكل من يفد:

زاوية العميان!

وكانوا يقصدون بهذا القول أن يرشدوا الناس إلى طريق غير معروف لدخول الأزهر، فلقن الجنود الإنجليز هذا التعبير العربي، وجعلوا يقولون لكل من يفد:

زاوية العميان!

وبذلك اشتركوا مرغمين في أن تعقد الاجتماعات في الأزهر بدعوة منهم وهم لا يعلمون.

كذلك أتقن الطلاب فن التنكر والتخفى، فقد حرم دخول «الأفندية» الى الأزهر، غير أن هذا جعل الشبان يتنكرون في أزياء الشيوخ المعممين من شتى الأقطار، فهذا مراكشي وذاك تركي وثالث حجازي ورابع هندي وخامس جاوي. وهكذا ولكنهم أخيراً كانوا يخرجون في زيهم الحقيقي زي «الأفندية»، فكان الجنود الإنجليز يتغيظون ويشتمون.

الأزهر بعد الثورة المصرية

في سنة ١٩٢٣م أنشىء قسم للتخصص في العلوم الأزهرية بعد الحصول على الشهادة العالمية ليستزيد العالم تمكنا من مادته، واقتدارا على أداء مهمته، فأنشىء هذا القسم من بضعة شعب. وكانت شعبة الفقة

والأصول إحدى هذه الشعب، وهي تعد خريجها لتولي وظائف القضاء الشرعي في الدولة، وقد مهدت لإلغاء مدرسة القضاء الشرعي فيما بعد، واستعيدت حقوق الأزهريين في شغل هذه الوظائف بعد أن سلبت منهم حقبة طويلة. . وعنى بالتوسع في دراسة العلوم الحديثة في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية على غرار ما يدرس منها في المدارس الأخرى.

وأنشىء لهذه العلوم تفتيش مستقل بإدارة المعاهد، وزودت المعاهد بالمعامل اللازمة لدراستها، وعين كثير من العلماء ممن تميز في هذه المواد لتدريسها، وقد عدلت هذه البرامج فيما بعد بما يتفق ومكانها من العلوم الدينية، وتم إنشاء القسم الثانوي لمعهد أسيوط وكان ابتدائيا، ثم إنشاء معهد الزقازيق.

وظل الأزهر يخطو نحو غايته مسرعا إذ وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر مذكرته في إصلاح الازهر، تلك المذكرة التي تعتبر دستور الازهر الحديث، وكل ما يلهج به دعاة الإصلاح بعدها فهو مقتبس منها أو مستمد من مبادئها وروحها، فقانونا سنتي ١٩٣٠، ١٩٣٦ هما في الحقيقة قانون واحد صيغا من مبادئها وفصلا إجمالها، وبهذين القانونين على الأصح انتقل الأزهر من حال الاضطراب الثقافي إلى حال الاستقرار النهائي، ومن حال العزلة التي نكرها على نفسه وأنكرها الناس منه إلى حال المشاركة في شؤون الأمة العامة، فقد جعلت العالم الأزهري عضوا حيا في أمته يفيد منها وتفيد منه، ورسمت له غايته والوسائل التي تعينه على أدائها، وشمل القانون الذي استمد منها نواحي إصلاحية كثيرة، والذي يعنينا منها هنا الناحيتان العلمية والمالية.

أما الناحية العلمية فأهمها تقسيم الدراسة العالية لأول مرة في تاريخ الأزهر إلى ثلاثة أقسام، يعد كل قسم منها خريجيه لمهنة خاصة بعد إعداده لهذه المهنة إعدادا فنيا في أقسام أخرى تلى هذه الأقسام تسمى «أقسام التخصص في المهنة».

وأنشيء لمجموع هذه الأقسام كليات ثلاث - وهي كلية الشريعة، وكلية اللغة العربية، وكلية أصول الدين - على أن يلي خريجو هذه الكليات المهن التي تليق بمؤهلاتهم بعد تخصصهم فيها، فيلي خريجو كلية أصول الدين وظائف الوعظ والإرشاد، وخريجو كلية الشريعة وظائف القضاء الشرعي، وخريجو كلية اللغة العربية وظائف التدريس في المدارس الأميرية والحرة.

وقد ألحق بهذه الكليات أقسام للتخصص في المادة، وهي أقسام علمية ممتازة قصد منها إعداد بعض العلماء إعدادا ممتازا، بعد دراسة عميقة ليمكنهم القيام بوظائف التدريس في الكليات.

والإعداد خريجي هذه الكليات إعدادا صحيحا أدخل في مناهج الدراسة فيها لأول مرة في تاريخ الازهر أيضاً مجموعة من العلوم التي تتصل بمهمتهم، فأدخل في مناهجها فقه اللغة وعلم النفس وعلوم التربية والفلسفة وتاريخ الأديان ودراسة الفرق الإسلامية، وأصول القوانين والاقتصاد السياسي، والنظام الدستوري، كما أدخل فيها دراسة بعض اللغات الغربية والشرقية.

ومما تضمنه القانون إنشاء معاهد للاستماع خاصة في بعض المدن لا تتقيد بقيود المعاهد النظامية، والغرض منها سد حاجة من يريد معرفة أحكام الدين واللغة العربية من جمهرة الأمة، على أن يتبع فيها طريقة التدريس التقليدية في الأزهر، ويكون مقرها في المساجد.

وأما الناحية المالية وأعني بها الحقوق التي ظفر بها خريجو الأزهر بمقتضى هذا القانون، فأهمها أنه ألغى مدرسة القضاء الشرعي، فأصبحت وظائفه خالصة لخريجي كلية الشريعة دون غيرهم، وجعل من حق خريجي كلية اللغة العربية التدريس في مدارس الحكومة والمدارس الحرة وكانت محجورة عليهم قبل ذلك، وجعل من حق خريجي كلية أصول الدين شغل وظائف الوعظ والإرشاد التي أنشئت قبيل صدور القانون، والتي لم تزل

تنمو حتى أصبحت لها إدارة خاصة، وبلغ عدد الوعاظ الذين تشرف عليهم هذه الإدارة نحو ٢٥٠ واعظاً يؤدون للأمة أجل الخدمات في إصلاح الأمن وتهذيب النفوس. ويقضينا الإنصاف أن نشير هنا إلى فضل المغفور له محمد محمود في إنشاء قسم الوعظ، فقد أشار عليه الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر سنة ١٩٢٨م بتعيين عدد من العلماء في وظائف الوعظ بوزارة الداخلية لإصلاح حال الأمن من طريق نشر تعاليم الدين، فاستجاب لهذه الإشارة بعد استحسانها من لدن الرأي العام في الأمة، وعين خمسين واعظاً في الوجه البحري. وبعد تعيينهم ببضعة أشهر نقلوا بميزانيتهم إلى الأزهر، فكانوا نواة هذا القسم الكبير. وقد كفل القانون لخريجي الكليات حقوقاً أخرى في وظائف الدولة، ليس هـذا موضـع تفصيلها. وبهـاتين الناحيتين من الإصلاح العلمي والمادي اللتين شملهما القانون المستمد من المذكرة المشار إليها فيما سبق تقاربت مسافة الخلف بين خريجي الأزهر وخريجي المعاهد الأخرى وطوائف الأمة عامة، وتجدد نشاط الأزهر في أداء رسالته، وأحست الأمة بأن له مكانا في خدمتها، وأنه يأخذ منها ويعطيها. ولما كانت الكليات الأزهرية والتي تضمنها القانون في حاجة إلى اماكن للدراسة، لذلك بدىء بإنشاء هذه الأماكن في مدينة أزهرية خاصة واسعة الأرجاء حول الجامع الأزهر، لا تقصر عليها بل تتسع لها ولأماكن لمعهد القاهرة ولمساكن الطلاب وللإدارة العامة للأزهر ولمستشفى أزهري خاص، وتسع عدا هذه الأبنية بناء للمكتبة الأزهرية وما يلحق بها من المطابع وقاعة للاحتفالات العامة تسع ألفين من النظارة، ووضع تصميم هذه المباني وفتح لها في الميزانية العامة سنة ١٩٢٩م اعتماد مالي بمبلغ يقرب من ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات، وبدىء في تنفيذها إذ ذاك بالفعل، وفكر المراغي سنة ١٩٢٨م في إرسال بعثات أزهرية دراسية إلى بعض الجامعات الأوربية ليكون أعضاؤ ها دعـاة إلى االإسلام كمـا كان أسلافهم، وليفيدوا من ثقافة هذه الجامعات المتجددة ما يتصل بمهمتهم ويسدوا حاجة الأزهر إلى تدريس المواد التي اقترح إدخالها ضمن برامج الدراسة في المذكرة المشار اليها. وفي سنة ١٩٣٦م سافرت هذه البعثات

إلى انجلترا وفرنسا وألمانيا في جو من الغبطة والحذر، وكان في ذلك أحياء لمجد الأزهر، وقام شيخ الجامع الأزهر بتوديع هذه البعثات بنفسه في حفل من العلماء والطلاب، وألقى فيهم خطاباً رسم فيه الغاية من إرسالهم، وصور الجو الذي أحاط بهذه الفكرة فقال: «أرسلكم الأزهر وقلبه يخفق، وأنا واثق من أنكم ستكونون بهديكم وبقولكم وعملكم ومحبتكم أحسن الأمثلة لخريجي الأزهر الشريف». وقال: أنتم في البلاد التي ستقيمون فيها مرشدون أولا وتلاميذ ثانيا ولا يعفيكم واجبكم الثاني من واجبكم الأول هو في الحق المقصد الأسمي من هجرتكم».. ولتمكين الأزهر من أداء رسالته بكل ما يمكن من الوسائل فكر الشيخ الظواهري في إنشاء مجلة خاصة بالأزهر تكون صوته الرسمي يدوى في مصر والأقطار الاسلامية، وتكون مجالاً للنشاط العلمي لعلمائه وطلابه، «وتعمل على نشر آداب الإسلام، وإظهار حقائقة خالصة من كل لبس وتكشف عما ألصق بالدين من بدع ومحدثات وتنبه إلى ما دُسّ في السنة من أحاديث موضوعة، وتدفع الشبهة التي يحوم بها مرضى القلوب»، وابتدأ صدورها سنة ١٩٣٠م وأنشىء لها ولمطبوعات الأزهر والمعاهد مطبعة خاصة كاملة الأدوات تسد الآن حاجة المجلة والكليات والمعاهد من جميع المطبوعات.

وفي يوم الثلاثاء ٢ من ذي الحجة سنة ١٣٥١هـ ـ ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ احتفل رسميا بافتتاح كلية أصول الدين. وفي يوم الأربعاء التالي له احتفل كذلك رسمياً بافتتاح كليتي الشريعة واللغة، وجاء في كلمة شيخ الأزهر إبان ذاك، الشيخ محمد الاحمدي الظواهري التي ألقاها في هذه المناسبة بحضور رجالات الدولة:

«صدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وافيا بهذه الأغراض السامية، مع المحافظة على صبغة الأزهر الدينية والعربية. وكان من أكبر مزاياه إنشاء كليات: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية، وجعل أبوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم. واستدراك ما كان

في القوانين السابقة من نقص في مواد التعليم على اختلاف مراحله، فقد جعل من مواد الدراسة في الكليات: تاريخ التشريع الإسلامي، ومقارنة المذاهب، وفن الحديث دراية، وآداب اللغة العربية وتاريخها، وفقه اللغة، وتاريخ الأمم الإسلامية، وعلم النفس، والفلسفة، مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها، وغير ذلك من المواد التي لم تكن تدرس في القسم العالي من الأزهر الشريف.

ولما كان التخصص في العلوم هو الطريقة المنتجة التي جرى عليها علماء الاسلام في أوائل العصور، وإليها يرجع الفضل في تقدم العلوم وارتقائها قديماً وحديثاً، نص هذا القانون على إنشاء أقسام للتخصص في المواد التي تعني بها الكليات، للتبحر فيها، وعلى منح المتخرجين منها شهادة العالمية مع لقب أستاذ، وعلى جعلهم أهلاً لشغل كراسي الأستاذية في الكليات، كما نص على إنشاء أقسام للتخصص في التدريس والقضاء الشرعي والوعظ والإرشاد، يكون متخرجوها أهلا للتدريس في مدارس الحكومة والمعاهد وتولي الوظائف الشرعية والدينية في الدولة.

وإذا كانت كليات الأزهر ستكون في دور خاصة في حيِّه وبجواره، فإن نفس الجامع الأزهر سيكون معمورا بالدروس على اختلاف أنواعها، مفتح الأبواب لقاصديه، من المسلمين على اختلاف طبقاتهم، غير مقصور على إقامة الصلاة.

ولقد كان لصدور هذا القانون وانتشار أنبائه وقع حسن عظيم في نفوس المسلمين في عامة الأقطار، وقد إبتدأت البعثات تتوارد وتتتابع: من الصين وبولونيا وألبانيا، والهند، وغيرها، للاغتراف من هذا المنهل العذب. وأخذت الجامعات الكبرى تتصل بالأزهر الشريف، وكان منها جامعة غرناطة، التي لبى الأزهر الشريف دعوتها إلى الاحتفال بمرور القرن الرابع على تأسيسها».

الفصل الرابع

الثورة المصرية الثالثة والأزهر

وقد قامت الثورة المصرية الوطنية القومية العسكرية الأخيرة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكان للأزهر فضل كبير في قيامها، وتوالت أحداث الثورة، فألف محمد نجيب وزارته الأولى في ٧ سبتمبر ١٩٥٢، ثم وقعت اتفاقية السودان بين مصر وانجلترا في ١٢ فبراير ١٩٥٣، وأعلنت الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣، وألفت وزارة الرئيس جمال عبد الناصر بعد ذلك. وكان الأزهر يقوي من دعائم الثورة، ويدعهم العهد الجديد، الذي ثار على الفساد فحطمه، وعلى الطغيان فهدمه، ولا يزال الأزهر يبارك مبادىء الثورة، ويدعو للإيمان بها.

ومنذ بدء الثورة تولى منصب مشيخة الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين، ثم الشيخ عبد الرحمن تاج.

ويرجى للأزهر أن يصطبغ بالصبغة العلمية، وأن يسير قدما في سبيل أداء رسالته الجليلة.

قانون الأزهر الجديد

وصدر قانون تطويره الأزهر في عام ١٣٨١ هـ (١٩٦١م). وهذا القانون هو الذي جعل من الأزهر جامعة دينية علمية شاملة. والذي انتقل بالأزهر إلى مسايرة التطور العلمي في العالم الحديث. محافظا في نفس الوقت على رسالته الدينية السامية والتقاليد القديمة.

وينص القانون على أن الأزهر يشمل الهيئات الآتية:

١ - المجلس الأعلى للأزهر

وهو الهيئة التي تختص بالتوجيه ورسم السياسة العامة لكل ما يحقق أغراض الأزهر في سبيل خدمة الفكرة الإسلامية الشاملة. ويرأس هذا المجلس شيخ الأزهر ويضم أعضاء من كبار العلماء المتخصصين.

٢ - مجمع البحوث الاسلامية

وهو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية. ويقوم بدراسة كل ما يتصل بهذه البحوث. ويعمل على تحديد الثقافة الإسلامية وتنقيتها من الشوائب، والكشف عن جوهرها الأصيل. والعمل على نشر الدعوة الاسلامية. وتنظيم بعوث الأزهر إلى العالم الإسلامي، ومن العالم الاسلامي. ويتكون المجمع من خمسين عضوا من كبار علماء الإسلام، يمثلون جميع المذاهب الإسلامية، ويكون من بينهم عدد لا يزيد عن العشرين من غير مواطني جمهورية مصر العربية ويرأس المجمع شيخ الأزهر. ويكون نصف أعضائه على الاقل متفرغين لعضويته.

٣ - ادارة الثقافة والبعوث الاسلامية

وهي الجهاز الذي يهيىء لمجمع البحوث الإسلامية كل أسباب البحث والدراسة. وبختص بكل ما يتصل بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية من البعوث والدعاة واستقبال طلاب المنح.

٤ - جامعة الأزهر

وتختص بكل ما يتعلق بالتعليم العالي في الأزهر. كما تهتم ببعث التراث العلمي والفكري والروحي للشعوب الاسلامية والعربية. وإعداد بعض العاملين الذين يجمعون إلى جانب التفقه في العقيدة والشريعة ولغة القرآن، كفاية علمية ومهنية تؤهلهم للاشتراك في كل أنواع النشاط والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. وتضم الجامعة كليات

الدراسات الإسلامية (اصول الدين والشريعة والقانون)، وكلية الدراسات العربية، وكلية المعاملات والإدارة، وكلية الهندسة والصناعات، وكلية الزراعة، وكلية الطب، وكلية التربية، وذلك علاوة على كلية البنات الإسلامية والتي فتحت مجالاً جديداً لدخول الفتيات إلى هذه الجامعة العتيدة.

وما أن صدر قانون تطوير الأزهر، حتى بدىء في وضعه موضع التنفيذ.

وفي شهر مارس ١٩٦٤ وضع حجر الأساس لمباني الجامعة الجديدة في مدينة نصر. وقد تم افتتاح مباني بعض الكليات مثل كليات الهندسة، والعلوم، والإدارة والمعاملات، والزراعة، وكلية البنات، ويجرى الآن العمل في إنهاء بقية مباني ومعامل هذه الكليات وتقدر تكاليف هذه المباني بحوالي ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه مصري. وهي مصممة على أحدث الطرز وتضم مدرجات ومعامل حديثة.

وتقع كلية الطب في مستشفى الحسين الجامعي بجوار الجامع الازهر. وهي تضم حالياً ٥٠٠ طالب.

وثورة في الأزهر أيضاً

وجاءت الثورة..

الثورة بكل مبادئها وروحها وقوتها الثورة التي حررت الشعب، ورفعت سمعة الوطن، ونهضت ببلادنا، في شتى مرافقها، وأولت الدين نصيباً من إعزازها وعنايتها.

فكان لا بد أن ينال الأزهر على يديها النصيب الموفور من الإصلاح والتجديد والتطور.

وهنا نلجأ إلى الأرقام..

كانت معاهد الأزهر قبل الثورة عشرين فصارت ٤٥ وكانت ميزانيته مليونين فصارت ٤ ملايين، وفي العام القادم ستصبح ٧ ملايين[١].

ويقول نائب الرئيس الأسبق السيد حسين الشافعي: إنه لا بد أن ينشأ في كل مدينة معهد ديني[٢].

وقد قامت الثورة عام ١٩٥٢ وفي مشيخة الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم، ثم خلفه الشيخ محمد الخضر حسين، فالشيخ عبد الرحمن تاج، فالشيخ محمود شلتوت، فالشيخ حسن مأمون، وغير لقب شيخ الأزهر فصار هذا اللقب هو «الإمام الأكبر»

(١) جريدة الأهرام المصرية في ١٩٦٢/١/١٢ م.

(٢) جريدة الأهرام المصرية في ١٩٦٢/١/٤ م.

ودخل التطور في الأزهر بأوسع نطاق، فأعيدت عام ١٩٥٧ أقسام الدراسات العليا من الأزهر، وأسهم الأزهر في مختلف وجوه النشاط من العالم الإسلامي، وزيدت بعثاته العلمية إلى الدول العربية والإسلامية، واستقبل ألوف الشباب من أبناء العالم العربي والاسلامي ليتثقفوا في معاهده وكلياته على خيرة الأستاذة وليعودوا إلى بلادهم أئمة ومرشدين في شتى علوم الدين والعربية وذهب الشيخ تاج شيخ الأزهر في رحلة إلى باكستان والهند وأندونيسيا، ثم ذهب من بعده الشيخ شلتوت في رحلة إلى الفليبيين والملايو. وفي عهده أنشئت إدارة للبحوث والثقافة الاسلامية.

وجاء دور التنظيم الجديد، تطوير الأزهر فسنَّ جمال عبد الناصر قانون الأزهر، الذي صدر في ١٨ يوليو ١٩٦١، ونص فيه على ما يلي:

١ ـ إنشاء كليات للدراسات الإسلامية، وكلية للدراسات العربية.

٢ ـ إنشاء كليات جديدة للطب والهندسة والزراعة والإدارة والمعاملات في الأزهر.

٣ ـ إطلاق اسم جامعة الأزهر على كلياته الحالية وما يجد من كليات.

٤ ـ انشاء مجلس أعلى لجامعة الأزهر، ومجلس أعلى للأزهر.

٥ ـ انشاء مجلس إسلامي أعلى.

ووضعت مناهج جديدة للمعاهد الأزهرية ولكليات جامعة الأزهر، وصارت اللغات مواد أساسية في جميع سني الدراسة، وكانت هذه المواد من قبل لا تنال عنايتها من المنهج ولا من الدراسة.

هذه هي الثورة الضخمة.. التي دبت في أروقة الأزهر ومعاهده وكلياته، ثورة بانية، تريد إيجاد رجل الدين المثقف الواعي المستنير، وتريد أن يسلح رجل الدين بسلاح العصر القوي المتين.

النوابغ الذين تخرجوا في الأزهر

وقد تخرج في الأزهر في العصر الحديث فريق كبير من عظماء الرجال . فمن الزعماء زعيم مصر المغفور له سعد زغلول ، ومن الأدباء المرحوم علي باشا مبارك وعبد الله فكري باشا ، والسيد رفاعة الطهطاوي ، وحفني ناصف بك ، والشيخ حمزة فتح الله ، ومن المصلحين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده .

وتخرج فيه كثيرون من أمراء الشرق ومجاهديه ، فمنهم السيد الادريسي الذي درس في الأزهر ثم عاد إلى اليمن يعلم البدو أمور دينهم ويحارب الأتراك في سبيل استقلال بلاده حتى تقلص الحكم التركي عن بلاد العرب في ختام الحرب العظمى ، وما زال سلطاناً مستقلا واسع النفوذ حتى لقي حتفه في سنة ١٣٤٠ هـ .

ومنهم السيد صديق حسن خان أمير يهوبال السابق وقد تخرج في الأزهر ، وكان منتسباً لرواق البخارية ثم عاد إلى إمارته فاصلح شؤونها وأقام فيها مجالس العلم حتى توفي في سنة ١٣٢٩ بعد أن رفع شأن بلاده .

ومنهم الشيخ محمد بن عبد الله منلا الصومالي الذي درس في الأزهر ثم رحل إلى الصومال فأخذ يعلم أمور دينهم ويدعوهم إلى طرح نير الاستعباد حتى استطاع أن يؤلف بين قلوب القبائل الصومالية ويحارب الانجليز والإيطاليين والبلجيك والبرتغاليين ويستعمل الحيلة والدهاء في حروبه ، فحطم

جهود الاستعماريين وطرد جيوشهم وما زال في كفاح معهم حتى لقى ربه في سنة ١٣٢٣ هجرية ، فمهد موته الطريق أمام جيوش الاستعمار ، وسقطت الصومال بعده في أيدي الانجليز والإيطاليين .

اختلافا شديدا فستراه على ذلك مؤتلفاً أشد الائتلاف يؤلف بين مختلفات ما تفيض عليه نفس الكاتب الهادئة السمحة الرزينة من هدوء سمح رزين

أشهر رجال الأزهر في أوائل القرن الرابع عشر الهجري

وقد اشتهر في العصر الأخير جلة من العلماء الراحلين كانوا في طليعة الشيوخ البارزين، على طريقة الأزهر القديمة، وقد أدرك البعض زمانهم، وتلقى بعض العلماء عنهم، نذكر منهم:

الشيخ أحمد رفاعي الفيومي. الشيخ أحمد الجيزاوي. الشيخ محمد النجدي. السيد أحمد حنبلي البسيوني. الشيخ عبد القادر الرفاعي، الشيخ محمد عبده، الشيخ عبد الكريم سلمان. الشيخ سليمان العبد. الشيخ أحمد أبو خطوة. الأخوين: الشيخ محمد، والشيخ أحمد عبد الجواد القاياتي[1]. الشيخ حسن الطويل. الشيخ محمد حسنين البولاقي[2]. الشيخ حسين زين المرصفي. الشيخ هرون عبد الرازق[3] الشيخ محمد البيجرمي. الشيخ إبراهيم الظواهري. الشيخ محمد بخيت المطيعي. الشيخ عبد الرحمن البحراوي. الشيخ محمد راضي الكبير. الشيخ محمد رضى البحراوي. الشيخ محمد حسنين العدوى. الشيخ علي البولاقي. الشيخ عبد الغني محمود. الشيخ محمد السمالوطي. الشيخ محمد الحلبي. الشيخ أحمد نصر. الشيخ محمد شاكر. الشيخ دسوقي العربي.

(١) كانا من رجال الثورة العرابية

(٢) هو والد أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي سابقا

(٣) كان مدرسا لمادة الدين بمدرسة الهندسة الملكية قديما

الشيخ عبد الرحمن قراعة. الشيخ يوسف الدجوى. الشيخ عبد الحكم عطا. الشيخ سيد علي المرصفي.

وثمة شخصيات بارزة لها في تاريخ البلاد مكان ملحوظ.

وهؤلاء لم يتموا دراستهم في الجامع الأزهر، وأقبلوا على أعمال أخرى في المحاماة، والقضاء، وفي العلم والأدب والصحافة، نذكر من بينهم: سعد زغلول زعيم مصر السياسي، وإبراهيم الهلباوي المحامي، ومحمد أبو شادي، ومحمد الحسيني المحامي، وحسن جلال، ومحمد صالح المستشارين بالمحاكم الوطنية، وعبد الله نديم خطيب الثورة العرابية والسيد علي يوسف صاحب جريدة المؤيد، ومحمد النجار صاحب جريدة الأرغول والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي، وعبد اللطيف الصوفاني، وغيرهم وغيرهم.

ومن علماء الأزهر المشهورين العالم العلامة الشيخ نافع الجوهري ابن سليمان بن حسن بن مصطفى بن أحمد الخفاجي من بني خفاجة (١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٤م ـ ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م)، وهو جد المؤلف لأمه، ولد في قرية تلبانة من أعمال الدقهلية، وحفظ القرآن الكريم، ونال العالمية من الأزهر عام ١٢٨٣هـ، حيث تتلمذ فيه على جلة العلماء والزاهدين، وأقام ببلدته واعظا زاهدا، ومفتيا مرشدا، ومؤلفاً واسع الشهرة بين أقرانه. حتى مؤلفاته إلى قبل وفاته نحوا من مائة مؤلف، أغلبها في الشريعة والدين والفقه والمواعظ والتصوف وعلوم العربية، وكان شاعراً مجيداً بليغاً مفوها، وأديباً لا يشق له غبار[1].

---

(١) راجع ترجمته في كتابي «بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي ج ٣ و٤».

نظرة إلى المستقبل[١]

إن ما كسبه الأزهر من هذا الانقلاب في مصايره لا يزال رهن الزمن والمستقبل. ومن سبق القول ـ كما يقول عنان ـ أن نتحدث عن مزايا نظام جامعي لم يتمخض بعد عن آثاره، ولكنا نستطيع بالعكس أن نقول أن الأزهر الحديث على الرغم من جميع الجهود التي بذلت لإصلاحه منذ نصف قرن، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهرية، فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التي اقترنت بتاريخه القديم.

فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين في علوم الدين واللغة ممن حفلت بهم حلقاته في أواخر القرن الماضي، وكانوا بقية أخيرة لذلك الجيل القديم، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس، وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضي يأخذ بنصيب بارز في تكوين الزعامة الفكرية والقومية؛ وكان ظهور رجال مثل محمد عبده وسعد زغلول من بين صفوف طلبته، أسطع دليل على أن هذا المعهد التالد لم يفقد خلال عصور الانحلال والتأخر كل حيويته الفكرية، ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفي اليوم.

وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التي كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفاني في التحصيل والدرس، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا، وإيثار التقشف والزهد، على الحياة الناعمة.. وتحول شيوخ الأزهر في ظل النظم الجديد شيئاً فشيئاً إلى نوع

من أرستقراطية رجال الدين، التي تمتاز ببسطة في الرزق والجاه، وتحول طلابه إلى ميدان الصراع المادي في سبيل العيش، والسعي وراء الوظائف ومنازعة أضرابهم من المعاهد الأخرى في الفوز بها. وقد أحدثت هذه الأرستقراطية الاجتماعية، وهذه النزعة في الإقبال على الدنيا، أثراً لا يحمد في جو الأزهر العلمي، وذهبت بكثير من خواصه الروحية القديمة.

ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث على الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصرية، لا يزال بعيداً عن أن يجاري روح العصر فعلا في تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية. فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم، ولا يزال مرجع الدراسة بالكليات الأزهرية الحديثة في علوم الدين واللغة طائفة من الكتب القديمة التي يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى، فالشاطبية، والهداية، والسنوسية، والصبان، وألفية بن مالك، وشرحها لابن عقيل، ومختصر السعد وحواشيه، وكتب ابن حجر، والبلقيني، والسيوطي، والبرماوي، والزماوي، والزيلعي، وغيرها، تدرس في الكليات للطلبة النظاميين، وبعض هذه الكتب يرجع إلى القرن السادس الهجري كالشاطبية، أو السابع مثل مختصر ابن الحاجب، وألفية ابن مالك، أو الثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد، ومع أن هذه المصنفات القديمة لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية، فهي لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث. ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب والمذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جداً في بعض المواد المستحدثة: مثل التاريخ الإسلامي، والسيرة النبوية، وتاريخ التشريع، وتفسير بعض آيات الأحكام، وكذا بعض كتب البلاغة والأدب والنحو والصرف، وسيمضي وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة الأزهرية أن يضعوا من الشروح والتآليف المنظمة الحديثة ما يسد حاجة الطلاب.

وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة، التي لبثت قروناً تزين أروقته وساحاته، فقضى عليها

النظام الجديد، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة، تتمثل في إلقاء بعض الدروس العادية في علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى التي توجد بها المعاهد الدينية، وتقرأ فيها الكتب القديمة، ويشهدها الطلاب غير النظاميين، ولاسيما الغرباء وبعض أفراد الجمهور، وتعرف في ظل النظام الجديد بالأقسام العامة.

والواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعي الحديث، وقد كانت تتفوق بلا ريب في عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية، وكان خيراً لو أصلحت ونظمت على غرر الدراسات الجامعية العليا، التي يتولاها أعلام الأساتذة قد كان في استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التي كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر وآلاء الأزهر، وكانت في كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين.

ولقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة والمحدثة، وقد أحرز الجديد نصره النهائي على تراث القديم وأساليبه، وتبوأت الثقافة المحدثة في مصر المكان الأول، وهي تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية، بكل ما أوتي من المزايا المعنوية والمادية. على أن ذلك لا يعني أن مهمة الأزهر قد انتهت، أو انها يجب أن تنتهي، بل بالعكس من ذلك أن للأزهر مهمة جليلة، يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق إلى الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها. تلك المهمة هي العمل على دعم رسالة الإسلام، ورسالة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بأساليب مستنيرة.. وقد كان الأزهر معقلاً من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى، والعصر التركي، وفي وسعه أن يكون معقلها اليوم(١)

(١) الأستاذ عبدالله عنان في تاريخ الأزهر.

ثورة التطوير في الأزهر

إنها ثورة جديدة استحدثها قانون تطوير الأزهر

على أن روح الثورة أكبر من أن تخطط بقوانين، روح الثورة التي اشتعلت بين الملايين من العرب والمسلمين قوية بحمد الله وإذا كان الأزهر في حاجة إلى ثورة كبيرة، فإن هذه الثورة المنشودة التي يتطلبها المسلمون من الأزهر لا يمكن أن يصنعها قانون، بل لا بد أن تشتعل روحها أولاً وقبل كل شيء في نفوس العلماء والطلاب. . .

فالقانون لم يكن ثمة كبير حاجة إلى تخطيطاته في بعث روح الثورة المنشودة داخل الأزهر، لكي يؤدي الأزهر رسالته.

ولننظر بعد ذلك الى روح القانون:

١ ـ فأولاً: سوف تنشأ كليات علمية جديدة لاصلة لها بالدراسات الإسلامية، وتضاف إلى جامعة الأزهر وهذه الكليات لا تتوقف عليها رسالة الأزهر، وستكلف إنشاؤها الملايين من الجنيهات دون ما داعٍ إلى ذلك، وكان في الامكان إباحة دخول طلاب المعاهد الثانوية الجامعات المصرية ليتخرجوا أطباء ومهندسين ومحامين. . فضلاً عن أن جامعات المنصورة، وطنطا، والزقازيق لم تنشأ بعد، وجامعة أسيوط لا تزال في دور التكوين والإنشاء.

٢ ـ وثانياً: وجود كلية الدراسات العربية لا يزيد عن إنشاء كلية آداب في الأزهر تحل محل كلية اللغة العربية، ولنا في كليات الآداب في

الجامعات المصرية غنى، بالإضافة الى كلية دار العلوم ومعاهد المعلمين، وسواها .

٣ ـ وثالثاً: كليات الدراسات الإسلامية لا بد من أن تحتوي على كليتين: الأولى للشريعة، والثانية للأصول وفي هذه الحالة.. لا نكون قد صنعنا شيئاً أكثر من تكرار إنشاء كليتين جديدتين بدل كليتين قديمتين، وكان في الإمكان أن تطور مناهج الكليتين الحاليتين، لنصنع بذلك الإصلاح المنشود.

٤ ـ وجملة الأمر من القانون أنه ينص على إدماج مناهج المعاهد الثانوية والابتدائية من مناهج المدارس الحكومية مع الإبقاء على مناهج علوم الدين وفي هذه الحالة سيرهق الطالب إرهاقاً شديداً من جانب، وسيضعف مستواه في الدراسات التي تؤهله لدراسات علوم الدين من جانب آخر، وكان في الإمكان الاكتفاء بضم المعاهد الابتدائية إلى وزارة التربية والإبقاء على المعاهد الثانوية كمرحلة إعدادية للتأهل لدراسات كليات الأزهر.

٥ ـ على أن قانون الأزهر في الإمكان أن يعرض على الهيئات الإسلامية لدراسته وإبداء رأيها فيه، وتأجيل تنفيذه إلى ما بعد وصول هذه الآراء كلها إلى الجهات التنفيذية للاستفادة من تقريراتها في علاج كل نقص يمكن أن يكون من القانون، أو ما عسى يمكن أن يكون له من نتائج في الدراسات العربية والإسلامية.

هذا هو الأزهر الجديد

* الهيئات التي يتكون منها الأزهر هي :

١ - المجلس الأعلى للأزهر ويرأسه شيخ الأزهر ويشترك فيه كبار العلماء وخبراء في التعليم والإدارة .

٢ - مجمع البحوث الإسلامية ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية ورسم نظام البعوث الأزهرية إلى العالم الإسلامي ومنه .

٣ - ادارة الثقافة والبعوث الإسلامية وتجهز الدراسات والبحوث للمجمع وتتابع التنفيذ وتتحمل مسئولية البعوث الإسلامية .

٤ - جامعة الأزهر وتضم كليات للدراسات الإسلامية وكليات للدراسات العربية وكلية المعاملات والإدارة وكلية الهندسة والصناعات وكلية الطب وكلية الزراعة ولن تكون صورة مكررة للكليات القائمة الآن أو بالجامعات الأخرى . .

* المعاهد الأزهرية وتعد طلبة الجامعة الأزهرية وتزودهم بالمعرفة والخبرة إلى جانب الثقافة العربية والإسلامية ولكن لهم مطلق الاختيار لمتابعة الدراسة الجامعية بعد تخرجهم سواء في كليات الأزهر أو في غيرها من الكليات والمعاهد العالية.

* ميزانية الازهر تطورت على ثلاث مراحل:

١ - في سنة ١٩٤٠ كانت حوالي ٣٤٢ الف جنيه.

٢ ـ في سنة ١٩٥٣ وصلت إلى مليون و ٥٣٧ ألف جنيه.

٣ ـ في سنة ١٩٥٨ قفزت إلى مليونين و ١٢٥ ألف جنيه.

وهناك مبلغ ضخم من هذه الميزانية يصل إلى ٢٥٠ الف جنيه ينفق على المبعوثين في آسيا وإفريقيا إلى كليات الأزهر ومعاهدة في مدينة البعوث الإسلامية ورصد في الميزانية الأخيرة ٢١ ألف جنيه لإعادة ترميم الجامع الأزهر وتجديده.

الباب الثالث

شيوخ الأزهر

الفصل الأول

مشيخة الأزهر وشيوخه

وظيفة خطيب الأزهر:

نقل المقريزي في مواضع مختلفة إشارات لبعض مؤرخي الدولة الفاطمية عن «خطيب الجامع الأزهر». من ذلك ما نقله عن ابن الطوير في تقديم خطيب الجامع الأزهر في إلقاء الخطبة بين يدي الخليفة في أيام الموالد الستة التي كانت تحتفل بها الخلافة الفاطمية، وهي المولد النبوي ومولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد زوجته السيدة فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة القائم[1].

وكذلك كان «خطيب الجامع الأزهر» يذكر في وصف الاحتفال بليالي الوقود، حيث يخطب أيضا بين يدي الخليفة في هذه الليالي الأربع متقدماً زملاءه من خطباء المساجد الأخرى[2]. فالإشراف على الجامع الأزهر - كما يقول عنان - كان يجري في ظل الدولة الفاطمية على هذا النحو:

ما تعلق بإصلاحه وعمارته والإنفاق عليه يرجع أمره إلى الخلفاء أو من يختارونه لذلك من الأمراء والوزراء.

وما يتعلق بشئون الصلاة يرجع إلى الخطيب وإلى عدد من الأئمة

(١) الخطط ج ٤ ص ٧٦

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٠٢

والقومة والمؤذنين، والخطيب في الواقع هو رئيس الجامع الديني وهو الذي يتولى الخطابة في الصلوات الجامعة، والحفلات الدينية الرسمية بين يدي الخليفة أو نائبه، ويدير شئون المسجد الدينية بوجه عام.

ويبدو أن وظيفة «خطيب» الجامع الأزهر لبثت تنمو في الأهمية على ممر الزمن تبعا لنمو أهمية الازهر نفسه، فهي في أواخر الدولة الفاطمية تسند إلى رجال من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة مثل داعي الدعاة، فقد ذكر ابن ميسر في أخبار سنة ٥١٧ هـ أنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح «منصب الخطابة بالجامع الأزهر» مع خزانة الكتب[١].

أما إدارة المسجد الداخلية من فرش وتنظيم وتجميل فترجع إلى المشرف ومعاونيه من العمال والخدم.

وأما ما يتعلق بشئون الدراسة والأساتذة والطلاب والنفقة عليهم، فقد رأينا أنه يرجع إلى الخلفاء وإلى ذوي البر من أكابر رجال الدولة، وقد كان العزيز بالله ووزيره ابن كلس أول من رتب النفقة الدائمة للقراء والأساتذة بالأزهر، وحذا حذوهما في ذلك الخلفاء والأمراء والكبراء؛ في مختلف الدول والعصور.

وهذا النظام في الإشراف على الجامع الأزهر ربما لبث متبعاً في جوهره بعد الدولة الفاطمية، فمثلاً نرى في أواخر القرن الثامن، في عهد الملك الظاهر برقوق، ولاية النظر على الجامع الازهر، تسند في سنة ٧٨٤ هـ إلى الطواشي بهادر مقدم المماليك السلطانية، وفي أثناء ولايته صدر مرسوم ملكي يقضي بأن من توفي من مجاوري الجامع دون وارث شرعي، وخلف تركة، فإنها تؤول إلى زملائه المجاورين «وفي سنة ٨١٨ هـ في عهد السلطان المؤيد ولي نظر الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب. فكان مما قرره منع المبيت بالجامع الازهر، وأخرج المجاورين الذين

(١) أخبار مصر لابن ميسر ٤٦

اعتادوا السكني فيه[1]. وبعد ذلك بقليل في زمن السلطان المؤيد أيضاً ولي نظر الجامع شمس الدين محمد الماحوري، أحد تجار الكارم والجوهر، وكان من أصدقاء المؤيد. وذلك بطريق النيابة عمن له النظر على الجامع (ولعله الأمير سودوب أيضاً)، فاستعمل القسوة في تنظيم شئونه الداخلية، وكان يطوف ومعه عصى لردع المخالفين، وقاسى الطلاب منه شدة[2].. على أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الإدارية مما يتعلق بإصلاحه وتعميره والإنفاق عليه، وتعيين الموظفين اللازمين لإدارته.

أما شئون العبادات فقد كانت دائماً من اختصاص خطيب الجامع وإمامه. وقد كان يلي خطابة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة والعصور المتقدمة أكابر القضاة والعلماء، فنرى بين خطباء الجامع الأزهر في أواخر القرن السابع الهجري قاضي القضاة تقى الدين أبا القاسم ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز[3]، وفي أوائل القرن التاسع قاضي القضاة الحافظ ابن حجر العسقلاني[4].. وكان يوجد دائماً إلى جانب منصب الخطيب منصب الإمام يشغله أيضاً بعض العلماء الأعلام، وصاحبه يلي الخطيب في الأهمية، ويعاونه في القيام بشئون العبادات. وثمة منصب هام آخر هو منصب «الواعظ» يليه أيضاً جماعة من أكابر العلماء، وقد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركي. وكان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة الفخر البلبيسي الضرير أستاذ القراءات، تولاها في أواخر القرن التاسع الهجري[5]، والشيخ رضوان المتوفى سنة ١١١٥[6].. ومن الذين تولوا

---

(١) المقريزي في الخطط ج ٤ ص ٥٤

(٢) التبر المسبوك ص ١٩٨

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٢

(٤) التبر المسبوك ص ٢٣١

(٥) التبر المسبوك ص ٣٢، ٧٧، ٢٣٩

(٦) الجبرتي ـ عجائب الآثار ج ١ ص ٧٢

منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي المتوفي سنة ٩٥٠ هـ، والشيخ شمس الدين الصفدي المقدسي المتوفي في حدود التسعين وتسعمائة[١].

وأما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى السلطان ووزرائه. وقد كانت مناصب التدريس في الأزهر وما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة، فلا يعين فيها سوى أكابر الأساتذة والعلماء، بيد أنه كان للواقفين والواهبين بلا ريب رأى في تعيين أنواع العلوم التي يخصونها بهباتهم، وفي اختيار الأساتذة الذين يتولون تدريسها.

منصب مشيخة الأزهر:

وإذا كان من المستطاع أن يتتبع الباحث بعض النصوص والإشارات التي تلقى ضوءا على نظم الإشراف على الجامع الأزهر في العصر الفاطمي وفي عصور السلاطين، فإنا لا نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت النظم إلى نظام المشيخة الحالي. ومن المعروف الذائع أن نظام المشيخة الحالي إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف وأنه طبق لأول مرة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد عبد الخرشي المالكي المتوفى في شهر ذي الحجة سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م)، وخلفه في المشيخة الشيخ محمد النشرتي المالكي. ولما توفي هذا الشيخ سنة ١١٢٠هـ (١٧٠٨م)، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شديدة، وانقسم المجاورون ـ الطلاب ـ فرقتين: ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوي وترشح الأخرى الشيخ عبد الباقي القليني وكلاهما من المالكية. ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون. وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القليني في المشيخة والتدريس.

---

(١) الكواكب السائرة في اعيان المائة العاشرة ــ مخطوط في دار الكتب.

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا المنهج في نظام الوظائف الدينية الرئيسية. وقد يرجع التفكير فيه وفي قيامة إلى منتصف القرن العاشر الهجري. ذلك أن ولاة الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة، وكان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد والمعاهد الإسلامية مركز الصدارة، ويزخر دائماً بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين وإخوانهم من سائر أنحاء العالم الإسلامي، هم صفوة الأئمة والأساتذة في ذلك العصر، ومن المعقول أن تكون رياسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة في نظر ولاة الأمور. وإذا كان الجبرتي لم يذكر شيخاً للأزهر قبل الشيخ الخرشي المتوفى سنة ١١٠١ هـ، فإنه من جهة أخرى لم يقل بصفة قاطعة انه كان أول من ولي المشيخة. ومع أنه لم يعثر كذلك فيما أتيح من المراجع على نصوص قاطعة تلقى ضوءا واضحاً على أصل مشيخة الأزهر والوقت الذي بدأ فيه تطبيق هذا النظام. فإنه توجد مع ذلك قرائن عديدة، تدل على أنه يرجع إلى ما قبل أواخر القرن الحادي عشر بكثير.

من ذلك ما رواه صاحب كتاب «ذخيرة الأعلام»[1] في حديثه عن واقعة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطي مع داود باشا الذي تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م)، فقد ذكر أنه حدث في شهر شعبان سنة ٩٥٠ هـ أن الشيخ ابن عبد الحق قال يوماً لدادو باشا وهو في موكبه: أنه رقيق لا يجوز له أن يتولى الأحكام، وأن أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه.. ثم يقول في قصيدته التي يروي فيها تفاصيل هذه الواقعة:

---

(١) هو كتاب «ذخيرة الأعلام. بتواريخ الخلفاء العلماء، وأمراء مصر الحكام، وقضاة قضائها في الأحكام» ــ لمؤلفه الشيخ أحمد بن سعد الدين العثماني العمري من علماء أوائل القرن الحادي عشر الهجري، وهو مكتوب كله بالنظم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٤ تاريخ).

لما صغى الباشا للكلام هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جذب الحسام فإن هذا شيخ الإسلام الإمام

وانحاز الجند للشيخ، فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة إلى السلطان فأنعم عليه بعتقه مع تبليغ الشكر إلى الشيخ. وسعى الباشا بعد ذلك إلى الشيخ واسترضاه وقبل رجله، ولم يقبل الشيخ منه مالاً ولا هدية، ولكنه أصبح من ذلك الحين لا يرد للشيخ رأيا ولا شفاعة[1].

والمهم في هذه الرواية هو نعت الشيخ ابن عبد الحق «بشيخ الإسلام الإمام»، فإنا نعرف أن لقب شيخ الاسلام كان يطلق قبل الفتح العثماني على «قاضي القضاة» الشافعي، وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب من المصريين قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن علي المتوفى سنة ٩٤٩[2]، فلما ألغى الترك نظام القضاء المصري، وأقاموا في رياسة القضاء قاضياً تركياً، كان هذا اللقب يطلق فيما بعد على أكابر العلماء الذين يصلون إلى مرتبة الزعامة العلمية أو على شيوخ الجامع الأزهر والأغلب أن يطلق على هؤلاء الشيوخ.

فهل كان ابن عبد الحق شيخا للجامع الأزهر؟ لقد جاء في ترجمته أنه كان واعظاً بالجامع الأزهر. وقال معاصره الإمام الشعراني عنه ما يأتي: «لم نر أجدا من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله. كان إذا نزل من فوق الكرسي، يقتتل الناس عليه، وكان متفننا في العلوم الشرعية، وله الباع الطويل في معرفة مذاهب المجتهدين. وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة، وكان قد اشتهر في أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم، وصاروا يضربون به المثل، وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام»، ثم قال: «ولما مات أظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من

(١) هذه القصيدة بأكملها في المخطوط المشار إليه ورقة ١٥٠ و١٥١ عنوان (واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا).

(٢) الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة (المخطوط) ج ٢. ص|١٨٢.

الدين»، وكانت وفاة ابن عبد الحق، حسبما ذكر صاحب الكواكب السائرة في أواخر صفر سنة ٩٥٠ هـ[١].

لا يميل المؤرخون إلى القطع بأن ابن عبد الحق كان شيخا للجامع الأزهر. ونستطيع القول بإنه يوجد ثمة في ترجمته وفيما نعته به صاحب الذخيرة ما يحمل على الظن بأنه كانت له صفة الرياسة بالأزهر من مشيخة أو غيرها[٢] .

ومن ذلك ما رواه فون همار مؤرخ الدولة العثمانية في تاريخه عما حدث بمصر من الاضطرابات في سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٨م) في عهد الوالي محمد باشا المعروف بشاه سور زاده (ونقله سامي باشا في كتابه) إذ يقول: «جرد هذا الوالي حملة ضد كاشف البهنسي محمد بك فقتل هذا الأمير وجيء برأسه إلى القاهرة. وقد قتل غيره من الأمراء، وأدت زيادة الاضطرابات إلى أن عقد مجلس كان فيه القاضي وشيخ الجامع الأزهر وغيرهما ، فتقرر فيه الفتوى بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم الأوامر السلطانية، فجرد عليهم وحاربهم»[٣] .

وهنا ـ نجد أنفسنا كما يقول عنان ـ أمام ذكر صريح «لشيخ الجامع الأزهر» وإن كنا لا نعرف من هو هذا الشيخ، وذكره يجيء في مناسبة تتقدم التاريخ الذي اصطلح على رد المشيخة إليه بنحو أربعين عاماً. ومن ذلك ما أورده الجبرتي في ترجمة العلامة إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين بن

---

(١) راجع الكواكب السائرة (المخطوط المشار اليه) ج ٢ ص ١٧٩، ويلاحظ ـ كما قال عنان ـ انه توجد مفارقة بين تاريخ الوفاة في هذه الترجمة وبين واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا اذا قال صاحب الذخيرة انها وقعت في شعبان سنة ٩٥٠ ه اي بعد تاريخ الوفاة، فلا بد انها وقعت قبل ذلك، أو تكون الوفاة وقعت بعدها.

(٢) ذهب المغفور له امين سامي فيما أورده عن واقعة ابن عبد الحق وداود باشا نقلا عن صاحب الذخيرة إلى أبعد من ذلك، حيث وصف ابن عبد الحق بأنه «شيخ الجامع» أي الجامع الأزهر (راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ١٩)

(٣) كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ٥٩.

خالد البرومای المتوفي سنة ١١٠٦ هـ ، فقد ذكر صراحة انه كان شيخاً للجامع الأزهر[1] ، فمتى كان ذلك، لا ريب انه تولى المشيخة قبل أن يتولاها الشيخ الخرشي في أواخر القرن الحادي عشر، وقد توفي الشيخ الخرشي كما تقدم في سنة ١١٠١ هـ وتولى المشيخة من بعده الشيخ النشرتي المتوفى سنة ١١٢٠ هـ فربما كان البرماوي المتوفى سنة ١١٠٦ قد تولى المشيخة قبلهما ، اي في أواخر القرن الحادي عشر حوالي سنة ١٠٨٠ الى سنة ١٠٩٠ هـ .

فمشيخة الأزهر إذا ترجع إلى أواخر القرن الحادي عشر فقط، والشيخ الخرشي كان أول من تولاها غالباً .

والمرجح أن هذا النظام يرجع إلى أواسط القرن العاشر، وأنه يمت كما قدمنا بصلة إلى التغييرات التي أحدثها الترك العثمانيون في الوظائف الدينية الكبرى، وقد كان لشيخ الجامع الأزهر وعلمائه نفوذ خاص يعتمد عليه ولاة الأمر كلما اقتضت الظروف والحوادث. وقد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة والزعامة في أواخر القرن الثالث عشر، ولا سيما وقت مقدم الحملة الفرنسية، حيث كان لأكابر الشيوخ رأي بارز في معظم الحوادث والشؤون الداخلية، وكانوا يعتبرون دائما ممثلي الأمة، وكان منهم أعضاء الديوان الذي ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة . وكان لهم نفوذ يذكر في سير الحوادث في ذلك الحين .

ومن المعروف أن العصر التركي هو أكثر العصور في تاريخ مصر الإسلامية غموضاً واضطراباً، وأقلها وثائق ومراجع، لما حدث فيه من اضمحلال الحركة الأدبية. وفتور الهمم عن التأليف، وانصراف المؤرخين عن تناول الشؤون العامة والأمور النافعة، إلى ملق الحكام وتدوين سيرهم الشخصية .

---

(١) عجائب الآثار ج ١ ص ٧٠

فلم يكن للأزهر إذن شيخ من قبل عهدهم يتولى رياستة الدينية. ويدير شؤونه الإدارية. بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها، كباقي المساجد الجامعة بالديار المصرية. ويباشر شؤونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة وشيوخ الأروقة يعاونهم خطيب المسجد. والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم.. وبقي هذا النظام متبعاً في الجامع الأزهر غالباً مدة حكم الفاطميين والأيوبيين والمماليك الأولى (البحرية)، وفي عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر: «ناظر» سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢)، وكان «ناظر الأزهر» يختار من بين كبار موظفي الدولة، وكان هذا «الناظر» هو الأمير «بهادر» الطواشي كبير المماليك السلطانية، وكان «ناظر الجامع الأزهر» ينوب عن سلطان مصر، أو حاكمها، في الإشراف على شؤون الأزهر، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام السلطانية، والسهر على رعاية مصالح الجامع الأزهر، ومصالح أهله من علماء وطلاب. وقد عرف من «نظار» هذا العهد المملوكي أيضاً الأمير «سودوب» القاضي وحاجب الحجاب، ولي «نظارة الجامع الأزهر» سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥م).. ولما استولى الأتراك العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها، فحافظوا على الأوضاع المرعية في الازهر، واهتموا برعاية شؤونه، والسهر على مصالح أهله، واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمي الديني الإسلامي حقه من الرعاية والتقدير، وجددوا به كل دارس، وزادوا في عمارته، ووسعوا من رقعته، وأوقف الأمراء، والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان الكثير من الأموال والأملاك، والعقارات على علمائه وطلبته، فاتسعت إدارته، وتشعبت مصالح أهله، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شؤون هذا المعهد الدينية والإدارية معا، ويكون رئيساً لشيوخ المذاهب والأروقة، وسائر علماء الأزهر وطلابه، ومسؤولاً مباشرة أمام الولاة والسلاطين، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر

المختلفة، فاستحسنت «الدولة العلية» قبيل نهاية القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) أن يعين للأزهر: «شيخ عموم» يدير شؤونه، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها، ويلقب: «بشيخ الجامع الأزهر».

ومنذ العهد التركي العثماني والجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة، التي تطورت مظاهرها، واتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن، ومقتضيات الظروف والأحوال، حتى آلت إلى ما هي عليه الآن .

واليوم يختار «شيخ الجامع الأزهر» من بين جماعة كبار العلماء، ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية: أن تكون سنة خمساً وأربعين سنة على الأقل، وأن يكون معروفا بالورع والتقوى في ماضيه وحاضره، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل في إحدى كليات الجامع الأزهر، أو بالقسم العالي المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ م، أو يكون قد شغل منصب مفتي الديار المصرية، أو كان عضوا بالمحكمة العليا الشرعية.

ويعين «شيخ الجامع الازهر» بأمر جمهوري، ويصير من يعين شيخا للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضوا في هذه الجماعة بحكم القانون .

شيوخ الأزهر:

وقد تولى مشيخة الأزهر كثير من الأئمة الأعلام، وهم:

١ ـ الشيخ الخرشي المالكي ـ وترجمة في تاريخ الجبرتي الجوء الأول ص ٦٥ ـ وقد توفي الخرشي ١١٠١ هـ [١].

ويعد أول من تولى مشيخة الأزهر، وهو الشريف الإمام أبو عبد الله

---

(١) راجع ايضا ١/٢٠٨ الجبرتي .

محمد بن عبد الله الخرشي المالكي، والخرشي نسبة لبلدة يقال لها أبو خراش من البحيرة بالديار المصرية، انتهت إليه الرياسة في مصر حتى لم يبق بها في آخر عمره إلا طلبته، وكان متواضعاً عفيفاً واسع الخلق كثير الأدب والحياء كريم النفس حلو الكلام كثير الشفاعات عند الأمراء مهيب المنظر دائم الطهارة كثير الصمت كثير الصيام والقيام زاهداً ورعا متقشفاً في مأكله وملبسه ومفرشه، وكان لا يصلي الصبح صيفاً وشتاء إلا بالجامع الأزهر، وكان يقضي مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته في منزله، يتعمم بشملة صوف بيضاء، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية واشتهر في بلاد الأرض من بلاد الغرب والتكرور والشام والحجاز والروم واليمن، وكان يعير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة ايثارا لوجه الله تعالى، ولا يمل في درسه من سؤال سائل، وكان أكثر قراءته بالأقبغاوية، وكان له في منزله خلوة للعبادة، ومن مشايخه: على الاجهوري وإبراهيم اللقاني، ووالده الشيخ عبد الله الخرشي، ومات في ٢٧ ذي الحجة ١١٠١ هـ ودفن مع والده بقرب مدفن سيدى محمد البنوقري بواسطة قرافة المجاورين. وله شرحين على متن خليل، وكتاب في الكلام وهو أول شيخ تولى مشيخة الأزهر الشريف، وكان في العلم غاية لا تنال.. ويقول الشيخ منصور رجب من مقال نشره عنه في مجلة الأزهر:

أول شيخ تولى مشيخة الأزهر هو الشيخ محمد عبد الله علي الخرشي المالكي المتوفى سنة ١١٠١ هـ نسبة إلى قرية من قرى مديرية البحيرة اسمها «أبو خراش». وهذه القرية يقول عنها المرحوم علي مبارك باشا في خططه[١]: «إنها بقسم شبراخيت واقعة في بحرى الكوكبة بنحو ستمائة متر، وفي قبلى «محلة نابت» بنحو ثمانمائة متر، وابنيتها باللبن، وبها جامع ضريح لولى عليه قبة، وفي مشرقيها ضريح سيدى عطية، وبها إبعادية لمنصور باشا يكن، وفيها ـ لعمدتها محمد عمر ـ دوار ومضيفة

---

(١) ج ٩ ص ٢١

وزراعة متسعة نحو ألف فدان، وبها بستان نضر، وأكثر أهلها مسلمون».
والشيخ الخرشي هذا ترجمه الشيخ علي الصعيدي العدوي في حاشيته على شرحه الصغير لمتن خليل، فقال: «هو العلامة الإمام، والقدوة الهمام، شيخ المالكية شرقاً وغرباً، قدوة السالكين عجماً وعرباً، مربي المريدين، كهف السالكين، سيدى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الخرشي، ونسب عصبته بأولاد صباح الخير، انتهت إليه الرياسة في مصر حتى لم يبق بها في آخر عمره إلا طلبته وطلبة طلبته، وكان متواضعاً عفيفاً، واسع الخلق، كثير الأدب والحياء، كريم النفس، جميل المعاشرة حلو الكلام، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم، مهيب المنظر، دائم الطهارة، كثير الصمت، كثير الصيام والقيام، زاهدا ورعا، متقشفاً في مأكله وملبسه ومفرشه ولا يصلي الصبح صيفا ولا شتاء إلا بالجامع الأزهر، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ومصالح بيته في منزله. ويقول من عاشره: ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية، واشتهر في أقطار الأرض، كبلاد الغرب والشام والحجاز والروم واليمن، وكان يعير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب، مع السهولة إيثاراً لوجه الله تعالى، ولا يمل في درسه من سؤال سائل، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقاني وأبى الضياء علي الأجهوري. وكان أكثر قراءته بمدرسة الأقبغاوية. وكان يقسم متن خليل نصفين: نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن، ويقرأ النصف الثاني في اليوم الثاني، وكان له في منزله خلوة يتعبد فيها، وكانت الهدايا والنذور تأتيه من أقصى بلاد الغرب وغيرها فلا يمسك منها شيئاً، بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها.

أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام كالعلامة الشيخ علي الأجهوري، وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقاني، والشيخ يوسف القيشي والشيخ عبد المعطى البصير، والشيخ يسن الشامي، ووالده الشيخ عبد الله الخرشي، وتخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو مائة، منهم

العارف بالله الشيخ أحمد اللقاني، والشيخ محمد الزرقاني، والشيخ علي اللقاني، والشيخ شمس الدين اللقاني، والشيخ داود اللقاني، والشيخ محمد النفراوي، وأخوه الشيخ أحمد، والشيخ الشبراخيتي، والشيخ أحمد الفيومي، والشيخ إبراهيم الفيومي، والشيخ أحمد الشرفي، والشيخ عبد الباقي القليني والشيخ علي المجدولي. ولما توفي في صبيحة يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١١٠١ دفن مع والده بقرب مدفن الشيخ العارف بالله سيد محمد البنوفري بوسط تربة المجاورين.

يقول: وقبره مشهور، وما رأيت في عمري أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ سلطان المزاحي، والشيخ محمد البابلي.

وله مؤلفات، منها شرحه الكبير علي متن خليل ثمانية أجزاء، وشرحه الصغير علي خليل أيضاً أربعة أجزاء، وله جزء في الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة، وغير ذلك.

هذا هو الشيخ محمد الخرشي أول شيخ من أبناء الأزهر تولى هذه الرياسة الدينية العامة. ولقد كانت مصر أول ما عرفت من مذاهب الفقهاء عرفت مذهب مالك، فلقد دخلها به عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح وتوفي بالإسكندرية سنة ١٦٣ هـ، في أيام الليث بن سعد، واشتهر بمصر هذا المذهب، ولم يزل مشتهراً حتى قدم محمد بن إدريس الشافعي في سنة ١٩٨. أما مذهب أبي حنيفة فلم يكن أهل مصر يعرفونه كما يعرفون مذهب مالك والشافعي. والحنابلة لم يسمع عنهم بمصر إلا في القرن السابع.

وكان التفاف الناس في ذلك العصر حول مذهب مالك والشافعي أكثر من التفافهم حول مذهب أبي حنيفة، حتى أن مدرسة محمد بك أبي الذهب قبيل عصر الشيخ الخرشي بقليل لما وظف بها المدرسون وكانوا ستة عشر مدرساً، كان منهم سبعة من شيوخ الشافعية وستة من شيوخ المالكية، وثلاثة من شيوخ الحنفية. وكان الإفتاء في ذلك الوقت لا يقتصر

على مذهب بعينه، بل كان لكل مذهب مفتٍ. وكان المفتون يجلسون بعد دروسهم لإفادة الناس، فكان بجامع محمد بك ثلاثة أماكن برسم جلوس ثلاثة من المشايخ المفتين، وكان منهم الشيخ أحمد الدردير مفتي المالكية، والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الحنفية، والشيخ الكفراوي مفتي الشافعية. وكان الأزهر يتولى شئونه في أول عهده رجل يسمى مشرف. وفي عهد المماليك كان يتولى أمره رجل من كبار الموظفين يسمى ناظراً، منهم الأمير الطواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية، ولي نظره في سنة ٨٧٤ هـ وهو الذي أنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق الخاص بجعل أبناء الأزهر أسرة واحدة يرث بعضهم بعضاً إذا مات أحدهم ولم يكن له وارث شرعي. ومنهم الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب، ولي نظره سنة ٨١٨ هـ. أما تلك الرياسة الدينية العلمية فعرفها الأزهر في العهد التركي بلقب «شيخ الأزهر».. ولقد توالى على هذه الرياسة منذ إنشائها حتى الآن أربعون شيخاً، وأولهم الشيخ الخرشي هذا.

٢ ـ وتقلدها على الأرجح بعده الشيخ إبراهيم بن محمد البرماوي الشافعي وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١١٠٦هـ.

٣ ـ الشيخ محمد النشرتي المالكي وقد توفي عام ١١٢٠ هـ[١] وهو ثالث شيخ للأزهر.

٤ ـ وخلفه الشيخ عبد الباقي القليني المالكي في المشيخة والتدريس[٢]، ولما مات تقلدها بعده الشيخ محمد شنن.

---

(١) ٢٠٨ ج ١ الجبرتي

(٢) نشأ الشيخ عبد الباقي القليني في بلدة قلين بمحافظة كفر الشيخ، ثم وفد إلى القاهرة للدراسة بالأزهر، وتلقى العلم على مجموعة من كبار علمائه منهم: الشيخان إبراهيم الرماوي ومحمد النشرتي... وبعد أن أتم دراسته جلس للتدريس في الأزهر فانتظم في حلقته الكثيرون من مقدري علمه وعارفي فضله.

من أهم ما عني به الشيخ القليني.. توجيه تلاميذه إلى العناية بالكتب القديمة، والغوص في أعماقها لاستخراج ما بها من كنوز ومعارف، وكايعينهم على فهم ما استغلق عليهم من =

٥ ـ الشيخ العلامة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد شنن المالكي . . توفي سنة ١١٣٣ هـ عن سبع وسبعين سنة(١).

٦ ـ الشيخ ابراهيم بن موسى الفيومي المالكي شيخ الجامع الأزهر . . تفقه على الشيخ محمد بن عبد الله الخرشي، قرأ عليه الرسالة وشرحها، وكان معيداً له فيهما. وتلبس بالمشيخة بعد موت الشيخ محمد شنن، ومولده سنة ١٠٦٢ . . وأخذ عن الشبراملسي والزرقاني والشهاب أحمد البشبيشي وغيرهم كالشيخ الغرقاوي وعلي الجزايرلي الحنفي. وأخذ الحديث عن يحيى الشاوي وعبد الرحمن الأجهوري والشيخ ابراهيم البرماوي، وله شرح على العزية في مجلدين . . .

توفى سنة سبع وثلاثين ومائة وألف عن خمس وسبعين سنة(٢).

٧ ـ ولما مات الشيخ الفيومي المالكي شيخ الجامع الأزهر عام ١١٣٧ هـ، انتقلت المشيخة الى الشافعية، فتولاها الشيخ عبد الله الشبراوي. ويتحدث الجبرتي عن جاهه ومكانته ويذكر أسماء بعض شيوخه، ومنهم: الشيخ خليل اللقابي، والشهاب الخلبقي، ومحمد بن عبد الباقي الزرقاني، وأحمد النفراوي، والشيخ منصور المنوفي، وصالح الحنبلي، وسواهم(٣).

وكان طلبة العلم في أيام مشيخته في غاية الأدب والاحترام.

ومن آثاره: مفاتح الالطاف في مدائح الأشراف، وشرح الصدر في

= تلك الكتب ويملي الحواشي عليها جريا على سنة العلماء في تلك الفترة وما كان متبعاً فيها . .

كان الشيخ عبد الباقي القليني من الأئمة فقهاء المالكية في زمانه، ولهذا وقع عليه الاختيار عام ١١٢٠ هـ «١٧٠٨م» ليتولى مشيخة الازهر . . (٢٠٩ ج ١ الجبرتي)

(١) ٧٣ ج ١ تاريخ الجبرتي طبعه ١٢٩٧ هـ

(٢) ٨٧ ج ١ الجبرتي

(٣) ٢٠٩ ج ١ الجبرتي

غـزوة بدر وتـوفي سنـة ١١٧١ هـ ، عن ثمـانين سنـة ، وصلى عليـه بالأزهر[١].

وصار لأهل العلم في مدته رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام، ولم يزل يملي ويدرس ويفيد، وعد إماماً عظيماً. وكان مقبول الشفاعة، وهاداه الأمراء، وعمر داراً عظيمة على بركة الازبكية بالقرب من الرويعي. ومن آثاره «شرح الصدر في غزوة بدر» و«مفاتح الألطاف في مدائح الإشراف.

وهو ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع، وقد ذهب الجبرتي وغيره الى أن مفاتـح الألطاف هذا كتاب غير الديوان، وليس كذلك فإنه يقول نفسه في في مقدمة الديوان «وسميتـه مفاتح الألطاف . . .» وهـو القائل[٢] لهذه القصيدة العذبة التي تسيل عذوبة ورقة المشهورة على ألسنة بعض المغنين:

بـحقـك أنـت المنـى والـطلب وأنـت الـمـراد وأنـت الأرب
ولي فيـك يـا هـاجـري صبـوة تحيـر فـي وصفـهـا كـل صب
أبـيـت أسـامـر نـجـم الـسـمـا إذا لاح لي في الـدجى أو غرب
وأعـرض عن عـاذلي في هـواك إذا نـم يـا مـنيـتـى أو عـتـب
أمـولاي بـالله رفـقـا بـمـن الـيـك بـذل الـغـرام انـتـسـب
فـاني حسيبـك من ذي الجـفـا ويـا سيـدي انت أهـل الحسب
ويـا هـاجـري بعـد ذاك الـرضـا بحقـك قـل لي: لهـذا سبب؟
فـاني محب كمـا قـد عهـدت ولـكـن حـبـك شـيء عـجـب
متى يـا جـمـيـل الـمحـيـا أرى رضـاك ويـذهب هـذا الغضب؟
أشـاع الـعـذول بـأني سلوت وحقـك يـا سيـدي قد كـذب
ومـثلك مـا يـنـبـغي أن يـصـد ويـهـجـر صبـا لـه قـد أحـب

(١) ٢٠٩ جـ ١ الجبرتي .
(٢) «ديوان الشبراوي» ص ٨، ٩

أشاهد فيك الجمال البديع ... فيأخذني عند ذاك الطرب
ويعجبني منك حسن القوام ... ولين الكلام وفرط الأدب
وحسبك أنك أنت المليح ... الكريم الجدود العريق النسب
أما والذي زان منك الجبين ... وأودع في اللحظ بنت العنب
وأنبت في الخد روض الجمال ... ولكن سقاه بماء اللهب
لئن جدت أو جرت أنت المراد ... وما لي سواك مليح يحب

٨ ـ الشيخ محمد بن سالم الحفني الشافعي الخلوتي الحسيني (١١٠٠ ـ ١١٨١ هـ) ولد في حفنا قرب بلبيس، وقرأ بها القرآن إلى الشعراء.. ثم أكمله في القاهرة ثم اشتغل بحفظ المتون، وأخذ العلم عن علماء عصره، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فدرس الكتب الدقيقة كالأشموني وجمع الجوامع والمنهج ومختصر السعد، وشهد له معاصروه بالتقدم في العلوم.. وكان يتردد على زاوية سيدي شاهين الخلوتي بسفح الجبل متحنثا.. واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه، وعانى النظم والنثر، وتخرج عليه غالب أهل عصره.

ومن تآليفه: حاشية على شرح رسالة العضد على السعد، وعلى الشنشوري في الفرائض، وعلى شرح الهمزية لابن حجر، وعلى مختصر السعد، وعلى شرح السمرقندي للياسمينية في الجبر والمقابلة.

وهو صاحب.. أحدتك حدوتة، بالزيت ملتوتة، حلفت ما آكلها، حتى يجى تاجرها الخ.

وتوفي عام ١١٨١ هـ[١].

وكان قطباً وعلماً شهيراً، وأوحد أهل زمانه علماً وعملاً، وهو الإمام محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلوتي ولد بحفنة قرية من قسم

---

(١) ٢٨٩ ـ ٣٥٣ ج ١ الجبرتي

بلبيس من مديرية الشرقية بالقطر المصري على رأس المائة الحادية عشرة وهو شريف حسيني من جهة أم أبيه نشأ بالقرية المذكورة وحفظ بها من القرآن إلى سورة الشعراء وألزمه أبوه بالمجاورة بالأزهر فكمل حفظ القرآن، ثم قدم مصر وحفظ المتون واجتهد في تحصيل العلوم وأخذ من علماء عصره حتى مهر. وأفاد حياة أشياخه وأجازوه بالإفتاء والتدريس فدرس الكتب الدقيقة من غالب الفنون وكان في ضيق من العيش فاشتغل بنسخ الكتب، ثم من الله عليه بكرامات فترك النسخ فأقبلت عليه الدنيا وكان يتردد إلى زاوية الشيخ جاهين الخلوتي في سفح الجبل، وكان يمكث فيها الليالي متحنثا أي متعبداً وتخرج من درسه غالب علماء عصره، وله مؤلفات كثيرة منها حاشية على شرح العضد للسعد وحاشية على الشنشوري في الفرائض وحاشية على مختصر السعد وحاشية على شرح السمرقندي للياسمينية في الجبر والمقابلة وحاشية على شرح العزيزي للجامع الصغير. وكان كريم الطبع جداً وليس للدنيا عنده قدر.

٩ ـ الإمام العلامة الفقيه شيخ الإسلام الشيخ عبد الرؤوف بن محمد السجيني الشافعي الأزهري شيخ الأزهر. تولى مشيخة الأزهر بعد الحفني إلا أنه لم تطل مدته.. وتوفي سنة ١١٨٢ هـ(١).

وقد أخذ العلوم عن عمه الشمس السجيني ولازمه، وبعد وفاته درس في موضعه وبعد أن تولى مشيخة الأزهر سار فيها بشهامة وصرامة وتوفي سنة ١١٨٢، وصلى عليه بالأزهر ودفن بجوار عمه بأعلى البستان، واتفق أنه وقعت له حادثة قبل مشيخته على الجامع الأزهر بمدة وهي التي كانت سبباً لاشتهاره بمصر، وذلك أن تاجراً من تجار خان الخليلي تشاجر مع رجل خادم فضربه ذلك الخادم وفر من أمامه فتبعه هو واثنان من أبناء جنسه فدخل الفارُّ بيت الشيخ السجيني فدخل التاجر خلفه وضربه برصاصة فأصابت رجلاً من أقارب الشيخ فمات وهرب الضارب وطلبوه فامتنع عليهم

---

(١) ٣١٦ ج ١ الجبرتي

وتعصب معه أهل خطته فاهتم الشيخ وجمع المشايخ والقاضي وحضر إليهم جماعة من أمراء الوجاقية وانضم إليهم الكثير من العامة وثارت الفتنة وأغلقت الناس الأسواق واعتصم أهل خان الخليلي بدائرتهم وأحاط الناس بهم من كل جهة وقتل بين الفريقين عدة أشخاص واستمر الحال على ذلك أسبوعاً، ثم اجتمعوا بالمحكمة بعد حضور علي بك واجتمع الأمر على الصلح ونودي في صبيحتها بالأمان، وفتحت الحوانيت والأسواق.

١٠ ـ الشيخ الإمام أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري الأزهري (١١٠١ ـ ١١٩٢ هـ).

ولد بدمنهور وقدم الأزهر وهو صغير فجد في الطلب، وأجازه علماء المذاهب الأربعة، وولي مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ الحفني عام ١١٨٢ هـ: ١٧٦٧ م.

وله مؤلفات كثيرة، منها حلية اللب المصون بشرح الجوهر الكنون، والقول الصريح في علم التشريح، والزهر الباسم في علم الطلاسم، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك. وكان مسكنه ببولاق وصلى عليه بالأزهر[1].

وكان يدرس بالمشهد الحسيني في شهر رمضان وهابته الأمراء لكونه قوالا للحق أماراً بالمعروف، وقصدته الملوك من الأطراف وهادته بالهدايا، ومن مؤلفاته شرح الجوهر الكنون ومنتهى الإرادات في تحقيق الاستعارات ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف، والفتح الرباني بمفردات ابن جنبل الشيباني، وطريق الاهتداء بأحكام الأمة والابتداء على مذهب الإمام الأعظم وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد، والرقائق الألمعية على الرسالة الوضعية وعين الحياة في استنباط المياه، والوفق المثيني، والقول الصريح فى علم التشريح، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة

---

(١) ٢٥ ـ ٢٧ ج ٢ الجبرتي

والزهر الباسم في علم الطلاسم.. وله غير ذلك من غالب الفنون، وتوفي سنة ١١٩٢هـ: ١٧٧٨م[١] وكان منزله ببولاق، فخرج بمشهد حافل، وصلى عليه بالازهر ودفن بالبستان رحمه الله.

١١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن عمر الحنفي الأزهري ولد بقلعة العريش من أعمال غزة وبها نشأ وحفظ بعض المتون ثم حضر في الأزهر وتولى مشيخة رواق الشوام، وعين مفتي الحنفية.

وأقيم وكيلاً للشيخ الدمنهوري، فلما توفي الشيخ الدمنهوري تولى المشيخة، ولكن علماء الأزهر لم يرضوا عنه وكتبوا للأمراء بأن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية، وليس للحنفية فيها قديم عهد أبداً، وخصوصاً إذا كان آفاقياً ليس من أهل البلدة، ورشحوا للمشيخة الشيخ أحمد العروسي، واستمر الاضطرب سبعة أشهر، ثم ثبت العروسي للمشيخة[٢].. وتوفي سنة ١١٩٣هـ.

١٢ ـ الشيخ أبو الصلاح أحمد بن موسى العروسي الشافعي، ولي المشيخة وبقي فيها إلى أن توفي في أواخر شعبان سنة ١٢٠٨ هـ، ومولده ١١٣٢هـ، ومن تآليفه شرح على نظم التنوير في إسقاط التدبير، وحاشية على الملوي على السمرقندي.

---

(١) ذكر رفاعة الطهطاوي في كتابه « مناهج الألباب » أن شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهوري ذكر أنه درس العلوم العلمية.. وينقل الطهطاوي عن الدمنهوري أنه قال في هذا الصدد:

«أخذت عن أستاذنا الشيخ علي الزعتري ـ خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وبما توقف عليها كالفرائض والميقات ـ وسيلة ابن الهائم ومعونته في الحساب والمقنع لابن الهائم ومنظومة الياسيني في الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق في حساب الدرج، والدقائق للبسط المارديني في علم حساب الازياج.. » ثم يستطرد «.. وأخذت عن سيدي أحمد القرافي الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية في أسباب الأمراض وعلاماتها، وبعضاً من قانون ابن سينا، وبعضاً من كامل الصناعة وبعضاً من منظومة ابن سينا الكبرى، وكلها في الطب».

(٢) ٥٣ و٥٤ ج ٢ الجبرتي

١٣ ـ الشيخ عبد الله الشرقاوي الشافعي شيخ الجامع الأزهر، ولد بالطويلة بشرقية بلبيس عام ١١٥٠ وتعلم في الأزهر، وصار من شيوخه ومدرسيه

ولما مات الشيخ أحمد العروسي تولى مشيخة الأزهر بعده، وكانت تعارضت فيه وفي الشيخ مصطفى الصاوي، ثم انتهى الأمر بإسنادها إليه.

وتوفي عام ١٢٢٧ هـ[1].

كان لما ترعرع وحفظ القرآن قدم إلى الجامع الأزهر وسمع الكثير من العلوم عن الشهابين الملوي والجوهري والشمس الحفني والشيخ الدمنهوري والسيد البليدي والشيخ عطية الأجهوري والشيخ محمد الفارسي والشيخ عمر الطحلاوي، وأخذ الطريق عن الشمس الحفني ثم عن الشيخ محمود الكردي ولازمه وحضر معه في أذكاره ، ودرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وتميز في الالقاء والتحرير وأفتى في مذهبه، وله مؤلفات دالة على سعة فضله منها حاشية على التحرير، وشرح نظم الشيخ يحيى العمريطي، ومتن العقائد المشرقية مع شرحها، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلي في العقائد، ومختصر الشمائل مع شرحه، وشرح الحكم لابن عطاء الله، وشرح الوصايا الكردية في التصوف، وشرح ورد السحر للبكري، ومختصر مغني اللبيب في النحو، وحاشية على شرح الهدهدي في التوحيد، وطبقات فقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين وتاريخ مصر، وله غير ذلك. . وكان في قلة من العيش ثم بعد مدة اشتهر ذكره ووصله بعض التجار بالهدايا، فراج حاله وتجمل بالملابس واشترى داراً بحارة كتامة وهي المعروفة الآن بالدواداري قرب جامع العيني، واستمر حاله في تحسن إلى أن مات الشيخ أحمد العروسي فتولى بعده مشيخة الأزهر، وكانت تعارضت فيه وفي الشيخ مصطفى الصاوي، ثم حصل الاتفاق عليه. . وقد أنشأ رواق الشراقوة بالأزهر لأسباب عديدة، وحصلت

---

(١) ١٥٩ ج ٤ الجبرتي وما بعدها

أيامه حوادث الحملة الفرنسية وتوفى في يوم الخميس ثاني شوال سنة ١٢٢٧، ودفن بمدفنه الذي بناه لنفسه بقرافة المجاورين، ثم عملت أتباعه وأولاده له مولداً في أيام مولد الشيخ العفيفي وكتبوا بذلك فرماناً من الباشا.

١٤ - وتولى الشيخ محمد الشنواني مشيخة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوي عام ١٢٢٧ هـ.

وقد توفي عام ١٣٣٣ هـ[1]. . ولتوليه المشيخة قصة، هي أنه لما توفى الشيخ الشرقاوي في السنة المذكورة طلع المشايخ إلى القلعة للباشا بعد وفاته بثلاثة أيام واستأذنوه فيمن يجعلونه شيخاً على الأزهر، فقال لهم اعملوا رأيكم واختاروا شيخاً يكون خالياً عن الأغراض وأنا أقلده ذلك فنزلوا إلى بيوتهم واختلفت آراؤهم، فالبعض اختار الشيخ المهدي الكبير والبعض اختار الشيخ الشنواني وامتنع الشيخ الأمير عن المشيخة وكذلك ابن الشيخ العروسي، وكان الشيخ الشنواني منعزلاً عنهم يقرأ درسه بجامع الفاكهاني وبيده وظائف خدمته وعند فراغه من الدرس يغير ثيابه ويكنسه ويغسل القناديل ويعمرها ويكنس المراحيض فلما بلغه أنهم ذكروه تغيب. . ثم إن الباشا أمر القاضي بهجت أفندي أن يجمع المشايخ ويتفقوا على شخص يكون شيخاً بالشرط المذكور، فجمع القاضي أكابر العلماء كالقويسي والفضالى، إلا ابن العروسي والهيثمي والشنواني فأرسلوا إليهم فحضروا، ولم يحضر الشنواني فأرسلوا إليه رسولا فرجع بورقة ويقول: أن له ثلاثة أيام غائباً عن داره وقال لأهله إن طلبوني فاعطوهم هذه الورقة، فأخذ القاضي الورقة ففضها وقرأها فإذا فيها بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ: لحضرات مشايخ الإسلام إننا نزلنا عن المشيخة للشيخ بدوي الهيثمي، فعند ذلك قام الحاضرون قومه واحدة وأكثرهم من الشوام وقالوا هو لم يثبت له مشيخة حتى ينزل عنها، وقال كبارهم لا يكون شيخاً إلا

(١) ١٦٤ ج ٤ الجبرتي، ٢٩٤ ج ٤ الجبرتي ايضا.

من يفيد الطلبة، فقال القاضي ومن الذي ترضونه؟ فقالوا نرضى الشيخ المهدي، وقام الكل وصافحوه وقرءوا الفاتحة وكتب القاضي إعلاماً بذلك، وركب المهدي إلى بيته في كبكبة وحوله المشايخ والمجاورون وشربوا «الشربات» وهنئوه وانتظروا جواب الإعلام من الباشا فلم يأت، والمدبرون يدبرون شغلهم، وأحضروا الشيخ الشنواني من مصر القديمة وتمموا تدبيرهم، وأحضروا الشيخ منصور اليافي ليعيدوه إلى مشيخة الشوام وجمعوا بقية المشايخ آخر الليل وركبوا في الصباح إلى القلعة فخلع الباشا على الشيخ محمد الشنواني فروة سمور وقرره شيخاً، وكذلك على السيد منصور اليافي وقرره على رواق الشوام كما كان، وأتى إليه الناس أفواجاً يهنئونه بالمشيخة.

١٥ - الشيخ محمد العروسي.. وقد تولى المشيخة بعد الشيخ الشنواني وتوفي في عام ١٢٤٥ هـ[1].

١٦ - الشيخ أحمد بن علي الدمهوجي.. وتوفي في ٩ من ذي الحجة عام ١٢٤٦، وهو نسبة إلى قرية دمهوج قرب بنها.

١٧ - الشيخ حسن بن محمد العطار، توفي عام ١٢٥٠ هـ.

وكان أبوه فقيراً عطاراً له إلمام بالعلم وكان يستخدم ابنه هذا في صغار شؤون الدكان ويعلمه البيع والشراء فاختلف إلى الجامع الأزهر خفية عن أبيه حتى قرأ القرآن وجد في التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الصبان والشيخ الأمير. ولما دخل الفرنسيون مصر فر إلى الصعيد كجماعة من العلماء. ولما رجع اتصل بهم فكان يستفيد منهم ويفيدهم اللغة العربية وكان يقول: إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة.. ثم ارتحل إلى الشام وكان

(١) ٤/٢٩٤ الجبرتي

يقول الشعر دون اهتمام به كما هو عادة كثير من العلماء، ومن شعره:

إني لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدها من زائد
قرب البخيل وجاهلا متفاصحا لا يستحي وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذي الثلاثة جمعت في واحد

وارتحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة وتأهل بها ثم عاد إلى مصر وعقد مجلساً لقراءة تفسير البيضاوي، كان يحضره أكابر المشايخ. وله تآليف كثيرة منها:

١ ـ حاشية على جمع الجوامع نحو مجلدين.
٢ ـ حاشية على الأزهرية في النحو.
٣ ـ حاشية على مقولات السجاعي.
٤ ـ حاشية على السمرقندية.

وله رسائل في الطب، والتشريح «والرمل»، والزيارجة وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية.

١٨ ـ الشيخ حسن القويسني نسبة إلى قويسنا توفي سنة ١٢٥٤ هـ، وكان مع انكفاف بصره مهيباً جداً عند الأمراء وغيرهم.

١٩ ـ الشيخ أحمد الصائم السفطي نسبة إلى سفط العرفاء قرية جهة الفشن بمديرية المنيا توفي سنة ١٢٦٣ هـ.

٢٠ ـ الشيخ إبراهيم الباجوري من الباجور بمديرية المنوفية توفي سنة ١٢٧٧ هـ، وكان قوياً في علمه ضعيفاً في إداراته، وكان عباس الأول يزوره في درسه وبعد موته بقي الأزهر مدة بلا شيخ بل بمجلس مؤلف من أربعة وكلاء تحت رياسة الشيخ مصطفى العروسي. وهم: الشيخ العدوي المالكي، والشيخ الحلبي الحنفي، والشيخ خليفة الفاشني، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعيان، وكان هذا المجلس قد ألف لمباشرة أمور الأزهر بعد أن ضعف الشيخ الباجوري وكثرت حوادث الأزهر، ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ تقلد المشيخة الشيخ العروسي.

٢١ ـ تقلد الشيخ مصطفى العروسي كأبيه وجده المشيخة إلى عام ١٢٨٧ هـ. ولقد أبطل الشيخ العروسي كثيراً من البدع كالشحاذة بالقرآن وعزم على إدخال الامتحانات بالأزهر ففاجأه العزل من المنصب فنفذ ذلك خلفه.

٢٢ ـ الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي (١٢٤٣ ـ ١٣١٥ هـ).

حضر في الأزهر ودرس فيه وتولى الافتاء عام ١٢٦٤هـ جلس للتدريس في الأزهر أيضاً، وتولى مشيخة الأزهر جامعاً بين هذا المنصب ومنصب الإفتاء، ووضع أول قانون لإصلاح الأزهر وعزل من المشيخة عام ١٢٩٩ وتولى بدله الشيخ الإنبابي وانفرد هو بالإفتاء، ثم استقال الإنبابي فأعيد الشيخ المهدي للمشيخة، ولكنه استقال بعد مدة فأعيد الشيخ الإنبابي شيخاً وعين الشيخ محمد البنا مفتياً، ثم أعيد المترجم له إلى الافتاء ـ وله الفتاوي المهدية (٦٧ ـ ٨٠ تراجم أعيان القرن الثالث عشر ـ أحمد تيمور).

وقد عاش الشيخ محمد المهدي الحنفي ـ وهو من شيوخ الأزهر الأجلاء ـ إلى أن توفي عام ١٣١٥هـ.

وكان المهدي العباسي الحنفي مفتي الديار المصرية ورئيس السادة الحنيفية، وقد تقلد المشيخة أواخر سنة ١٢٨٧ هـ، فسار فيها سيراً حسناً ودان له الخاص والعام وزاد الامراء في تعظيمه، وهو أول من تقلدها من العلماء الحنفية، ولما تقلدها قلت على يديه الشرور والمفاسد في الأزهر وكثرت به المرتبات من النقود والكساوي والجرايات المتجددة، وصار لأكثر أهل الأزهر مرتبات من المالية وغيرها، وأثرى كثير منهم بسببه، وخلعت عليهم الخلع ودعوا في المجامع الشريفة، وكان له سير بليغ في صرف الاستحقاقات والمشي على شروط الواقفين وقوانين الحكام وهو الذي سن امتحان التدريس للعلماء.. وذلك أنه استأذن ولي الأمر في عمل قانون الامتحان، واجتمع الرأي بينهم على تعيين ستة لذلك من أكابر العلماء من

كل اهل مذهب من المذاهب الثلاثة اثنان، سوى مذهب ابن حنبل لقلته، وجعل الامتحان في أحد عشر علما من العلوم المتداولة بالأزهر وهي، الحديث، والتفسير، والأصول، والتوحيد، والفقه، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، ومن يريد الامتحان لا بد أن يكون قد حضر هذه الفنون بالجامع الأزهر وحضر كبار الكتب مثل: السعد وجمع الجوامع، ثم يقدم طلباً لشيخ الجامع يذكر فيها أنه يريد الدخول في حومة العلماء المدرسين وينتظم في سلك المعلمين ويبين أنه حضر كذا وكذا من الفنون وحضر مختصر السعد وابتدأ في جمع الجوامع مثلاً، فيؤخر الشيخ تلك الرغبة عنده حتى يستخبر عن أحواله ممن يعرف حقيقة أمره، ثم يكتب للمشايخ بإعطاء الشهادة في حقه بالكتابة فيشهد له جمع من المشايخ أقلهم ثمانية، ثم يعين له من كل فن درساً ويعطيه ميعاداً يطالع فيه كل فن في يوم وعلى رأس الأحد عشر يوماً ينعقد مجلس الامتحان في بيت شيخ الجامع (وصار ينعقد في الأزهر بالرواق العباسي)، ويجعل مريد الامتحان بمنزلة الشيخ والممتحنين بمنزلة الطلبة فيدرس وهم يسألونه وهو يجيبهم ولا يحضر في ذلك المجلس غيرهم فإذا أجاب في كل فن كتب من الدرجة الأولى، وإذا أجاب في أكثر الفنون كتب من الدرجة الثانية، وإذا أجاب في الأقل كتب من الدرجة الثالثة، وإذا لم يجب لم يؤذن له في شيء، ثم تكتب الشهادة لصاحب الدرجة الأولى وترسل إلى الخديوي، فتكتب له عريضة تشريف متوجة بختم الخديوي تكون معه، ويخلع عليه فرجية وشريط مقصب بجعله في عمامته في موضع التشريفات ويكتب للجهات باحترامه ويخفف عنه في السفر نصف الأجرة، وكان قد استحسن أن لا يمتحن في العام أكثر من ستة، فإذا تراكمت الطلبات من طالبي الامتحان نظر الشيخ في موجبات الترجيح كالشهرة بالعالمية أو الوجاهة أو سبق التاريخ أو كبر السن... فكان هو أول من سن قانوناً لامتحان طلبة الجامع الأزهر... وولد الشيخ المذكور بالإسكندرية سنة ١٢٤٣ وقدم مصر سنة ١٢٥٥ واشتغل بالعلم في سنة ١٢٥٦ وتولى الإفتاء سنة ١٢٦٤ وكان يحضر في مقدمة السعد على الشيخ

إبراهيم السقا وفيها جلس للتدريس، ثم تولى المشيخة سنة ١٢٨٧ وانصرف عن المشيخة والافتاء ورجع إليهما مرتين، ومن مؤلفاته الفتاوي المهدية الشهيرة المستعملة كثيراً في أيدي القضاة والمفتين، وكان له من الأولاد اثنان من المدرسين بالأزهر وأرباب المكانة بمصر، وهما الأستاذ الشيخ محمد أمين والشيخ عبد الخالق.. وتوفي الشيخ ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ ودفن بزاوية الاستاذ الحفني بقرافة المجاورين، ورثته العلماء والفضلاء بقصائد شتى قيل في تاريخ بعضها «جزاؤك يا مهدي في جنة الخلد»، وقال بعضهم في مرثية له:

عليه دمع الفتاوي بات منحدرا وللمحارب حزن ضاق عن حد
فيها المسائل قد باتت تؤرخه مات المجيب الإمام المقتدي المهدي

٢٣ - الشيخ محمد الإمبابي الشافعي، وقد تولى المشيخة عام ١٢٩٩، ثم تركها وعاد إليها الشيخ محمد المهدي الحنفي ثانية، وبقى فيها إلى أن استقال منها في ١٣٠٤هـ. وتقلدها بعده الشيخ محمد الإمبابي ثانية، وبقى فيها إلى أن استقال منها عام ١٣١٣ هـ.

ولد الشيخ المذكور بالقاهرة سنة ١٢٤٠ وحفظ القرآن الشريف والمتون بالجامع الأزهر، وفي سنة ١٢٥٣ شرع في تلقي العلوم فاجتهد في الطلب وأخذ عن شيخ الإسلام الشيخ البجوري والشيخ إبراهيم السقا والشيخ مصطفى البولاقي وأضرابهم وشغل ليله ونهاره بالمطالعة حتى فاق أقرانه وتمكن تمكناً زائداً، ودرس في سنة ١٢٦٧ وقرأ جميع الكتب التي تدرس في الأزهر، وكتب عليها تقارير وحواشي.. ومنها تقرير على حاشية العطار على الأزهرية، وتقرير على حاشية السجاعي على القطر، وتقرير على حاشية الأمير على شرح الشذور، وتقرير على حاشية السجاعي على شرح ابن عقيل، وتقرير على شرح الأشموني، وتقرير على التجريد حاشية مختصر السعد، وتقرير على جمع الجوامع وتقرير على حاشية البجوري على السلم وتقرير على آداب البحث وتقرير على حواشي السمرقندية وتقرير على مختصر السنوسي وحاشية على رسالة الصبان، وحاشية على

مقدمة القسطلاني شرح صحيح البخاري، وحاشية على رسالة الدردير في البيان، وتقرير على حاشية البرماوي على شرح ابن قاسم في فقه الشافعي.. ومنها فتاوي فقهية، ورسالتان في البسملة صغرى وكبرى، ورسالتان في «زيد أسد» صغرى وكبرى، ورسالة في علم الوضع، ورسالة في «من حفظ حجة على من لم يحفظ».. وله غير ذلك من التآليف النفسية، وبالجملة فقد جمع بين العلم والعمل والدنيا والدين، وقد تخرج على يديه كثير ممن تصدروا للتدريس.. والإنبابي نسبة إلى إنبابة وهي تجاه بولاق مصر من الشاطىء الغربي للنيل ولم يكن الشيخ منها وإنما نسب إليها لكون والده كان منها واشتهر بالنسبة اليها وكان والده من أكبر التجار بالقاهرة، ولما توفى الشيخ حزنت عليه العلماء وأظهرت الأمة الحزن عليه، ورثته الشعراء بقصائد كثيرة.

٢٤ ـ الشيخ حسونة النواوي الحنفي (١٢٥٥ ـ ١٣٤٣)

تعلم في الأزهر وصار مدرساً في دار العلوم ومدرسة الإدارة (الحقوق)

ثم عين رئيساً لمجلس الأزهر الأعلى في عهد الشيخ الإنبابي ـ ولما أقيل الشيخ الأنبابي عام ١٣١٣ عين المترجم له شيخاً للأزهر.

وأضيف إليه منصب الافتاء بوفاة الشيخ محمد المهدي العباسي المفتي عام ١٢١٥ وأقيل أول عام ١٣١٧ وأقيم ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي شيخاً للأزهر والشيخ محمد عبده مفتياً. وتوفي ابن عمه بعد شهر من ولايته على الأزهر سنة ١٣١٧، فعين الشيخ سليم البشري شيخاً له عام ١٣١٧ ولما أقيل آخر عام ١٣٢٠ ولى الشيخ على البيلاوي على الأزهر، واستقال في ٩ المحرم عام ١٣٢٣، وعين بعده الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخاً ثم استقال في ١٦ ذي الحجة عام ١٣٢٤، فعين النواوي شيخاً للأزهر للمرة الثانية، واستقال من المنصب عام ١٣٢٧، فأعيد الشيخ سليم للمشيخة، (٥٦ ـ ٦٣ أعيان القرن الثالث عشر ـ أحمد تيمور).

وسن الشيخ قانوناً لأهل الأزهر، وفي أواخر مشيخته أسس مجلساً لإدارة الأزهر بأمر الخديو، وسن قانوناً لاصلاح الأزهر . . وكان بعد استعفاء الشيخ الإنبابي عن المشيخة تولاها في سنة ١٣١٢ بأمر الخديوى، وكانت جملة أكابر العلماء قدموا التماساً بطلب المشيخة فلم يلتفت الخديو إليهم، ثم سن قانوناً آخر مشتملاً على ستة أبواب تشتمل على اثنين وستين مادة. . ولنذكر بعض أبوابه.

الباب الاول في الإدارة العمومية، وفيه تشكيل مجلس إدارة الأزهر من خمسة أعضاء غير الرئيس منهم ثلاثة من أفاضل علماء الازهر واثنان من العلماء والموظفين بالحكومة وانعقاده على الأقل كل خمسة عشر يوماً مرة واختصاصه بتصدير القرارات والقواعد التي يكون بموجبها سير التدريس وضبط الطلبة والأعمال وكل ما له علاقة بالازهر وغير ذلك.

الباب الثاني في شروط الانتظام في سلك طلبة الازهر، ومنه أن لا يعتبر من طلبة العلم في الأزهر إلا من بلغ من السن خمس عشرة سنة على الأقل وأن يكون له دراية بالكتابة والقراءة وأن يكون حافظاً لنصف القرآن، ويتعين حفظ كله على كفيف البصر، وغير ذلك.

الباب الثالث في التعليم، ومنه منع قراءة الحواشي والتقارير منعاً باتاً في جميع العلوم في الأربع سنوات الأول وبعدها تخير الطلبة والأساتذة في النظر في الحواشي، أما التقارير فلا يجوز استعمالها إلا بقرار من مجلس الإدارة ، وغير ذلك.

الباب الرابع في الامتحان، وفيه انقسام الامتحان إلى قسمين: الأول امتحان شهادة الأهلية لمن أمضى ثمان سنوات فأكثر في الأزهر وحصل ثمانية علوم على الأقل، ويؤلف لجنة الامتحان من ثلاثة من العلماء تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر، أما امتحان شهادة العالمية فلمن أمضى اثنتي عشرة سنة، وتؤلف لجنة الامتحان من ستة من أكابر المدرسين من كل مذهب اثنان والدرجات التي يمنحها الطالب: أولى، وثانية، وثالثة. . ثم

تكوين مجلس إدارة الأزهر وفي مقدمته صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، وكان برئاسة الشيخ حسونة النواوي لإجراء مقتضيات هذا القانون، فقرر قواعد الانتساب والانتظار والاستحقاق في الجرايات والتدريس والمسامحات والعلوم، وأوجدوا في الأزهر نهضة علمية عظيمة، وأحضروا للعلوم الرياضية أمهر المدرسين، ووضعوا امتحاناً سنوياً، وصرفوا ستمائة جنيه مكافأة للناجحين في أي فن كان، وتقدم طلاب الأزهر تقدماً كبيراً. . وانضمت للشيخ وظيفة الإفتاء سنة ١٣١٥ بعد وفاة الشيخ المهدي بعد ماقام وكيلا عنه مدة، وهو ثاني من جمع بين الإفتاء والمشيخة الأزهرية من الحنفية. . وفي مشيخته أنشئت المكتبة الأزهرية، وبنى الرواق العباسي، وأكثر من امتحان طالبي التدريس، وزيد في مرتبات العلماء ومشايخ الأروقة والحارات من الأوقاف، وصرف عن الإفتاء والمشيخة في ٢٥ محرم سنة ١٣١٧، وولد الشيخ سنة ١٢٥٥ بنواي قرية من أعمال أسيوط بمركز ملوي وقدم الأزهر وأخذ عن كبار المشايخ وتربى على يده كثير من المدرسين ودرس بجامع القلعة وألف كتاباً في الفقه الحنفي يدرس بها. . ومن أولاده الشيخ محمد حسونة من علماء الأزهر.

٢٥ ـ السيد علي الببلاوي المالكي (١٢٥١ ـ ١٣٢٣ هـ) حضر في الأزهر ودرس فيه، وتولى نظارة دار الكتب عام ١٢٩٩ هـ ثم عين شيخاً لمسجد الحسين سنة ١٣١١ هـ، وأقيم نقيباً للإشراف عام ١٣١٢ هـ.

وعين شيخاً للأزهر عام ١٣٢٠ هـ بعد استقالة الشيخ سليم البشري ـ وظل في المشيخة إلى أن استقال منها أول عام ١٣٢٣ هـ (٨١ ـ ٨٥ أعيان القرن ١٣ ـ أحمد تيمور).

٢٦ ـ الشيخ سليم البشري المالكي، وظل فيها إلى أن أقيل منها في ذى الحجة ١٣٢٠ هـ، بسبب حادث مسجد السيدة نفيسة مع حاكم مصر وقتئذ.

ولد الشيخ بمحلة بشر سنة ١٢٤٨، وهي قرية من مديرية البحيرة بمركز بلاد الأرز شرقي ترعة الخطاطبة بالقطر المصري، وقدم إلى مصر

بعد ما حفظ القرآن الكريم واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وجد في التحصيل على كبار العلماء كالشيخ البجوري والشيخ عليش وأضرابهما حتى مهر، ودرس في سنة ١٢٧٢، ودرس جميع الكتب المعتادة بالأزهر مرات عديدة وتخرج من درسه كثير من أكابر ومشاهير العلماء المدرسين بالأزهر كالشيخ الفاضل الشيخ محمد راشد إمام المعية والمرحوم الشيخ البسيوني البيباني والمرحوم الشيخ محمد عرفة، وغير هؤلاء من أفاضل المدرسين بالأزهر، ولما عين شيخاً للجامع الزينبي وكان خالياً من المدرسين رتب نحو السبعة من العلماء للتدريس به منهم من يقرأ الحديث ومنهم من يقرأ الفقه على الأربعة المذاهب ومنهم من يقرأ الاخلاق وغير ذلك، وطلب لهم مرتبات من الأوقاف، ورتب لهم ذلك حتى صار ذلك الجامع كأنه قطعة من الأزهر، وفي ١٣٠٥ هـ صار شيخاً للمالكية وكانت قد ألغيت نحو خمس سنوات بعد الشيخ عليش فأحياها الشيخ وقد جمع بين المشيختين، ومن تأليفه تحفة الطلاب في شرح رسالة الآداب، وحاشية على رسالة عليش في التوحيد. وكان ابنه الشيخ عبد العزيز البشري من أفاضل العلماء والكتاب، وتوفى عام ١٩٤٣.

٢٧ ـ السيد علي محمد الببلاوي المالكي وقد بقي فيها إلى أن استقال منها في أوائل محرم سنة ١٣٢٣ هـ

٢٨ ـ الشيخ عبد الرحمن الشربيني ولى المشيخة في ١٣ محرم ١٣٢٣ هـ وبقي فيها إلى أن استقال منها في ذي الحجة ١٣٢٣ هـ.

٢٩ ـ الشيخ حسونة النواوى للمرة الثانية، واستقال في السنة نفسها فتولاها مرة ثانية.

٣٠ ـ الشيخ سليم البشرى، وتوفي سنة ١٣٣٥ هـ.

٣١ ـ محمد أبو الفضل الجيزاوي ولي المشيخة إلى سنة ١٣٤٦ هـ، ثم خلفه في ذي الحجة ١٣٤٦ هـ ٢٢ مايو ١٩٢٨ المراغى.

٣٢ ـ الشيخ محمد مصطفى المراغى، ولي المشيخة إلى أن استقال

في سنة ١٣٤٨ هـ اكتوبر سنة ١٩٢٩ .

٣٣ ـ محمد الأحمدي الظواهري (المتوفى في ١٣ مايو سنة ١٩٤٤)، وقد عزل من المشيخة في ٢٣ محرم ١٣٥٤ هـ ـ ٢٦ ابريل ١٩٣٥

٣٤ ـ الشيخ محمد مصطفى المراغى للمرة الثانية .

وظل في المشيخة الشيخ المراغى رحمه الله . . حتى توفي في ١٤ رمضان عام ١٢٦٤ هـ الموافق ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٥ . . وقام بأمر المشيخة بعده الشيخ محمد مأمون الشناوي وكيل الأزهر في ذلك الحين . . ولما استقال من الوكالة خلفه الشيخ عبد الرحمن حسن في وكالة الأزهر والإشراف عليه .

٣٥ ـ ثم عين الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ شيخا للأزهر في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٥ ـ وظل فيها حتى توفي في منتصف فبراير عام ١٩٤٧ (١٣٦٤ ـ ١٣٦٥ هـ) .

٣٦ ـ وعين الشيخ محمد مأمون الشناوي في المشيخة عام ١٣٦٧ هـ ، ١٨ يناير ١٩٤٨ وظل فيها حتى توفي في ٢١ من ذي القعدة عام ١٣٦٩ هـ، ٤ سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وامتاز عهده بضعف أثر العصبيات في الأزهر، وبالقضاء على الفتن والاضطرابات وبزيادة البعوث الاسلامية الوافدة على الأزهر، وزيادة العلماء الذين أرسلوا إلى الأقطار الاسلامية، وبمكانة الأزهر في المجتمع، وبالغاء البغاء وتحديد الخمور وجعل الدين مادة رسمية في المدارس، وبارتفاع ميزانية الأزهر الى نحو مليون وثلث، وبكثرة خريجي الأزهر في مدارس الحكومة . . وأنشىء في عهده معهد محمد علي بالمنصورة، ومعهد منوف، وضم معهد سمنود إلى الأزهر. وكذلك معهد الفيوم والمنيا . . وقد شيعت جنازته إلى مقرها الأخير يوم الثلاثاء ٥ سبتمبر عام ١٩٥٠[١] .

---

(١) راجع كتابي « الاسلام ومبادئه الخالدة » الذي ترجمت فيه للشيخ الشتاوي وذكرت فيه الكثير من دراساته الاسلامية .

٣٧ ـ وعين بعده الشيخ عبد المجيد سليم شيخا للأزهـر في يوم الأحد ٢٦ من ذي الحجة ١٣٦٦ هـ ، ٨ أكتوبر عام ١٩٥٠، وظل في المشيخة إلى أن أعفي منها في اليوم الرابع من سبتمبر عـام ١٩٥١، لمناهضته للحكومة القائمة وعدم الاستقرار والهدوء في الأزهر، وذلك في ٤ سبتمبر عام ١٩٥١.

٣٨ ـ وأسنـدت المشيخـة ـــ إلى الأستـاذ الأكبـر الشيـخ إبراهيم حمـروش. . وفي عهـده قـامت الحـركـة الـوطنيـة لمنـاهضـة الإنجليز والاستعمار، وكان للشيخ مواقف مشهودة في هذه الحركة. . وقد ظل في المشيخة إلى أن أعفي منها في اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٩٥٢.

٣٩ ـ وأسندت المشيخة في هذا اليوم نفسه إلى الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم للمرة الثانية. . وقد ظل فيها حتى استقال منها في ١٧ سبتمبر ١٩٥٢[١]، وقد توفي عليه رحمة الله في صباح يوم الخميس ١٠ صفر ١٣٧٤ هـــ ٧ أكتوبر عام ١٩٥٤ وكان رحمه الله مثلاً كريماً في الغيرة على الأزهر وإصلاحه ، وترك فيه آثاراً كثيرة، وكانت له شهرة عالمية في الإلمام بشتى العلوم والمعارف الإسلامية. . وقـد ترك فـراغا كبيـراً لا يسد، كما ترك تلاميذ ومريدين يذكرونه بالخير الإجلال والوفاء.

٤٠ ـ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ عبد المجيد سليم، وبدأ عمله بإحالة وكيل الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن إلى المعاش وتعيين الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ

---

(١) نص استقالة الشيخ سليم : بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر إلى السيـد الرئيس اللواء أركـان حرب محمـد نجيب القائـد العـام للقـوات المسلحـة ، رئيس مجلس الوزراء . . سلام الله عليكم ورحمته . أما بعد ، فقد علمت أن الحكومة لم تر اجابتي إلى مـطلبي بشأن المناصب الأزهرية الأربعة ، ولما كنت لا أستطيع القيام بواجبي على النحو الـذي أعتقد أنـه يرضي ربي إلا بتحقيق ما طلبت ، فإني أبعث اليكم بهذا الكتـاب راجيا أن تـرفعوا استقـالتي من مشيخة الجامع الأزهر إلى مجلس الوصاية المؤقت ، والله أسأل أن يـوفقني واياكم إلى مـا فيه الخـير للأمة ولـدين الله القويم ، والسـلام عليكم ورحمة الله . . . القـاهرة في يـوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هـ ـ ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

محمد نور الدين الحسن وكيلين، وبإلغاء منصبي السكرتير العام ومدير المعاهد ــ واستمر في المشيخة إلى أن استقال منها في أوائل يناير ١٩٥٤ .

٤١ ـ الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج، وقد تولى المشيخة بعد الشيخ محمد الخضر حسين في يوم الجمعة ٢ جمادي الأولى ١٣٧٣ هـ ـ ٨ يناير ١٩٥٤، وبدأ عمله بإحالة الوكيلين الشيخ دراز والشيخ نور الدين الحسن إلى المعاش، وبتخفيض سن الإحالة على المعاش لعلماء الأزهر إلى الخامسة والستين، وبإحالة أعضاء جماعة كبار العلماء الذين بلغوا هذه السن إلى المعاش كذلك .

والشيخ تاج مولود عام ١٨٩٦ بأسيوط ونال العالمية عام ١٩٢٣ وشهادة التخصص عام ١٩٢٦، وسافر عام ١٩٣٦ إلى فرنسا، حيث عاد منها عام ١٩٤٣ بلقب دكتور، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء ١٩٥١م .

الفصل الثاني

تراجم لبعض شيوخ الأزهر

الشيخ محمد الأحمدي الظواهري

توفي رحمه الله في ١٣ مايو عام ١٩٤٤، وقد تولى المشيخة خمس سنوات كان الأزهريون والشيخ فيها في نضال مستمر؛ مع ما كسب الأزهر فيها من استتباب الدراسة وقوة الروح العلمية .

ولي مشيخة معهد طنطا، في سن مبكرة، وبقي شيخا له، إلى أن نقل شيخا لمعهد أسيوط ، في أكتوبر ١٩٢٣ فأحسن الناس استقباله وراقهم فيه فخامة مظهره، وفصاحة منطقه، وسخاء يده. وسرهم أن يروا لشيخ العلماء مهابة خاصة .

ولكن الشيخ في أسيوط، لم يكن يفارقه الحزن إلا قليلا، لأنه نقل إلى أسيوط، وهو غير راض بنقله، لذا كان كثير المرض، كثير السفر قليل الاهتمام. بالحياة.

وله على معهد أسيوط فضل كثير، إذ نقل الدراسة من المساجد وأنقذ الطلاب من افتراش الحصر، واستأجر للدراسة قصورا فخمة واسعة، في مناطق عامرة. وتنازل للحكومة عن مستشفى الحميات، وأخذ بدله تلك البقعة التي أقيم عليها المعهد الجديد، على شاطىء النيل بالحمراء، سنة ١٩٢٤. وحينما وضع الحجر الأساسي في بناء المعهد، سنة ١٩٣٠ كان الشيخ شيخا للأزهر.

ولما عين الأستآذ المراغى، شيخا للآزهر سنة ١٩٢٨ وشاع الخبر في أسيوط، اتفق ان أصيب الشيخ الأحمدي بمرض شديد، أثار حوله الأقاويل، ولكنه شفي منه، وبعد قليل نقل شيخا لمعهد طنطا، في يوليو-١٩٢٧ .

وفي أكتوبر ١٩٢٩ استقال الشيخ المراغى، وعين الشيخ الأحمدي، شيخاً للأزهر .

وفي ٢٨ أبريل ١٩٣٥ استقال من وظيفة المشيخة وعين الشيخ المراغى مكانه. . . ويقول الدكتور عثمان أمين عنه من كلمة له:

« يرجع اهتمامي بالشيخ الظواهري إلى ما قرأته عنده لأحد المستشرقين، في النسخة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية ، تعريفا بكتاب له عنوانه «العلم والعلماء» نشر بطنطا سنة ١٩٠٤، وقد أحببت أن أقتطف من مقال ذلك المستشرق ما ترجمته إلى العربية: «إن روح الإخلاص والصفاء التي تظهر في هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين، فما بالك بوجودها في الإسلام الذي دب فيه الجمود» ومن العجب جدا في هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الإسلامية والإحساس بفائدة ما يأتي من مصادر أخرى. فالمؤلف يرى أنه يجب أن يأخذ المسلمون ليس عن أوروبا فحسب، بل عن الصين واليابان ايضا. ويرى أن من بين المواد التي ينبغي دراستها الدعوة للإسلام ، ويرغب المؤلف في عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الإسلامية ثم يعين وسائل الثقافة التي تتطلبها لجان من العلماء، واخراج دائرة معارف، ونشر التعليم الجامعي بين أفراد الأمة ، كما قال إنه يجب تطهير الإسلام من الخزعبلات والعوائق التي تبهظه. والكتاب على كل حال برهان ساطع على عقيدة الكاتب الراسخة وإيمانه بالمثل العليا» .

أغراني هذا الوصف الذي قرأته في باريس بالبحث عن الكتاب في مصر. فلما قرأت الكتاب بنفسي انكشف لي منه أمران: أولهما ان مؤلفه

كان من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده: فهو يذكره في الكتاب صراحة، وهو ينهج في التعليم نهجه، ويدعو الأزهريين إلى ترسم خطاه، وثانيهما أن هذا الشاب كان فيلسوفا ناشئا، وأن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه، فإنه حين تكلم في كتابه عن الكمال الروحي وعن الصوفية عالج هذه الأمور بروح فلسفية، ولعل الفلسفة أخذت سبيلها إلى نفسه، دون وعي ظاهر منه عن طريق أستاذه محمد عبده.

ويرجع توثق الصلة بين الأستاذ والتلميذ إلى سنة ١٩٠٢ حين تقدم الظواهري لنيل شهادة العالمية إلى لجنة الامتحان المنعقدة برياسة محمد عبده، فأجاد في الإجابة أعجب بها الأستاذ الإمام ، فأثنى عليه على مسمع من الحاضرين، ويقال إنه طلب له شيئا من شراب الخروب وقال له «لقد فتح الله عليك يا أحمدي، ووالله إنك أعلم من أبيك، ولو كان عندي أرقى من الدرجة الأولى لأعطيتك إياها». ولهذه الحادثة نفسها دلالتان: الأولى انها تشير إلى ذكاء الاحمدي الظواهري وسعة علمه اللذين اشتهر بهما منذ نشأته، والثانية انها تشير إلى ما اتصف به الاستاذ الإمام من الإنصاف وقوة الأخلاق: فقد كان بينه وبين الشيخ ابراهيم الظواهري - والد الشيخ الأحمدي - خلاف في الرأي والمنازعات، لأن إبراهيم الظواهري كان من الشيوخ المحافظين الميالين إلى تصديق الكرامات والاعتقاد بقصص المجاذيب والأولياء، وكان الشيخ محمد عبده يستنكر ذلك، لكنه لم يتأثر في حكمه على الابن بما كان بينه وبين أبيه .

وفي مكتبته ذخيرة من العلم المخطوط بيده، هي مجموعة من مؤلفات كتبها في شبابه منها «خواص المعقولات في أصول المنطق وسائر العقليات» و«التفاضل بالفضيلة» و«الوصايا والآداب» و«صفوة الأساليب» و«حكم الحكماء» و«براءة الإسلام من أوهام العوام» و«مقادير الأخلاق» ولكن مخطوطاً منها استوقفني لطرافته ، وعنوانه «الكلمة الأولى في آداب الفهم». وقد أراد به أن يكون بمثابة ضابط عقلي أو قانون كلي، لرفع الخلاف القائم في كيفية فهم المتأخرين لأقوال المتقدمين من المؤلفين في

العلوم الدينية. وقد جاء في مقدمة المخطوط: «لقد دعاني داعي الاستكمال والتمسك بأذيال الامتثال إلى مطالعة أسرار الدين للوصول إلى عين اليقين، والنهوض من مراقد الوهم وظلمات الجهالة إلى مراقي الفهم ونور الحق المبين»... «بيد أنه قد تباينت الطرق، وتنازعت الفرق، واختلفت أهواء الخلف في كيفية الوصول الى مرامي أنظار الأول، وإصابة الغرض المقصود من عباراتهم، وتفرقوا شيعا في تقرير المسائل، فكانت همة قوم فيما يرجع إلى المعاني الأصلية، ومال قوم إلى الخطابة والجدل، وآخرون إلى التخريج على المعنى البعيد أو التنبيه على احتمال جديد، وتنافس البعض في الاستشكال والتغليط، حتى إنه ليخيل الى الناظر في طرائقهم أن الحقيقة صعبة المنال، وأن اليقين مطلب محال.. فدفعني ذلك إلى أن اضع علما شاملا وقانونا جامعاً به تستفاد حقائق المعاني من أصداف الكلام، ويجمع الناظرين على أقوم طريق به يمكن الوصول الى تمام المعنى بحيث يوقف القارىء البصير في وقت قصير على كل ما في الحواشي والتقارير. ويرفع الخلاف القائم في كيفية الفهم، ويزيل التشويش والإبهام، ويمكن أهل العلم من الانتصار على جيوش الأوهام».

وقلما تحمس الظواهري في شبابه لإعلاء شأن الأزهر وإصلاح المسلمين، كما يتضح من كتاب «العلم والعلماء»، فأصابه من جراء ذلك ما أصاب غيره من المصلحين، كما يتضح ذلك من مذكراته التي نشرها ابنه بعنوان «السياسة والأزهر». وتبين من الرسالة التي نشرتها مشيخة الأزهر هذا العام لمناسبة المعرض المصري الأخير أن أكثر ما استحدث من منشآت وما تم من إصلاحات في الأزهر الحديث كان للظواهري فيه أثر بارز.. وبمقتضى القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذي صدر في عهد مشيخته أنشئت الكليات الأزهرية الثلاث، وبمقتضى القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٣٢ الذي صدر في عهده أيضا نظم التخصص، وغيرت مناهج التعليم في الجامعة الأزهرية لكي تتمشى مع التقدم العلمي الحديث. وبذلك دخلت الأزهر على يد الظواهري دراسات لم يكن للأزهريين عهد بها من

قبل، كاللغات الأجنبية، من شرقية وغربية والاقتصاد السياسي والقانون الدولي الخاص، وأصول القوانين ووسائل الدعوة الى سبيل الله، والخطابة والالقاء والمناظرة، وعلم النفس والتربية البدنية وغيرها، ويتبين من رسالة مشيخة الأزهر أيضا أن الظواهري قد سبق إلى التفكير في إيفاد بعوث من الأزهر للدعوة للاسلام في الخارج، فأوفد بعثتين للصين والحبشة وأنشأ مجلة «نور الإسلام» ووضع مشروع الأبنية الفخمة للجامعة الأزهرية الحديثة، وقد تمت في عهده ثلاث من عمائرها الكبرى.

وللشيخ الأحمدي أثر ظاهر في ميدان آخر نحب أن لا يفوتنا التنويه به هنا. ويتجلى ذلك في الأثر في تقرير محفوظ بوزارة الخارجية المصرية عن المؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه الملك ابن سعود، وعقد في مكة سنة ١٩٢٦، ويتبين منه أن الشيخ الظواهري استطاع وهو رئيس وفد مصر في ذلك المؤتمر أن يكون واسطة العقد بين المؤتمرين، وأن يكون رسول سلام وتوفيق بين المتنازعين في موضوع الحرية المذهبية في أرض الحجاز، كما استطاع بقوة حجته وإقناعه أن يستصدر من المؤتمرين قراراً يصرح على رؤوس الإشهاد بوحدة مصر والسودان. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن عبد الخالق ثروت وزير الخارجية المصرية وقتئذ قال حين علم بنجاح الشيخ الظواهري في ذلك المؤتمر: «لم أكن أعلم أن الأزهر يخرج سفراء في السياسة».

الشيخ محمد مصطفى المراغي

علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وشخصية نادرة من أشهر الشخصيات الإسلامية في القرن العشرين. ورجل غريب بين زملائه وأقرانه في العصر الذي عاش فيه، وزعيم روحي ألقيت إليه مقاليد الأزهر فترة طويلة .

ذلكم هو الشيخ محمد مصطفى المراغى، تلميذ محمد عبده، والعالم الأزهري الواسع الأفق، العميق الثقافة، وقاضي القضاة المصري في السودان، ورئيس المحكمة العليا الشرعية، وشيخ الأزهر من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٢٩ م ثم من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥م (١٣٦٤ هـ) حيث وافاه أجله المحتوم .

كان المراغى مثالاً نادرا في الاعتزاز بالنفس، والشعور بالكرامة، والإيمان بالإصلاح ، وفي عهد توليه مشيخة الأزهر وضع أساساً قويا لصرح الأزهر العلمي برعايته لأقسام الدراسات العليا فيه، وتشجيعه لطلابها وخريجيها، وإشرافه على مواسمها العلمية، ومناقشته لرسائلها. وكان الشيخ المراغى ذا قوة فكرية قوية عن الثقافة الحديثة، ورغبة حافزة في صبغ الأزهر بصبغتها. وقد عمل على إخراج جيل جديد من العلماء المثقفين بشتى الثقافات، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، وكانت صلات المراغى بأقطاب المجتمع والسياسة والفكر والأدب في عهده عوناً له على بلوغ آماله في إصلاح الأزهر، وقد جاهد جهاداً حثيثاً للنهوض بهذه الجامعة

الإسلامية الكبرى، ولبث روح الحياة والإصلاح فيها. وكانت مكانته في نفوس الجماهير من العلماء والطلاب تساعده على الإصلاح . وكان أكثر الأزهريين تقديرا للكفايات من العلماء والطلاب وتشجيعا لها، كانوا يأخذون عليه تدخله في السياسة، وقيام إدارته في الأزهر على العصبية، ولكن ذلك شيء تافه لا يقاس بجانب ما أحدثه في الأزهر من ثورة وحياة وتجديد.

لقد انتهت بعد المراغى الاجتماعات في المناسبات الدينية التي كانت تضم الألوف من القادة والعلماء والطلاب والجماهير. وحوربت وعطلت أقسام الدراسات العليا في الأزهر. وساءت أمور الأزهر، وضعف نشاطه العلمي.

استقال رحمه الله من مشيخته الأولى في آخر سبتمبر سنة ١٩٢٩ على أثر تأخر صدور المرسوم الملكي بقانون الأزهر الجديد، وقد حاول رئيس الوزراء آنئذ وهو المرحوم محمد محمود باشا إقناعه بالعدول عنها، ولكنه لم يقبل، وصدر المرسوم الملكي بتعيين الشيخ الظواهري شيخاً للأزهر في أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

وأذكر أنه لما تولى المراغى مشيخة الأزهر للمرة الثانية، استقبله الأزهر استقبالاً كريماً، وأقام له حفلة تكريم في يوليو عام ١٩٣٥ بسراي معرض الجيزة بالقاهرة حضرها حشد كبير من الشخصيات الكبيرة ورجال الدين، ودعى ممثلو طلبة المعاهد الدينية لإلقاء كلمات في هذه الحفلة، وكنت ممثلا لطلاب معهد الزقازيق الديني، وكان ممثل الأساتذة الأستاذ الكبير الشيخ محمود النواوي وكنت قد أعددت حينئذ كلمة لألقائها في الحفلة، ولكن عدل عن إلقاء ممثلي المعاهد لكلماتهم، لضيق الوقت وكثرة الخطباء، وكان من هذه الكلمة التي أعددتها حينئذ، وأنا طالب في السنة الرابعة الثانوية بمعهد الزقازيق الديني:

في هذا اليوم الخالد والحفل الحاشد تتحدث الأجيال عن الأزهر

الشامخ وشيخه الجديد حديثا ملؤه الإعجاب والإجلال، لأنه حديث الأرواح ونجوى القلوب. أما الأزهر فهو الأزهر كما يعرفه الخاصة والعامة وكما يعرفه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وكما تعرفه الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة.. هو محط الرحال، وكعبة الآمال، ومجمع الدين والعلم والأدب ومفخرة مصر والشرق والعرب، هو قلب الإسلام الخافق ولسانه الناطق، وعلمه المرفوع، هو تلك الجامعة العظيمة التي أضفى عليها الزمان ثياب الجلال وأسبل عليها الخلود ستور الجمال، فحفظت للإسلام مكانته ورفعت للدين رايته ومدت على العربية ظلها الممدود، وحملت لواءها المعقود، وخرجت أئمة الهدى ومصابيح الحكمة وشعت منها أشعة النور في كل بقعة ومكان ـ فالأزهر هو دعامة الأخلاق وحصن الفضيلة ومفخرة القاهرة وصرح مصر الخالدة، بل هو معجزة الدهور وآية القرون.. وما دام للأزهر وجود فله رسالة في الحياة تضارع في جلالها رسالة الأنبياء ووحي المرسلين، وإن استمدت آيتها من آيتهم، وهديها من هديهم.

رسالة الأزهر هي العناية بنشر الدين، والسهر على مصالح المسلمين، وإحياء الأخلاق الفاضلة، وإقامة المبادىء العادلة التي جاء بها القرآن الكريم، وإيقاظ الشرق الراقد من غفلته، ليكون مهبط الوحي ومبعث النور ومصدر الهداية ورسول الحضارة، وقائد العالم كما كان الأزهر في أيامه الماضية.

وإذا كان للأزهر مكانة وجلالة ومهمة ورسالة، فله رئاسة جليلة نصبها الإسلام عنه وكيلا وأقامها الأزهر له كفيلا، فالتفت حولها القلوب، وشايعتها الأرواح وآوى اليها الخائف والمظلوم والمكروب.

ولقد أدت مشيخة الأزهر للشرق والإسلام خدمات جليلة، فحفظت تراث السالفين وسهرت على تهذيب الناشئين، وأطفأت نار الشك ببرد اليقين.

ولما طفر التعليم المدني في مصر أقبل عليه الناس وجحدوا

ما للأزهر من فضل وجميل، وطفقوا ينعون عليه جهوده، ويعيبون عليه جموده، حتى هزمتهم صيحة الإصلاح من رجل الإصلاح الأول حكيم الإسلام وفقيد الشرق المغفور له الإمام محمد عبده، فعارضها المعارضون وسخر منها الجامدون، ولم يقدرها إلا أفراد قلائل كان من بينهم شاب ذكي وفتى نابه اقتفى أثر أستاذه الحكيم، هو الشيخ المراغي.

وجاء من خطبة فضيلة الأستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني في حفلة تكريم الأستاذ المراغي عام ١٣٥٤ - ٣ يوليو ١٩٣٥ ما يلي: «الأزهر كما تحدث عنه التاريخ وكما تصورناه نحن حين رحلنا اليه في نعومة الأظفار، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم، ويحجون إليه لطلب العلم، هو هذه الشخصية الكبرى البارزة في العالم، والتي ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين والتي عاشت ألف سنة إلا قليلا، وهي تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء في التاريخ، ولولا سر الله الخفي لتلاشى، فهو الذي حفظه ولا يزال يحفظه ويجدد مجده إلى اليوم.. إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذي تحيا عليه علوم الإسلام والقرآن، وهي أسمى ما تستكمل به النفس الإنسانية قواها. والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصاً لله وحده، فإذا ألمت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فلله فيه نصيب كبير: دينه، وعلومه.. وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون إليه بنية صادقة ليتفقهوا في دين الله ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، لله فيهم النصيب الأوفر، والله غيور على دينه، وعلى وحيه. وعلى هذا الشباب الغض الذي يحب الخير ولا يريد إلا الخير.. ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر وثباته على كثرة ما نزل به من أحداث.. ما هي مشيخة الأزهر؟ لا أريد ان أتعرض إلى مشيخة الأزهر بالنظر إلى ما ورثته عن العواصم الإسلامية من خلافة العلم والدين، ولا إلى ما قامت به من جلائل الأعمال في عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة في وجوه الظالمين، فذلك للتاريخ وحده، ولكنني أتحدث عنها

الآن بالنظر إلى طبيعتها وإلى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد. إن مشيخة الأزهر الكبرى هي التي تقوم بمعونة الأساتذة والطلاب على حراسة الدين وأحياء تعاليمه، فإذا فكر العقل تفكيراً مستقيماً ولم يلتفت إلى زخارف الحياة الكاذبة، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا في كنف هذه الرعاية السامية، لأن شرف الاشياء بشرف غاياتها، ومشيخة الأزهر تقوم على حراسة ما به تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووظيفة الرسل إذا أديت على غير وجهها فكلها خير وكلها سعادة، فإذا تنكب الأزهر الطريق يوماً، فليس ذلك من طبيعة الدين الذي يقوم على حفظه، ولا من طبيعة علومه التي هي نور العقل وقوة للإنسان، وإنما منشأ هذا التنكب هو القوي التي تتسلط عليه وتوجهه إلى طريقها، وإذن لا تلوموا الأزهر ما دام غير قائم على قدميه بنفسه، وإنما اللوم على من يمتلكون أمره ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه . . . إن أعدل ميزان تعرفون به الفرق في كل عصر بين رجل الأزهر القائم على حراسة دين الله وبين عبد الشهوات الجامحة وأن تربع بين الأزهريين ونال أكبر مناصبهم أن ترى عزة النفس وخشية الله ماثلتين في رجل الأزهر خصوصاً إذا عظمت المحنة واشتد البلاء، أما عبد الشهوات فتراه دائما مغموراً بخشية الناس والطمع فيما بأيديهم. وقلب المؤمن الصادق في إيمانه لا يتسع لخشيتين، فأظهر مظاهر الإيمان العميق خشية الله وحده إذا اشتد الخطب، وأظهر مظاهر الإيمان الرقيق الذي لا يزن مثقال ذرة أن يخشى صاحبه الناس أشد من خشية الله، وإن كثرت وتفرعت صور عبادته لأنها في ميزان الدين والعلم ليست أكثر من صور كاذبة تولدها العادة أو الرياء . . إن الحقائق لا يغيرها ولا ينقص من جلالها الذاتي ما قد يطرأ عليها من أمراض وعلل تدفعها يد الشهوة على غفلة من أهلها، ولهذا يعاقب الله حراس الحقائق أولا فأولاً، بمقدار غفلتهم وإهمالهم، ثم يكتب النصر لهم في النهاية إذا ما انتبهوا . . أما المبطلون المفتونون باستشراء الضعف ليتمتعوا بباطلهم فلا يعاقبهم الله أولاً فأولاً، وإنما يمهلهم لتتجلى حكمة الله في قوله: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملى لهم ان كيدي متين». إن من

الغرور وعدم الإنصاف أن يقال: ما فائدة الأزهر وأين جلال مشيخته؟ وأقوى رد على هذه الغفلة وهذا الغرور أن نقول لأصحابهما: إذن ما فائده علوم الحياة كلها؟ وهي اليوم تولد الجشع في قلوب الأمم وتقلبها سباعاً كاسرة وحيوانات مفترسة.. فالدين خير كله والعلم خير كله بمقتضى طبيعتهما فعليهما أن يتنبها إلى من يعمل على تغيير وضعهما، فاذا حرص الأشرار على أداء وظيفتهم بمقتضى طبعهم، فحرص الأخيار يجب أن يكون أشد وألزم.. هذا هو الأزهر على ما يجب أن يكون وهذه هي مشيخته كما نفهم عظمتها وجلالها. فإذا ظهر يوما ما في غير مكانهما فالمصريون شركاء في المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ. لأن العلماء غير معصومين. والأمم الحية هي التي تقوم على حراسة قواها الطبيعية والمعنوية، ولا ترتفع المسؤولية عن الأمم إلا إذا كانت في طفولتها أو في شيخوختها، وقد أدت الأمة المصرية والحمد لله واجبها نحو مشيخة الأزهر» .

وقد ألقى في حفلة التكريم الشيخ عبد الجواد رمضان الاستاذ بالأزهر قصيدة جاء فيها :

دَعَوا باسمك الآمال فهي بواسمُ ... وبَلُّوا به الأرواح وهي حوائم
دجاليلُهم حتى إذا لحت أصبحوا ... وأنف الدياجي والحوادث راغم
هو الدين، فادعم عرشه بعزيمة ... فقد وهنت أركانه والدعائم
وما الأزهر المعمور إلا مناره ... ولا أهله الأدنون إلا العمائم
مطالع يمن للزمان وأهله ... بها تسعد الدنيا وتدنو العظائم

*
* *

فيا رجل الإسلام أدرك رجاله ... فقد أنكرتهم في الحياة المكارم
وفيهم، بحمد الله، غر أزاهر ... وفيهم بحار في العلوم خضارم
إذا عالجوا كانوا الشفاء وإن دعوا ... إلى رد باغ فالذرا والمقادم
وكم لهمو ــ في الله ــ غُرّ مواقفٍ ... تَنَشَّقُ رَيَّاها القرى والعواصم

*
* *

أولئك أجناد إذا جدّ جدّهم ... سمت بهمو للفرقدين العزائم
إذا ما المراغي قام تحت لوائهم ... فقد زأرت في الغاب تلك الضياغم
فَتَى فِتْيَةِ الشرق الأُولى تنجلي بهم ... غياهبه، والشرق بالخطب غائم
وصارم هذا الدين دين محمدٍ ... وقد أسلمته في الجلاد الصوارم
فمن مبلغٌ أفناء يشرب أننا ... سلمنا، على أن ليس في الناس سالم
وأنّ الذي شاد النبيُّ محمدٌ ... على حفظه شيخ المراغة قائم
تبوّأ عرش الدين فاهتزّ ركنه ... وطاولت الجوزاء منه القوائم
وأمست شعوب الشرق نَشْوَى قريرةً ... تساهم في تكريمه وتزاحِم
قصاراه أن يدعو بها عُمَرِيَّةً ... ترد وجوه الشرك وهي سواهم
إذا ائتلقت في مصر أضواء شمسها ... سعت في هُدَاها للكمال العوالمُ

*
* *

وقد ألقى المراغى كلمة في حفلة تكريمه جاء فيها:

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلم في شعرهم ونثرهم ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم .

ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصي الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذي تجلونه جميعاً، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الإسلامية في مصر وغيرها من البلاد.

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة على ما هو أسمى من غرض التكريم .

دل على أن الأزهر خرج عن حالته التي طال أمدها ونهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملابساتها وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد، وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكري الذي نشأ عن تغير طرائق

التعليم فيه وعن شعوره يجب أن تحتذي ويهتدي بها. ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة في داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة.. والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة، وتدرس الملل والنحل، وتقارن الديانات، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية. ومن الحق علينا ألا ننسى في هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الأزهر العامة، ويهتدى به علماء الأقطار الاسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه، ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق، ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ولم تقدره قدره الا بعد أن أمعن في التاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده قدس الله روحه وطيب ثراه، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة، ومن الوفاء بعد مضي هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل، فهو مشرق النور وباعث الحياة، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ، والدوحة المباركة التي نأوي إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير.

والأزهر كما تعلمون هو البيئة التي يدرس فيها الدين الإسلامي الذي أوجد أمماً من العدم، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة، وكان له هذا الأثر الضخم في الأرض فهو يوحي بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية، يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا في أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الوجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه، وأجادوا معرفة لغته، وفهموا روح الاجتماع، واستعانوا بمعارف القدامى ومعارف

المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين، أصوله وفروعه، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طي مراحل السير في هدوء ونظام وحب وصدق نية وكمال توجه إلى الله وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

وللمسلمين في الأزهر آمال، ومن الحق أن يتنبه أهله لها وهي :

أولاً ــ تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام ورجاله، وقد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر في هذه الأيام وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين وهي بيانه ونشره .

ثانياً ــ إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية وهي مجموعة مرتبط بعضها ببعض ، وتاريخها متصل الحلقات، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهوداً مضنية وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر، كما هو الحال في دراسة الأزهر . . فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق في دراسة هذه المجموعة قديمة حديثة ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضاً صحيحاً صادقاً بلغة يفهمها أهل العصر الحديث وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضي ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار الأقدمين، وأعتقد أن التعليم الأزهري على النحو الذي أشرت إليه هو الذي يرجى لتحقيق الأمل، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثاً ــ عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله، وخال مما أدخل عليه وزيد فيه من الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعاً ــ العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرقة، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء بين من يلبسون ثوب الدين، ونتج عنه سخف ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي؛ ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى حتى إن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين .

إن من الخير والحق أن نتدارك هذا، وأن يعني العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوي الرابطة بين العبد وربه، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشاً للحق مستعداً لقبوله عاطفاً على إخوانه في الإنسانية كارهاً للبغضاء والشحناء بين المسلمين.. قد أتهم بأني تخيلت فخلت ، ولا أبالي بهذه التهمة في سبيل رسم الحدود، ولفت النظر إليها وفضل الله واسع وقدرته شاملة، وما ذلك على الله بعزيز .

والآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين في الأزهر، ترون أن

العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل، فإنه في حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون: إما بالمال أو العقل، أو بالمعارف والتجارب، وكل شيء يبذل في طريق تحقيق هذه الآمال هين، إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة..

ولقد ولد الشيخ مصطفى المراغى في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ في المراغة من أعمال مديرية جرجا بمصر العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالأزهر، واتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده فثقف نفسه عليه في دروس التفسير التي كان يلقيها بالرواق العباسي.

ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٤، وكانت سنة إذ ذاك أربعا وعشرين سنة، وكان بذلك من أصغر الحاصلين على هذه الشهادة يومذاك.

وكان تاريخ دخوله امتحان الشهادة العالميـة هو ١٢ ربيـع الثاني ١٣٢٢ هـ، وقد أعجب به الإمام محمد عبده إعجاباً شديداً.

ولم يكن رحمه الله، من العاكفين على تناول علوم الأزهر وحدها وإنما كان يضيف إليها ما يشعر به هو نحو العلم من احتياجات، شأن الشبان الفائقين، فلقد أخذ دراساته الشخصية، من بطون الكتب، ومن منابعها الأصلية في المخطوطات والهوامش والمتون.. كما كان عاكفاً على دراسة الأدب، ودراسة الفلسفة وعلم الكلام، وما ذلك إلا استجابة منه للوقوف على روح الثقافة، ولذلك فقد نشأ صاحب عقلية مرنة مبسوطة، تمضي إلى الدقائق وما يخفي أمره على الكثيرين.

ولا جرم بعد ذلك أن يشيع اسمه بين الطلبة الذين أقبلوا حول حلقته بالجامع الأزهر، وهو يلقي عليهم الدروس بعد تخرجه، بطريقة جديدة، كان هدفها البحث عن الحقيقة، ووسيلتها التعريج بعقلية السامع إلى فنون الأدب وأشتات الفلسفة وأمشاج الكلام.

ورشـح بعـد لمنصب كبـير، هـو منصب القضـاء لمديـريـة دنقلة في

السودان، ذلك المنصب الذي ساعده على تسلق الحواجز السياسية، وإعلاء شأن كلمة الدين والحق بين الشمال والجنوب، فتتلمذ عليه الكثيرون من أبناء الجنوب، بعد أن استساغوا لذة الوطنية الإسلامية من شروح الشيخ الجليل لقضايا الوطن بين خلصائه وصفوة تلاميذه في السودان، وكان يعني بذلك المسلك أن رجل الدين إنما هو من رجال السياسة يدلي بدلوه فيها دون انغماس، حتى يكون القائد إلى تحقيق الوطنية الإسلامية، وفقاً لتعاليم الدين، لا انحيازاً إلى المعتقدات السياسية.

لقد كان الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ يعرف رسالة رجل الدين تماماً، وهي رسالة العالم الذي يعمل للحياة كلها، وللوطن الإسلامي كله، فلا يصدر رأياً إلا إذا كان الرأي لبنة في بناء هذا الوطن الكبير. ومن ذلك، أن سلاطين باشا يوم أن عرض عليه قبول منصب قاضي قضاة السودان ـ قبل أن يتولى منصب رئيس المحكمة الشرعية العليا ـ اشترط لقبول المنصب أن يكون تعيينه فيه بأمر يصدره خديو مصر، لا رجال السلطة الإنجليزية في السودان.

وفي عام ١٩٢٣ عين رئيساً للمحكمة العليا الشرعية، فواجه بمنصبه ذلك تلك الحوائل التي تمنى أن يقضي عليها بالمحاكم.

وكانت المحاكم الشرعية في ذلك الوقت تحكم في قضايا الزواج والطلاق وسائر الأحوال الشخصية، وفق القول الراجح من مذهب أبي حنيفة.

ولما كانت هناك أحكام أخرى تحقق التيسير على المتقاضين، فقد رأى أن يؤخذ بهذه الأحكام، وأن يعدل قانون المحاكم الشرعية.

وكان من رأيه الأخذ برأي ابن تيمية ومحمد بن قيم الجوزية في جعل الطلاق الثلاث في لفظ كلمة واحدة طلقة واحدة، وما كاد يجهر بهذ

الرأي في مشروع أعده، حتى استهدف لحملة عنيفة من بعض العلماء ورجال القضاء الشرعي .

ولكن تاريخه في العلم ، والدراسة، وتشربه من روح الإمام الأكبر الشيخ محمد عبده مكنته من الثبات للمعركة، والعمل على تيسير القضاء وتم له ما أراد .

ولعل ما كتبه في الرد على العلماء الذين تناقشوا معه في تيسير تعاليم الإسلام في المحاكم الشرعية مما يشرح عقلية الرجل المبسوطة في ثقافة الإسلام الممدودة في بطون أسفار العلوم الإسلامية، قال رحمه الله :

أثار مشروع قانون الزواج والطلاق حركة فكرية اجتماعية دينية، فنشط العلماء للبحث والاستنباط والرجوع إلى كتب الشريعة المطهرة، وتطبيقها على القانون، ونشط غيرهم إلى بحثه من الوجهة الاجتماعية، وما لنا لا نغتبط بهذا، وقد تستمر هذه الحركة، ويتجدد نشاط الفقه الإسلامي بعد ركوده في المتون والشروح، وتتجه إليه الأنظار وتتولد فكرة تهذيبية باختيار ما صح دليله وما قام البرهان على أن فيه مصلحة الناس من أقوال أئمة الهدى وفقهاء الإسلام .

وقد يقضي على تلك الفكرة الخاطئة فكرة وجوب تقليد الأئمة الأربعة دون سواهم سواء أوافقت مذاهبهم أم خالفتها مصلحة المجتمع .

أما جهوده في إصلاح الأزهر والعناية بإعادة سالف مجده إليه كأقدم جامعة في التاريخ، والجامعة الكبرى التي قامت على حفظ التراث الإسلامي ولغة القرآن فحديث معاد. . ويقول فيه الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم :

لقد كان المراغي ذا فطرة سليمة صافية، يمدها ذكاء شديد، واستعداد طيب، وكان مما أفاده وخرجه تخريجاً قوياً تلمذته على الرجلين العظيمين المغفور لهما الشيخ أحمد أبي خطوة والشيخ محمد عبده، فعنهما اكتسب الاستقلال في التفكير والميل إلى الحرية، والقصد في

الاعتقاد بما يراه أهل التقليد، وكان له مع هذا كله قدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، في لفظ رائق وأسلوب قوي وبيان فصيح، وهذا هو السر في أنه ظهر بين شيوخ الأزهر مبرزاً قوياً، مجلجلاً مدويا، وإن لم يكن أكثر علماً من الشيخ أبي الفضل ولا من الشيخ الشربيني .

إن العلم كسائر ما وهبه الله للناس، منه مبارك فيه، يجل به النفع، ويسري من صاحبه إلى غيره سهلاً مفيداً، ومنه ما ليس كذلك، وليست العبرة على كل حال بالقلة أو الكثرة، وقد كان المغفور له الشيخ المراغى كالمغفور له الأستاذ الإمام الشيخ عبده من أصحاب العلم النافع المبارك فيه. . ثم قال.

لقد كنت أنا والشيخ المراغى صديقين حميمين، كلانا يحب صاحبه، ويقدر فيه مواهبه، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة، مرت بها عهود، وأعمال مختلفة اشتركنا فيها ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد لأي من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خلافنا معروفاً للخاصة والعامة من الأزهريين وغيرهم، وسببه الجوهري ميله رحمه الله إلى ناحية السياسة الحزبية وشدة نفوري من ذلك، فإني أرى أن الخير كل الخير في أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية، وينأوا عن مكايد الحزبية ومتاعبها التي تقضي إلى ما لايحمد من العواقب، ولكن هذا الخلاف لم يخرج بي ولا به عن الجادة، وما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم من المودة والنصيحة، فكنت أبدي له ودي ونصحي، وأنقد مع ذلك بعض تصرفاته التي أرى أن مبعثها غالباً هو ذاك، وكان يتقبل ودي، ويبادلني إياه، ويعتذر عن عدم مشاطرتي الرأي فيما أنقده فيه، أو يبدي من المبررات ما يراه لفعله. وعلى كل حال لم يكن هذا الخلاف بالذي يقطع ما بيننا من محبة وتعاون، بل كان خلاف الشرفاء والحمد لله .

لقد كان رحمه الله في عهد مشيخته الأولى مؤيداً تمام التأييد، وكنت معجباً بآرائه وأفكاره الإصلاحية وطريقته في الإدارة، وتركيز قواه وما آتاه الله من مواهب في الأزهر وإصلاح شأنه، ولقد كنت أعاونه معاونة

قوية، وقد ظللت أقوم على رياسة قسم التخصص وأنا في منصب الإفتاء مدة طويلة، أشرفت فيها على تخريج مئات العلماء الأقوياء الذين يحملون الآن على عواتقهم أهم أعباء الأزهر، وكنت أشترك معه في كثير من اللجان العلمية: كلجنة الأحوال الشخصية ولجنة مناقشة الرسائل العلمية التي كان يتقدم بها طلاب شهادة العالمية من درجة أستاذ، وقد كانت هذه اللجنة تعقد أحياناً في الرواق العباسي، ويشهدها ــ والمناقشات العلمية على أتم ما تكون قوة ودقة ــ علماء الأزهر وطلابه والراغبون في العلم والبحث من غير الأزهريين . . وكما كان يتجلى في هذه المناقشات الحرة ذكاء الشيخ المراغى وعلمه وقوة تفكيره وإخلاصه للفكرة العلمية وحرصه على تبين الحق، وضرب المثل لأبناء الأزهر في تقبله والنزول على حكمه.

وكتب الأستاذ محمد فريد وجدي بمناسبة وفاته يقول: رزئت أسرة العلم في العالم الإسلامي كله بوفاة عميدها، غير مدافع، الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، فلا نقول: كان لها أثر بالغ في النفوس، ولكننا نقول: إنها كانت كارثة على الجهود النبيلة التي يبذلها العارفون بأمور الأزهر، ويعملون على إحلاله المكانة التي تناسب عظمة الاسلام، وتمثله على حقيقته في نظر العالم. نعم إن البذر الذي وضعه رحمه الله، لينتج هذا الأثر الفخم، بطيء النمو، ولكنه هو الدواء الوحيد لداء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. لسنا نعني بإصلاح الأزهر ترتيب الدروس في أوقاتها، وتوزيع مقررات الدراسات عليها، وتعيين المدرسين الأكفاء لتدريسها، ومراعاة كفايتهم في تحديد مرتباتهم، كل هذه الشؤون أعراض لا تمت إلى اللباب في شيء، وإنما إصلاحه الصحيح ينحصر في أن يصبح جهة دينية يسندها العلم وتؤيدها الفلسفة، بحيث يتفق ذلك وحقيقة الإسلام ومعناه، ولا يدع في صدر مستشكل اعتراضاً بأن الأزهر يمثل عهداً لا يمت إليه اليوم أحد بسبب. هذا الاصلاح، إن لم يصل إليه الأزهر في يوم من الأيام، في غير تطرف ولا تعسف، تلمس المسلمون

ما يمثل مطالب روحهم في مكان آخر، أو ـ وهو الأرجح ـ اندفعوا في تيار الفلسفة المادية لا يلوون على شيء، على مثال غيرهم من الأمم الأخرى. إن الشيخ المراغى كان يجيد فهم هذه الناحية من نفسية المعاصرين، وكان يعمل في سبيل الوصول إلى ما أشرنا إليه في تؤدة ورفق، صابراً على ما يحتوش هذه التؤدة، مما يخيل أنها الوقوف بل القهقري بل الانحلال الذريع، والحقيقة كانت غير ذلك لمن يتأملها تحت ضوء النظر البعيد، والتفكير العميق في مستقبل العقيدة الإسلامية .

كان المراغى يعلم أن العالم المتمدن اليوم انتهى إلى حد من عقائده، أملته عليه فلسفة بوخنر وهايكل ومولخوت الخ، وان العالم الإسلامي يترسم خطواته شبراً بشبر، مدفوعاً بطبيعة الدراسات العلمية التي لا بد له منها، وكان يعلم أن الأزهر في حالته التي هو عليها لا يصلح أن يقف حائلاً دون هذا التطور، وإنه لا بد له من انقلاب ذريع يطرأ عليه ليصبح جديراً بالمهمة التي أرادها مؤسسوه منه في كل عهد فماذا يفعل ؟ وليس بين يديه ممن يحسون بهذا الخطر سوى عدد نزر، لا يكفون لإحداث انتقال خطير، يتأدى به إلى غرضه بالسرعة المرجوة ؟

اضطر لأن يسير وئيداً، والسير الوئيد في مثل هذا العهد جريمة . فماذا يفعل والأحوال حوله تجري في تيار معاكس ؟ وكثيراً ما رأى أن الأولى به التخلي عن وظيفته، لولا أن الشعب كان يرى أن ليس لهذه المهمة العالمية غيره فيتمسك به .

الشيخ مصطفى عبد الرازق

ولد رحمه الله عام ١٨٨٥ بأبي جرج من أعمال مديرية المنيا، وهو الابن الثاني من أولاد المرحوم حسن عبد الرازق باشا، وبعد أن أتم تعليمه الأولى حفظ القرآن الكريم وجوده، ثم التحق لطلب العلم بالأزهر الشريف وتخرج في سنة ١٩٠٦ وحصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى بين زملائه الشافعية. وعين للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي، وفي سنة ١٩٠٩ سافر إلى فرنسا والتحق بجامعة السربون ليضم إلى ثقافة الشرق ثقافة الغرب وندبه مسيو لابيير لتدريس بعض المباحث الإسلامية بجامعة ليون، ثم عاد من فرنسا في أوائل الحرب الكبرى وعين سكرتيرا لمجلس الأزهر وكان ذلك في سنة ١٩١٦ وفي سنة ١٩٢١ عين مفتشاً في المحاكم الشرعية، ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وظل في كرسي الأستاذية حتى اختيرفي سنة ١٩٣٨ وزيراً للاوقاف في وزارة المغفور له محمد محمود باشا الثانية واختير عدة مرات في وزارات مختلفة لتولي هذا المنصب حتى انتقل المغفور له الشيخ المراغي شيخ الأزهر إلى جوار ربه، فاختير لهذا المنصب وهو وزير الأوقاف وصدر الأمر الملكي بتعيينه شيخاً للأزهر في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥، وظل في هذا المنصب حتى لقي الرفيق الأعلى وقد اختير أميراً للحج في العام الذي توفي فيه، فكان خير مبعوث لمصر بين أبناء البلاد الإسلامية عند البيت الحرام. ويقول عند الأستاذ محمد فريد وجدي حين وفاته: انتقل إلى عالم الأرواح الخالدة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، شيخ الجامع

الأزهر، وهو أصح ما يكون جسماً وعقلاً، فكان لهذه الفجاءة أثر في النفوس لم نشهد مثله لأحد قبله، لأن الناس كانوا أحوج ما يكونون إلى مثله في هذا العهد من الانتقال، وفي هذا الدور من الاعتراك بين القديم والحديث، وكان الأستاذ بشخصيته الممتازة، وسعة أفقه الثقافي خير من يدرك آثار هذا العهد في حياة الأمم، وأصلح من يوكل إليه أمر التوفيق بينهما لمصلحة الدين والدنيا معاً. فلا غرو إن ساور الهلع كل نفس تنتظر عهد الاستقرار والهدوء والتقدم. لم أر فيمن قابلت من القادة والأعلين أكرم خلقاً في غير استكانة، ولا أهدأ نفساً في غير وهن، ولا أكثر بشاشة في غير رخوة، من الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكل ذلك إلى حزم لا يعتوره لوث، واحتياط لا يشوبه تنطع، وأناة لا يفسدها فتور، وإدمان على العمل ينسى معه نفسه، وهي صفات كبار القادة. وعلية المصلحين، ممن خلقوا لمعالجة الشؤون المعقدة، وحسم المنازعات الشائكة، والتوفيق بين المطالب المتنافرة، وهذه مواقف كما تقتضي مضاء العزيمة، تحتاج إلى هوادة الأناة، وكما تستدعي سرعة البت، لا بد لها من القدرة على إزالة الحوائل، وقديماً قالوا: رب عجلة أورثت ريثاً، ورب إقدام جر إلى نكوص، فكان بما حباه به بارئه من هذه المواهب النادرة، كفاء المهمة التي وفق المسؤولون في إسنادها إليه، وكنت لا أشك في أنه بما جبل عليه من حب الإصلاح، وما اتصف به من الصفات التي سردناها آنفاً، سيصل إلى حل مشكلة الأزهر حلاً حاسماً، يعيش تحت نظامه آمناً شر العوادي، وفي منجاة من عوامل القلق والاضطراب. ذلك أنه بما تضلع من إلمام بنظم الجامعات، وما حصل من علم بمقوماتها وحاجاتها؛ لتمضيته في صميمها سنين طوالاً من حياته طالباً ومدرساً، يعرف من أسرار حياتها وبقائها وبواعث عللها وأعراضها، ما لا يعلمه إلا الأقلون، والأزهر لا يخرج عن جامعة قديمة في دور انتقال، تتفاعل لتتناسب والعهد الذي تعيش فيه، فهي في حاجة إلى أن تحصل على المقومات التي تؤاتيها بهذا التناسب، وهو لا ينحصر في زيادة ميزانيتها، ولا في تهذيب برامج

دراستها، ولكنه يتعداهما إلى ما هو إيجاد المجال الحيوي لخريجيها.

ولد فقيدنا أجزل الله ثوابه في قرية أبي جرج بمديرية المنيا سنة (١٣٠٤) هـ الموافقة لسنة (١٨٨٥) م وتلقى التعليم الأولى فيها، ثم بعث به والده إلى الأزهر فلبث فيه اثنتي عشرة سنة. ولما نال درجة العالمية فيه أسندت إليه مهمة التدريس في مدرسة القضاء الشرعي. ثم رأى أن الأولى به أن يتمم ثقافته بالمعارف الغربية، فأم باريس، والتحق بجامعة (السوربون) المشهورة ونال إجازة في الأدب الفرنسي والفلسفة، وانتقل من السوربون إلى معهد الدراسات الاجتماعية العليا لينال حظاً من معارفها. ثم دعاه الأستاذ لامبير إلى ليون ليلقى محاضرات في الشريعة الإسلامية، ويقوم بتدريس اللغة العربية هناك، فلم تمنعه هذه الأعمال من متابعة دراساته في الفلسفة والأدب الفرنسي. وفي هذه الأثناء تتلمذ للأستاذ جوبلو، الذي كان مرجع علم المنطق في فرنسا إذ ذاك، ولما عاد إلى مصر سنة ١٩١٦، عين سكرتير المجلس الأزهر الأعلى، ثم مفتشاً للمحاكم الشرعية سنة ١٩٢١. وفي سنة ١٩٢٧ عين أستاذاً للمنطق والفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد، وإليه يرجع الفضل في إحياء المصطلحات العربية القديمة واستعمالها في تعليم فروع الفلسفة.

ومما هو جدير بالذكر أن جميع مدرسي الفلسفة في عهدنا الحاضر بجامعتي فؤاد والاسكندرية من تلاميذه، ولم تنقطع صلتهم به، وقد أسندت إليه وزارة الأوقاف مرتين[١]، ولما توفي الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي، وعز وجود من يملأ مكانه، أسندت المشيخة إليه في ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٥.

ومن مؤلفاته العديدة:

---

(١) وأسفرت الوزارة كذلك إلى شقيقه علي عبد الرازق من بعده، وتوفي علي عبد الرّازق من ١٩٦٦/٩/٢٤.

١ - ترجمة فرنسية لرسالة التوحيد تأليف الشيخ محمد عبده، وضعها بالاشتراك مع الأستاذ ميشيل، وحلاها هو بمقدمة طويلة.

٢ - رسائل صغيرة بالفرنسية عن المرحوم الأثري الكبير بهجت بك، وعن معنى الإسلام ومعنى الدين في الإسلام،

٣ - كتاب التمهيد لتاريخ الفلسفة.

٤ - فيلسوف العرب والمعلم الثاني. لاسلامية.

٥ - الدين والوحي في الإسلام .

٦ - الإمام الشافعي.

٧ - الامام محمد عبده، وهو مجموع محاضرات ألقيت في الجامعة الشعبية سنة ١٩١٩ .... وكلها مؤلفات تعتبر غاية في الإفادة.

وله كتب لم تنشر، منها مؤلف كبير في المنطق، وكتاب في التصوف، وفصول في الأدب تقع في مجلدين كبيرين. وكان رئيساً لمجلس إدارة الجمعية الخيرية، التي كان والده من مؤسسيها، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية، والمجمع العلمي المصري.

وفي ٢٧ مارس عام ١٩٤٧ أقيمت حفلة لتأبينه في جامعة فؤاد الأول، ألقى فيها لطفي السيد وعبد العزيز فهمي والدكتور حسين هيكل ومنصور فهمي وإبراهيم دسوقي أباظة وطه حسين وأمين الخولى والعقاد وسواهم كلمات وقصائد في الإشادة بمناقبه. وألقى الشيخ محمد عبد اللطيف دراز في الحفلة كلمة جاء فيها:

عرفت مصطفى عبد الرازق سكرتيراً عاماً لمجلس الأزهر الأعلى، وعرفته موظفاً في وزارة العدل بعد إبعاده عن الأزهر بسبب موقف وطني كريم، وعرفته أستاذاً في الجامعة، ووزيراً، وشيخاً للجامع الأزهر، وخالطته أطول مخالطة، وخبرته أشد الخبرة في كل ما ينبغي أن يعرف صديق عن صديق، وأخ عن أخ، فأشهد ما تقلب به دهر، ولا حاد عن

عهـد، ولا زال عنـه من خلق الـرجـال مـا يـزول عن المستـرجلين والمتعاظمين، إذا دالت الدولة ونبا الزمان وتقطعت بهم الأسباب، فهو راض وإن سخط غيره، وهو سمح وإن تعسر الزمان.

كـان مصطفى عبـد الرازق مثقفـا، ولكن أية ثقـافـة هي؟ هي الثقـافـة الإسلامية التي أفنى العمر في تصويرها والدعوة إليها، وحمل الأمة عليها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد مصطفى المراغي وغيرهم من قادة النهضة وأئمة الإسلام في عصرنا القريب. كان هو المثال الذي تمثلت فيه هذه الثقافة الحية الناهضة الجامعة بين خير ما في الشرق وخير ما في الغرب من تراث الإسلام الطاهر، وثمرة العقول الناضجة، وبهذا نعلم مقدار خسارتنا وخسارة الأزهر والإسلام بفقد هذا الرجل. كان مصطفى عبد الرازق مؤمناً، وإيمانه هو الذي كون له هذه النفس القوية العظيمة، فإن الثقافة وحدها لا تصنع النفوس، فنحن نرى بعض المثقفين يتخذون من ثقافتهم طريقاً لمجرد كسب العيش، وهي في البعض الآخر طريق إلى الشرور والمآثم والفتن، تشقى ولا تسعد، وتدمر ولا تعمر، وتهلك الحرث والنسل، ويبغى بها الناس بعضهم على بعض، ويسعون بها في الأرض فساداً، فما أبعد الفرق بين هذه الثقافة وبين كرائم الإيمان! . تلك مادية صرف، وليس من هذا فقط كان فسادها فقد تنفع المادة وتصلح، ولكن فسادها كان من أن الشيطان تولى زمامها فصرفها عن غايتها المثلى وأركسها في الشهوات والأهواء. أما مواهب الايمان فهي نفحات قدسية تملأ القلب هداية ونوراً، وسكينة وثباتاً، وأمناً وسلاماً، ومحبة ورضا، وأملاً في الله ومراقبة له، وعملاً لوجه ربك ذي الجلال والإكرام. وهذه هي السعادة التي جاء بها المرسلون وجاهد في سبيلها المصلحون، وسعد بها المؤمنون، فإذا هيء لنفس طيبة نبيلة أن تجمع بين هبة الدين الحق والعلم الصحيح، فقد أشرقت بنور على نور، ونور الإيمان بالله يملأ القلب، ونور العلم يهتدي به العقل في الوصول إلى الحق. وكذلك كان فضل الله ونعمته على فقيدنا الكريم عليه رحمة الله:

جمع الله له من خير ما يحمد لعباده الصالحين، فمنحه سلامة الفطرة، فكان من أسلم الناس نفساً، ومنحة سداد العقيدة فكان من أنفذ الناس بصيرة في الدين، ومن أشدهم استمساكاً به واعتصاماً بهديه، ومنحه العلم الصحيح والمعرفة الواسعة فكان من أجمع الناس لعلوم الشرق والغرب، تمثلهما عن خبرة ودراية وإمامة، وهو بهذا من الأمثلة الكاملة في الشرق للثقافة الإسلامية الكاملة. فإذا أراد الأزهر مثالاً أعلى لأبنائه وإذا أراد الأزهر مثالاً أعلى لشيوخه ورؤسائه، فإن مصطفى عبد الرازق هو المثل الذي يعز نظيره ويندر وجوده. وهل هناك أدلة على بنوته الأصيلة للأزهر من أن ثقافته الحديثة لم تحل بينه وبين أزهريته في جميع مراحل حياته، وبقي ابناً للأزهر في روحه وعمله وفي وفاته لأصدقائه؟ وقد بالغ في التمسك بأزهريته إلى حد أنه وقد تقلد منصب الوزارة لم يستطع أن يغير زيه الأزهري وقد قبل منه ذلك على روى. وهل هناك دليل على تأصل الروح الأزهري في نفسه أظهر من هذا؟ إن الطلبة الأزهريين الآن يحاولون أن يخلعوا أزياءهم ليبرزوا في صورة أخرى زعموا أنها هي الموافقة لروح العصر، فكيف تقول في رجل سافر إلى أوروبا وتولى من المناصب وخالط من الأشخاص والهيئات والبيئات ما كان يلح في دعائه إلى تغيير زيه فلم يجد منه ذلك كله إلا إباء وامتناعاً واعتصاماً بكل ما يدل على أنه ابن الأزهر؟ ومسألة الزي عندنا مسألة شكلية، ولكني قصدت أن أشير إلى مظهر للأزهرية الأصيلة في نفس مصطفى عبد الرازق، وهذه الأزهرية الصحيحة هي التي مكنت له أن يجمع بين ثقافة الشرق والغرب فلم يختلفا عليه، ولم يستعص عليه أمرهما كما استعصى على غيره. وإذا تحدث متحدث عن مصطفى عبد الرازق فلن يستطيع أن يغفل الحديث عن سماحة نفسه وعطفه على المحتاجين، وإن كان حديثه معاداً، لأن في تكرار هذا الحديث متعة لنفس المتحدث ونفوس السامعين، يعرف هذه السماحة كل موطن من المواطن التي عاش فيها الفقيد موظفاً وغير موظف، في الجامعة وفي الأزهر، يعرف الطلبة الذين كاد الفقر أن يحول بينهم

وبين عائلتهم، فكان مصطفى عبد الرازق هو الذي يكفيهم، وهو الذي يفرج عنهم - بفضل الله عليهم وعليه - هذه الشدة، وتعرفه عائلات فقيرة أخنى عليها الدهر، فكان مصطفى عبد الرازق غوثها ومددها وعائلها، يخفى ذلك عن الناس، ولو استطاع لأخفاه عن نفسه، حتى لا تعرف شماله ما تنفق يمينه.

وفي مارس عام ١٩٤٧ أيضاً أقام معهد المنيا الديني حفلة تأبين للمغفور له الأستاذ الأكبر الراحل، ألقى فيها صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون خطبة بليغة جاء فيها: فجع الأزهر في شيخه فجاءة، فكانت صدمة الفجيعة فيه شديدة، صدمة روعت القلوب، وأذهلت النفوس، وأدهشت العقول. وقعت الواقعة في وقت كان الأزهر يستشرف بواكير أعمال شيخه الجليل وإصلاحاته التي وضع أسسها في أيامه القليلة التي قضاها بين ربوعه. . إن الشيخ مصطفى كان يحمل على أطواء قلبه النابض بالخير للأزهر والإسلام بنود العمل المجيد، والنهضة الصالحة للجامعة الأزهرية بما يكفل لها الحياة الأزهرية القيمة، والمستوى الرفيع بين جامعات الأمم المتحضرة. وكان طموحه وهدفه أن ييسر للأزهر النهوض برسالته الدينية والجماعية، ونشر السلام والطمأنينة في هذا العالم المملوء بالشرور والقلق الروحى.

كان يجمعنا إليه ويضع الاقتراح في مسألة معينة من مسائل الإصلاح في الأزهر، ونتداول الرأي فيها ويدلى هو برأيه كالمستفهم، وفي النهاية يستقيم الأمر على الأساس الذي ارتآه في نفسه وفي سريرته. وهكذا دواليك، حتى اجتمع من ذلك جملة مسائل للإصلاح الذي انتواه، ووضع أساسه، وأزمع إجراءه. وفي الحق: انه ما كان يقطع برأى دون الإجماع منا على استحسانه ونفعه، وكان سبيله في الإقناع الرفق واللين، والحجة الناطقة، والبرهان الواضح. وضع مرة مسألة أمامنا: فقيدنا العظيم، ووكيل الأزهر، ومديره، والماثل أمامكم. تداولنا الرأي في المسألة فكان رأيي مخالفاً للجميع في صلابة. فابتسم المغفور له ابتسامة عميقة الإحساس،

ثم قال: لعل لفلان حجة يكون فيها مقنع لنا. وما زال بي يلطف ويرق، ويعالج ويقنع، حتى جرني إليه وأسلس قيادي، فكنت في صف الجماعة. وكان شيخنا كثير الحلم والأناة. وأذكر أنه عرض من بعض الطلبة شيء مخالف قبيل وفاته مما يستفز صدر الحليم، فرعد وزمع، وتمعر وجهه على غير عادته، فقلت: سيدي أين غاب عنك حلمك، ولم تغيرت عادتك في هذه المرة؟! فقال مبتسماً، وفي صوت مرنان: ومن ذا الذي ياعز لا يتغير؟ إن الأزهر حين فجع في شيخه الأكبر، فإنما فجع في أسمى وأطيب وأعرق الخلال الكريمة التي لو وزعت على جماعة كثيرة لوسعتهم جميعاً، وكان أجلى ما في خلاله الوفاء، الوفاء الخالص المتصل، لأصدقائه ولداته، والعفاة المحرومين الذين اتصلوا به، وكان إلى جانب الوفاء الكرم والسماحة، كرم النفس، وسماحة الصدر إلى حد التضحية بكل نفيس في سبيل ذلك. وفي جانب الوفاء والكرم والسماحة والحياء.

ومن كلماته كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيساً فخرياً لجمعيات المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراغي، قال فيها:

«القرآن مصقلة القلوب كما ورد في الحديث، وما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها ويجلو منها الصدأ! والقرآن هدى ونور، فهل إلا القرآن لما يغشى العالم اليوم من ظلام وضلال، والقرآن من بعد هذا ثقاف للألسن، يقوم عوجها، ويصلح عجمتها، ويغذى من البلاغة مادتها، فمن عمل على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن وترتيله ومدارسته، فإنما يصلح القلوب، ويقوم الأخلاق، ويخدم العربية، وما أشرف ذلك مقصداً وأعظمه نفعاً!»

ويتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوي بعد وفاة الرئيس الفخري السابق رضى الله عنه أن نذكر مآثره الباقيات في خدمة القرآن الكريم: كان رحمه الله مسلماً صادقاً، وكان يحب القرآن حباً جماً، وقد عنى في أكثر دروسه الدينية بالتفسير في أسلوب يلائم جلال كتاب الله، ويوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الإمام «الشيخ محمد عبده». ووجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالية لعلوم

القرآن، وقد أنشأ معهد القراءات والتجويد، والمرجو أن يتابع الأزهر السير في هذه السبيل، فيقوى معهد القراءات ويكمله، وينشىء إلى جانبه دراسات عالية للحديث وعلومه، حتى يستوفي الأزهر جميع الوسائل التي تعده لأن يكون كعبة المسلمين في كل ما يتصل بالقرآن والحديث. وفي مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق[1].

رأي طه حسين في الشيخ

كتب طه حسين عن مصطفى عبد الرزق يقول:

كنت في السادسة عشرة حين لقيته لأول مرة حين أقبل زائراً لثلاثة من رفاقه في الأزهر، بينهم أخي، وكانوا جميعاً يقيمون في غرفات متقاربة في ربع من تلك الربوع التي كان طلاب الأزهر يحتلونها في حوش عطى.. وكانوا يجتمعون في غرفة أحدهم حين يزورهم الزائرون، وقد كان الاجتماع في غرفتنا تلك المرة. وقد لقيت منه شاباً حار الصوت، صادق اللهجة، عذب الحديث، لا يرفع صوته إلا بمقدار، وكان قليل الحركة، معتدل النشاط، يمتاز من رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادىء المطمئن الذي لا يتسم به الشباب عادة، وإنما هو سمة الشيوخ ومن يجري مجراهم من الذين تقدمت بهم السن.

كان جم الأدب، موفور التواضع، لا يتجاوزر القصد في قول أو عمل، يفرض عليه طبعه ذلك، ويفرضه هو على الذين يجالسهم أو يتحدث إليهم، كأنما كان يلقي في نفوسهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم، فضلاً من وقاره وهدوء نفسه. فهم يتحدثون مثله في أناة، ويضحكون مثله في قصد، ويروون معه أحاديث الجد، وربما عبثوا شيئاً بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر. ومضى وقت غير قصير قبل أن تقوى الصلة بينه وبيني.

(١) عدد شعبان ١٣٧٠.

كان قد أشرف على الخروج من طور الطلب إلى طور العلماء، وكنت في أول عهدي بالدرس، لم أنفق في الأزهر إلا عامين أو ثلاثة، وكان أولئك الرفاق يلقونه في درس الأستاذ الإمام، ويزورونه ـ إذا أقبل الليل ـ في داره بعابدين . فإذا عادوا تحدثوا عنه وعن إخوته ، وعمن كانوا يلقونه في تلك الدار من أصحاب المنازل الرفيعة، يملأون أفواههم بهذه الأحاديث، ويشعرون بأنها ترفعهم درجة عن أمثالهم من الطلاب .

وكان أولئك الرفاق يمتازون من زملائهم بالذكاء، وحسن التحصيل، والبراعة في مجادلة الشيوخ. وأكبر الظن أن هذا هو الذي لفت إليهم زميلهم مصطفى عبد الرازق، فقد كان شديد الحرص على أن يصل أسبابه بأسباب الذين يحبون العلم، ويمتازون فيه، كأنه أخذ هذه الخصلة عن والده وعن أستاذه الإمام، فكلاهما كان يرى حب العلم نادراً في مصر، ويبحث عن الذين يتصفون به بين طلاب الأزهر وغيرهم من الشباب. وقد ظلت هذه الخصلة ملازمة لمصطفى عبد الرازق حياته كلها، وقد وصلت أسبابه بكثير من الذين امتازوا في طلب العلم بين الأزهريين وبين المختلفين إلى مدرسة القضاء وبين الجامعيين آخر الأمر، على اختلاف بيئاتهم وطبقاتهم .

وكان لا يعرف محباً لطلب العلم مخلصاً في هذا الحب إلا سعى إليه واتصل به وقربه منه وفتح له قلبه وعقله وداره أيضاً. ومهما أنس فلن أنسى تلك الجماعة التي ألفها من بعض أولئك الممتازين من طلاب العلم في الأزهر، ونظم لها اجتماعا برياسته مساء الجمعة من كل أسبوع. وكانت هذه الجماعة تلتقي في غرفة من غرفات الطلاب في ربع من ربوعهم أيضاً بخان الخليلي، ويلقي أعضاؤها أحاديث في موضوعات مختلفة تدور كلها حول الإصلاح الذي كانت مصر كلها تتحرق ظمأ إليه، وإلى إصلاح الأزهر خاصة بعد أن شب الأستاذ الإمام في قلوب الممتازين من شبابه جذوة الثورة على ذلك الركود الذي اطمأن إليه الأزهر قروناً طوالاً .

وكان افتتاح مصطفى عبد الرازق لجلسات تلك الجماعة هو أشد ما يعجبني ويروعني، فهو لم يكن يزيد على أن يسمي الله ويقرأ الفاتحة، ثم تأخذ الجماعة فيما تريد أن تدير بينها من الحديث وأي افتتاح أبلغ وأوقع في القلوب من اسم الله وفاتحة الكتاب السجيد! وقد عرفت بعد ذلك أن مصطفى عبد الرازق كان يذهب في ذلك مذهب الوفاء الصادق لأستاذه الإمام الذي افتتح رسالته في التوحيد نفس هذا الافتتاح.

وإذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هو الخصلة الأولى من الخصال التي لزمته حياته كلها، فخصلة الوفاء هي الخصلة الثانية من خصاله. فقد عرفته محباً للعلم وطلابه كأشد ما يكون الحب وأصدقه وأعمقه، يسعى إليهم ويقربهم منه ويؤثرهم بالخير وينزلهم من نفسه مكانة الصديق، وعرفته كذلك وفياً لكل من أحب من الناس لا يفرق بينهم في ذلك مهما تكن الظروف ومهما يبعد بهم الزمان والمكان ومهما تلم الأحداث وتدلهم الخطوب.

كان وفياً للشافعي، رحمه الله، لأنه كان يذهب مذهبه في الفقه، ويرى الوفاء له ديناً عليه. ومن أجل ذلك ترجم رسالته وعني بدرسها وترجمتها وقتاً غير قصير. وأثر هذا الوفاء للشافعي في حياته العقلية نفسها وفي نهجه الفلسفي تأثيراً شديداً، وفتح له أبواباً من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين. فدراسته لرسالة الشافعي في الأصول ألقت في روعه رأياً خصباً لم يستغله تلاميذه بعد، وأرجو أن يتاح لبعضهم تعمقه واستقصاء آثاره الخطيرة في تاريخ الحياة العقلية للمسلمين. فقد رأى أن الشافعي يفلسف في أصول الفقه وما يتصل به من المشكلات المختلفة في الدين واللغة واستنباط الأحكام من النصوص، فارتقى برأيه هذا إلى من سبق الشافعي من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا في أصول الفقه وحدها، بل جادلوا في أصول الدين أيضاً، فأولئك الزعماء القدماء للأحزاب الإسلامية الأولى. حين كانوا يجادلون في مذاهب أحزابهم وآرائها فيمن ثاروا بعثمان ومن تابعوا علياً ومن خاصموه ومن وقف من هذه

الفتنة موقف الحياد، وحين كانوا يجادلون في مقترف الكبيرة أمؤمن هو أم كافر أم هو يصير إلى منزلة بين منزلتين من الإيمان والكفر أم هو مرجأ إلى الله يقضي في أمره بالحق؟ وحين صاروا من هذا الجدال إلى الجدال في أمور أخرى أعمق من هذه الأمور، فجادلوا في العدل والتوحيد، إنما كانوا يفلسفون في مسائل الدين قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين واليهود. ومعنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم، وكانت فلسفة يسيرة سمحة كالإسلام نفسه، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها ما في هذه الفلسفة من العسر والتعقيد.

وكذلك جره الوفاء للشافعي، رحمه الله، إلى استكشاف مذهب جديد في الفلسفة الإسلامية له خطره العظيم أن عرف تلاميذه كيف يتعمقون وينتهون به إلى غايته .

وكان وفياً للذين عرفهم وحسنت الصلة بينه وبينهم من الأساتذة الفرنسيين حين أقام في فرنسا طالباً للعلم الحديث، بعد أن أخذ بحظه من العلم القديم في مصر .

عرف أستاذاً فرنسياً شاباً في إحدى الجامعات هناك واشتد الألف بينهما، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، ودعى ذلك الأستاذ الفرنسي إلى أداء واجبه العسكري، فاستجاب للدعاء وترك زوجة وليس لها عائل، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه بالنصيب الأوفر مما كان يصل إليه من المال، لا يتردد في ذلك ولا ينقطع عنه حتى عاد إلى مصر. والله يعلم ماذا فعل بعد عودته. وقد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسي نفسه، وقد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث، وظل وفياً لهذا الأستاذ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، ومضى شيء من الوقت، وخلا منصب فني من المناصب في مصر، ولم يكن بين المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب، وأخذت الحكومة تبحث عن أجنبي - جدَّ مصطفى حتى اختير صديقه ذاك لهذا المنصب. وسألته عن عنايته الخاصة بهذا

الأستاذ وجده في السعي له، فأنبأني بأنه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولاً، وبأنه فقد زوجه وجزع لفقدها، فمن الخير أن يترك وطنه ومدينته ويشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد في ذلك عزاء وتسلية.

وربما جر عليه وفاؤه ذاك بعض ما كان يضيق به من الأمر، ولكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيراً أم شراً، بل لم يحفل قط بعواقب الواجب وما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه. كان سعد زغلول منفياً عن وطنه وكانت زوجه تعيش في دارها بالقاهرة يبرها المصريون والسعديون منهم خاصة، وكان مصطفى من أسرة تذهب مذهب الأحرار الدستوريين الذين كانوا يخاصمون سعدا أشد الخصام، وكان مفتشاً قضائياً بوزارة العدل، وأقبل عيد من الأعياد، فلم يتردد مصطفى في أن يذهب إلى دار سعد ويترك بطاقته هناك.

وانقضت أيام العيد، وذهب مصطفى إلى عمله، فلم يكد يستقر في مكتبه حتى دعي للقاء الوزير. فلما لقيه قال له الوزير: ألم أعلم أنك ذهبت الى دار سعد وتركت فيها بطاقتك يوم العيد؟ قال مصطفى: قد كان ذلك. قال الوزير: أو لم تعلم أن سعدا يناوىء الحكومة القائمة وأن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى: تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة ولا بالحكومة، قال الوزير: فأنت مفصول منذ الآن. قال مصطفى: أنت وما تريد. وعاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان. ولكن رئيس الوزراء ثروت باشا، رحمه الله، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه، وترضى ذلك الوفي الذي وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء.

والبر بطلاب العلم خاصة، وبكل من يحتاج إلى البر عامة، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق. فلم أعرف قط قلباً ابر بفقير ولا نفساً أرق لذي حاجة، ولا يداً أسرع إلى العطاء، من قلب مصطفى عبد الرازق ونفسه ويده.

كان أستاذاً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكنت لها عميداً في

بعض الأوقات، وكان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية في الكلية إذ ذاك، فكان يسعى إلي في بعضهم، فأجتهد له في ذلك حتى لا أجد سبيلاً إلى الاجتهاد، فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد. وكلمته في ذلك ذات يوم وقلت له: توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر، فضحك ضحكة حلوة، وقدم إلي سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التي لم أنسها قط، والتي ينبغي أن يذكرها كل قادر على العون: وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى ؟

كان وفياً وكان أبياً وكان براً وكان سمح الطبع والنفس والقلب. لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت. وكان لهذه الخصال كلها تأثير أي تأثير في حديثه إذا تكلم وفي فنه اذا كتب. واقرأ ما شئت من فصول هذا الكتاب: ما كتبه منها أيام شبابه الأول، وما كتبه منها بعد أن تقدمت به السن، ما كتبه منها حين كانت الأيام هينة لينة، وما كتبه منها حين كانت الأيام شداداً ثاقلاً .

لم يكن شيء قادرا على ان يغير من خصاله تلك شيئاً. كان سمحا في جميع أطواره وفي أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف. كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه، والحديث العذب ألزم شيء له. وكان يضيف إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب، وهي خصلة العناية الدقيقة جداً بالتفكير أولاً وبالتعبير بعد ذلك عما فكر فيه. كان لا يكره شيئاً كما كان يكره العجلة في القول والعمل والمشي أيضاً .

كان شديد الإيثار للإناة . وكان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق والزملاء، فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات، ويحضر أعضاء هذه الاجتماعات في الموعد المقدر لا يتأخرون عنه إلا الدقيقة أو الدقائق القليلة إلا مصطفى، فكان يأتي دائماً متأخراً جداً وكان زملاؤه لا يحبون

أن يأخذوا في العمل قبل حضوره. فكانوا ينتظرون ويتنـظرون، وربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق، ولكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة تلك، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له، ولا يأخذون في عملهم إلا بعد دعابة لا تمل.

وكان لهذه الأناة أثرها في كتابته، فأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافراً أو فجاً لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه. وأنت لا تجد فيما يكتب لفظاً نابياً عن موضعه، أو كلمة قلقة في مكانها، وإنما كان كلامه يجري هادئاً مطمئناً كما يجري ماء الجدول النقي، حتى حين يداعب صفحته النسيم وكنت أشبه له كتابته بعمل صاحب الجواهر: يستأني بها ويتأنق في صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة تثير فيمن يراها المتعة والرضى والإعجاب. كان يتأنق في فنه كما كان يتأنق في حياته كلها، وكما كان يتأنق في سيرته مع الناس جميعا، سواء منهم من كان يألف ومن كان يجفو. فلست أعرف أن أحداً سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه. كان راضي النفس، يبعث الرضى في نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرؤون له.

واني لأذكر حديثاً له ألقاه في مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين في مدينة «ليدن» وكان المؤتمرون كثيرين، وكانت أحاديثهم كثيرة متنوعة، وكان رئيس الجلسة مضطراً إلى أن يقدر للمتحدثين عشرين دقيقة لا يعدوها احد مهما يكن حديثه. وقد التزم المؤتمرون ذلك ولم يخالف عنه أحد منهم. فلما أخذ مصطفى في حديثه في صوته ذاك الهادىء العذب الرقيق أصغت إليه الآذان، ثم صغت إليه القلوب، ثم اتصلت به النفوس، وكان يقطع حديثه بين حين وحين ويلتفت إلى الرئيس مبتسماً كأنه يسأله: أيمضي في حديثه! فيشير الرئيس إليه: أن نعم، حتى إذا أتم حديثه كان قد جاوز الأربعين من الدقائق. لم يحس أحد أنه قد أطال، وأخذ من الوقت أكثر مما كان ينبغي له.

واقرأ هذا السفر الضخم الذي تختلف فيه الأحاديث والموضوعات

اختلافا شديدا فستراه على ذلك مؤتلفاً أشد الائتلاف يؤلف بين مختلفاته ما تفيض عليه نفس الكاتب الهادئة السمحة الرزينة من هدوء سمح رزين. ولو أني أرسلت نفسي على سجيتها لما وجدت لحديثي عن مصطفى غاية انتهى اليها أو حدا أقف عنده .

فاشهد ما مر بي يوم دون أن أفكر فيه يقظاً، وأشهد ما مر أسبوع دون أن أراه فيما يرى النائم، كما كنت ألقاه اثناء الحياة .

فلأخلص أنا للتفكير في هذا الصديق العزيز، ولتخلص أنت لقراءة أصدق حديث لأخ عن أخيه اولاً، وأسمح كلام كتبه كاتب في هذا العصر الحديث بعد ذلك .

الشيخ مأمون الشنّاوي شيخ الأزهر

١٨٨٠ - ١٩٥٠

- ١ -

من بيت علم وتقوى وصلاح ، كان والده الشيخ سيد أحمد الشناوي من مركز السمبلاوين ، وأقام في بلدة الزرقا من أعمال مديرية الدقهلية لمصالح مالية له ، وكان عالماً جليلاً متفقهاً في شئون الدين ، وكان أخوه الأكبر فضيلة الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ سيد الشناوي من كبار رجال القضاء الشرعي ، وتولى رئاسة المحكمة العليا الشرعية ، ومات بعد أن ترك وراءه ذكرى عاطرة ، وآثاراً طيبة في القضاء ، وأحكاماً تعد مثالاً يحتذى في سلامة الفهم ، ونفاذ الخاطر ، وسعة الإطلاع .

- ٢ -

ولد عام ١٨٨٥ ، وحفظ القرآن الكريم في قريته وهو في الثانية عشرة من عمره .

وأرسله والده إلى الأزهر الشريف بالقاهرة يطلب العلم ، فعاش عيشة طلاب الأزهر ، يوجهه أخوه الأكبر الشيخ السيد الشناوي الذي كان قد سبقه بسنوات إلى المجاورة في الأزهر .

وكاد الشيخ محمد مأمون يسأم من حياته في الأزهر ، وينقطع عن الدراسة ، ويترك التعليم ، ويعيش في قريته فلاحاً يزرع الأرض ، لولا أن والده أخبره أنه

رأى في نومه حلماً يدل على أنه سيكون له ولدان عالمان ، فاستبشر محمد مأمون بهذه الرؤ يا وعاد إلى الأزهر .

وواصل الدراسة حتى كان موضع إعجاب شيوخه ، وأساتذته ، وفي طليعتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي .

وتقدم الشاب الشيخ محمد مأمون لامتحان العالمية ، ولكنه كان قد سبقته وشايات بعض الطلاب إلى أساتذته ، بأنه يتناولهم بالنقد ، وأنه شاعر ، إلى غير ذلك ، فأخذ أعضاء اللجنة يتحدونه وهو يتحداهم . . وكان الشيخ أبو الفضل الجيزاوي أحد الأعضاء ، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الوشايات التي بلغت زملاءه ، ورأى هذا العالم الصغير الشاب جديراً بلقب « عالم » ، بل مثالاً لإخوانه في سلامة الفهم وسعة المحصول العلمي ، فدافع عنه ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٦ . . ومما يذكر أنه وهو يتأهب لامتحان العالمية أصابه إجهاد شديد من كثرة المذاكرة ، فذهب إلى عالم صالح من أولياء الله ، يستفتيه في أمره ، فبشره هذا الولي بأنه سيكون عالماً فاضلاً فقاضياً عادلاً ، فإماماً نبيلاً ، فرئيساً جليلاً ، فشيخاً كبيراً . . وتحققت النبوءة على مر الأيام .

- ٣ -

وعين مدرساً بمعهد الاسكندرية الديني ، بعد تخرجه من الأزهر . ثم اختير عام ١٩١٧ قاضياً شرعياً بعد أن طارت شهرته ، وذاع صيته ، وضرب أحسن الأمثال في جلال الخلق ، وسعة الأفق ، وطول الباع في الإلمام بأسرار علوم الشريعة والدين .

واختير محمد مأمون الشناوي إماماً (للسراي) ، ثقة بعلمه وخلقه ودينه وفضله ، فكان موضع التقدير والإجلال من الجميع .

وفي عام ١٩٣٠ صدر قانون تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية في عهد شيخه الشيخ الأحمدي الظواهري ؛ وأنشئت الكليات الأزهرية الثلاث : الشريعة واللغة وأصول الدين ، على نظام جامعي راق ، فاختير ثلاثة من كبار رجال الدين

لتولي مشيخة الكليات الثلاث ، وهم الشيخ محمد مأمون الشناوي الذي تولى مشيخة كلية الشريعة ، والأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ معهد الزقازيق الديني حينذاك وقد تولى مشيخة كلية اللغة العربية ، والشيخ الجليل المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ القسم العام بالأزهر الشريف الذي تولى مشيخة كلية أصول الدين . وكان للشيخ مأمون طيب الله ثراه آثار جليلة في التوجيه العلمي والديني للأساتذة والطلاب . . .

ولما افتتحت كلية الشريعة ـ يوم الأربعاء ٣ من ذي الحجة عام ١٣٥٠ ٢٩ مارس ١٩٣٣ ـ ألقى الشيخ محمد مأمون الشناوي كلية قيمة في حفلة الافتتاح صور فيها سير النهضة العلمية والدينية في الأزهر عامة وفي كلية الشريعة خاصة .

ـ ٤ ـ

وفي عام ١٩٣٤ منح الشيخ محمد مأمون الشناوي عضوية جماعة كبار العلماء .

ثم اختير وكيلاً للأزهر بعد ذلك بعشر سنوات ـ عام ١٩٤٤ ـ وفي عهد وكالته للأزهر فاض الخير على العلماء ، وشملهم الأنصاف وسارت الأمور في الأزهر في مجراها الطبيعي . . وتولى منصب رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف .

وفي عام ١٩٤٥ توفي شيخ الأزهر الشريف الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى المراغي طيب الله ثراه ، وأريد اختيار خلف له ، وكان من الطبيعي أن يعين في منصب المشيخة وكيل الأزهر أو أحد كبار علماء الأزهر الشريف وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش ، ومفتي الديار حينذاك الشيخ عبد المجيد سليم ، ولكن الحكومة في عهد النقراشي أصرت على تعيين المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في منصب المشيخة الجليلة .

وقدم الشيخ مأمون استقالته من وكالة الأزهر ، كما قدم الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش استقالته من كلية الشريعة ، والشيخ عبد المجيد سليم

استقالته من الإفتاء ، وذلك يوم الثلاثاء ١١ ديسمبر عام ١٩٤٥ .

وأصدر كبار الشيوخ وفي مقدمتهم الشيخ الشناوي بعد ذلك بيومين بياناً تاريخياً للأمة الإسلامية عن الخلاف بين الأزهر الشريف والحكومة في شأن مشيخة الجامع الأزهر ، إثر إقدام الحكومة على تعديل قانون الأزهر وتعيين المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر ، وقد رفع هذا البيان إلى المسئولين في ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٥ .

- ٥ -

وفي مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧ هـ - ١٨ يناير عام ١٩٤٨ عين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخاً للأزهر الشريف بعد شيخه الراحل المغفور له الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق .

واستقبل فضيلته من الأزهريين ومن العالم الإسلامي استقبالاً رائعاً . وللأستاذ الأكبر الشيخ الشناوي مآثر خالدة على الأزهر في عهد مشيخته . .

ففي عهده أنشىء معهد محمد علي الديني بالمنصورة ومعهد منوف ، وأنشئت الوحدة الصحية للأزهر ، وضم معهد المنيا وجرجا وسمنود إلى الأزهر . وزادت البعوث الإسلامية إلى الأزهر ، كما زادت بعثات الأزهر إلى البلاد العربية والإسلامية .

وفي عهده ألغي البغاء الرسمي ، وجعل الدين مادة أساسية في المدارس ، وحوربت الفوضى الخلقية والاجتماعية والصور الخليعة ، وحددت الخمور في المحلات العامة .

وفي عهده نقلت كلية اللغة من الصليبية إلى البراموني ، ونقلت كلية الشريعة إلى المباني الجديدة للجامعة الأزهرية ، واشترك الأزهر في المؤتمر الثقافي العربي ، وتمت أماني كلية اللغة في المساواة بينها وبين معاهد اللغة العربية المختلفة ،

وارتفعت ميزانية الأزهر ، وقضي على الفتن المختلفة فيه ، إلى غير ذلك من جلائل الأعمال .

ـ ٦ ـ

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال توفي الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوي عليه رحمة الله ، ففي الساعة العاشرة من صباح اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٦٩ هـ ـ ٤ سبتمبر عام ١٩٥٠ فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية .

وابنته الصحف في العالم العربي والغربي في حسرة ولوعة وتقدير . وفي ذلك تقول جريدة المصري عدد ٥ سبتمبر ١٩٥٠ م : فجعت مصر بل العالم الإسلامي كله أمس بوفاة المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر ؛ وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته عالماً ثبتاً وحجة قوية وفقدت مصر فيه الورع والتقوى والبر والخير والإخلاص لدين الله ، وفقد الأزهر فيه كبير علمائه وشيخاً من أخلص شيوخه ، ظل يعمل لخيره ، ويواصل السعي لتحقيق رسالته بين ربوع العالم الإسلامي ، ولم يقعد به المرض أو النصب يوماً عن مواصلة سعيه وصرف اهتمامه إليه .

تولى رحمه الله مشيخة الأزهر في ١٨ يناير سنة ١٩٤٨ وكان الأزهر في ذلك الحين نهباً لعصبية ممقوتة كادت تقضي على ما يتمتع به من سمعة طيبة وماله في العالم من مكانة ، فرأب الصدع ولم الشمل وقضى على الفتنة في مهدها ، وشعر الأزهريون جميعاً بأنهم أبناء جامعة واحدة وأنهم تربطهم صلات أقوى من صلات الدم . . وعلى هذا النحو ساس فضيلته شئون الأزهر ، وعمل على تقوية ما بينه وبين العالم الإسلامي من روابط فأوفد البعوث الإسلامية المختلفة إلى ربوع العالم الإسلامي تنشر مبادىء الإسلام والثقافة الإسلامية وتقرب ما بين المسلمين وتعمل على إزالة الفرقة والخلاف بينهم .

وزيادة في تقوية الروابط بين البلاد الإسلامية أرسل فضيلته بعثة إلى انجلترا

لدراسة اللغة الانجليزية ، لإرسال أعضائها إلى البلاد العربية الإسلامية التي لا تجيد التخاطب باللغة العربية .

ولم يكتف فضيلته بذلك بل عنى أيضاً بربط الجامع الأزهر بجميع المعاهد الإسلامية في بقاع الأرض ، فاهتم بشئون التعليم في الباكستان والهند والملايو وأندونسيا وأفريقيا الجنوبية .

وإلى جوار هذا وذاك عمل على التمكين لأبناء المسلمين بطلب العلم في الأزهر وفتح أبوابه للوافدين حتى بلغت البعوث الإسلامية في عهده ما يزيد على ألفي طالب ، خصصت لهم أماكن الدراسة والمسكن اللائق .

وأخذ يعمل على زيادة المعاهد الدينية في عواصم المديريات ، وقد افتتحت في عهده أربعة معاهد نظامية كبيرة ، هي معاهد المنصورة والمنيا وسمنود ومنوف .

وهكذا مضى في سياسته الإصلاحية والتوسع في رسالة الأزهر ، وقد نال الأزهر بفضل جهوده وتقواه خيراً كثيراً ، فارتفعت ميزانيته إلى أكثر من مليون جنيه ، ووضع مشروع كادر لتسوية أساتذة الكليات في الأزهر بزملائهم الجامعيين .

وكان من رأيه رحمه الله جعل دراسة الدين مادة أساسية في المدارس ليقي النشيء من الآراء الفاسدة ، وما زال ينافح عن هذا الرأي حتى تحققت أمنيته وتقررت دراسة الدين مادة أساسية في المدارس .

ومنذ شهور مرض مرضاً ألزمه الفراش ، ولكن ثقته بالله وشدة إيمانه حفزاه على مقاومة العلة ، وتمكن الأطباء في النهاية من القضاء عليها .

ورأى أن يستجم في الاسماعيلية عند نجله الأستاذ عبد العزيز الشناوي فسافر إليها وكان ينعم فيها بالصحة التامة ، وزاره كثيرون من أصدقائه ومن كبار رجال الأزهر هناك .

ولكن القدر المحتوم أبى إلا أن يوافيه في الاسماعيلية فأصيب بنوبة قلبية

حادة تمكن الأطباء من مقاومتها ، ثم أصيب في عقبها بالتهاب رئوي كان أيسر وأهون ما لقيه في مرضه ، ولكن استعصي دواؤه على الأطباء ، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها فلقي ربه راضياً مرضياً .

وقد شيعت جنازته يوم الثلاثاء ٥ سبتمبر ١٩٥٠ بما يليق بمكانته التي كانت له في القلوب ، وبأعماله الجليلة في خدمة الإسلام والمسلمين . . وصلى عليه في الأزهر الشريف ، وكبر المؤذنون في شتى المساجد حينما صلى عليه ، ثم ووري جسده الطاهر التراب .

- ٧ -

لقد كان ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ كريم الخلق نبيل النفس رائعاً في وقاره وهيبته وسمته وصلاحه وورعه وزهده ، ذا شخصية قوية بارزة .

وكان موضع المهابة من الجميع يجلونه ويحترمونه ويرجعون إليه يستفتونه ، كان موثوقاً بعلمه ورأيه ، واسع الثقافة ، كثير الإطلاع .

اشترك في كل الأعمال التي كانت تبذل لإصلاح الأزهر وتنظيمه في الربع الثاني من القرن العشرين . . وتقول جريدة المصور من مقال عنه بعد وفاته :

كان رحمه الله يتذوق الشعر وينظمه ويقدر الشعراء . . وقد ترك في مكتبته الكبيرة في بيته بالحلمية الجديدة ، مجموعة من دواوين الشعر وكتب الأدب ، غير كتب الدين والتاريخ الإسلامي والبلاغة والفلسفة والأصول والحديث والفقه والتوحيد .

وخير الشعراء عنده شاعران : المتنبي وشوقي . . وقد عثرت بين أوراقه على بعض القصائد التي نظمها بنفسه أيام الشباب .

أمضى المرحوم الشيخ مأمون الشناوي حياته في الدرس والاطلاع ، وقد اعتاد منذ أيام الشباب أن يتلو بعض الأدعية قبل كل صلاة وبعدها وفي الطريق بين

البيت ومقر العمل . . وكان يكتب بعضها ويضعها في حافظته لتلازمه على الدوام وتصونه من المكاره . . وظل محافظاً على ذلك لا يتهاون فيه إلى أن دعاه الله إليه .

ووجدت بين مخلفاته ورقة كتب فيها بخطه : « يد الله فوق أيديهم » وورقة أخرى كتب فيها بخطه أيضاً : « اللهم اهدني من عندك ، وأمنن علي من فضلك ، وانشر علي من رحمتك ، وانزل علي من بركاتك ، اللهم استرني بسترك الجميل ، اللهم ارزقني سعادة الدارين واكفني همهما » .

وكان بعد الصلاة يتلو دعاء طويلاً هذه بدايته : « الله أكبر الله أكبر ، بسم الله على نفسي وديني ، بسم الله على أهلي ومالي ، بسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ، بسم الله خير الأسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه داء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم » . . .

وقد ساهم رحمه الله في الحركة الوطنية عند قيامها في سنة ١٩١٩ ، فكان يلقي الخطب الحماسية في المساجد والكنائس ويكتب المقالات في الصحف ، بل نظم المظاهرات ، ومشى في طليعتها ، مع أنه كان وقتئذٍ قاضياً بمحكمة الاسكندرية الشرعية ! .

لكنه كان ينفر من الحزبية ، ويرى أن رجل الدين لا ينبغي له أن يجمع بين الدين والسياسة . .

حينما كان إماماً في السراي طلب إليه أحد رجال القصر أن ينضم إلى حزب الاتحاد فأبى ، ثم ألح عليه فازداد إباء وقال له : « إنني أستطيع بسهولة أن أخرج من الباب الذي دخلت منه » .

وفي اليوم التالي دعاه رئيس الديوان لمقابلته ، وكان المرحوم توفيق نسيم ، وأبلغه أن الملك فؤاد أحيط علماً بما حدث ، وأنه سر من موقفه ، ولكنه يأخذ عليه قوله إنه يستطيع الخروج بسهولة من الباب الذي دخل منه . . لأن الدخول من هذا الباب لا يستأثر به فريق من المصريين دون فريق .

ولم يرث فضيلة الشيخ محمد مأمون الشناوي شيئاً عن أبيه . وظل لا يملك إلا مرتبه ، حتى رأى في سنة ١٩٣٠ أن يستبدل بجزء من معاشه قطعة أرض زراعية هي كل ما كان يملك من حطام الدنيا . .

وكان رحمه الله قوي الإيمان ، كثير تحري العدالة ، يحب الهدوء والنظام ، ويشتد في الحق ، ويسوس من مرؤسيه باللين والعطف ، ويقسو أحياناً للتأديب . . وكانت داره في الحلمية الجديدة محط أهل الفضل والعلم والأدب . . وقالت مجلة الأزهر في تأبينه : « انتقل إلى الدار الآخرة في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الشيخ محمد مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر متأثراً بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر ، فكان لنعيه أسف عميق لدى كل من عرفه وغشى مجلسه ، لما كان عليه ، رحمه الله ، من محاسن الشيم ، والتواضع ، وحسن الإصغاء لذوي الحاجات .

وقد تلقى رحمه الله العلم في الأزهر ، ونال درجة العالمية في سنة ١٩٠٦ ، وعين مدرساً في معهد الاسكندرية ، ثم تولى القضاء بالمحاكم الشرعية ، وتقلب في وظائفها واشتهر فيها بإيثار العدل والإنصاف . وفي سنة ١٩١٦ اختير ليكون إماماً في السراي فظل في هذا المنصب نحو خمس سنين ، وفي سنة ١٩٣١ ، حين وضع للتدريس بالأزهر نظام جديد ، وقسمت الدراسة العالية فيه إلى ثلاثة فروع ، وأنشئت لها كليات ثلاث : واحدة للشريعة وأخرى لأصول الدين ، وثالثة للغة ، اختير الشيخ رحمه الله شيخاً لكلية الشريعة ، فمكث يشغل منصبه فيها بكفاية محمودة ، وعمل قرابة ثلاث عشرة سنة . وفي سنة ١٩٤٤ أسندت إليه وكالة الجامع الأزهر ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغي شيخاً له ، فلبث في هذا المنصب حتى توفي الأستاذ المذكور ، وترددت الحكومة في تخير رجل كفء لشغل منصب المشيخة ، فوقع الاختيار على المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، فرأى أن قانون الأزهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء . ولم يكن الأستاذ المذكور منها ، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين

من يصلح ممن لا تنطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء ، ما دامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والأدبية . فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوي أبى ورأى أن يستقيل من منصبه ، وأن يتولى هذا الأمر غيره . فقبلت استقالته ومضت الحكومة في إصلاح ذلك القانون ، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر : فلما كانت سنة ١٩٤٨ وتوفي الأستاذ المذكور ، أسندت الحكومة مشيخة الأزهر إلى الشيخ محمد مأمون الشناوي في الشهر الأول من تلك السنة فلبث فيها إلى أن وافاه أجله في الحين الذي ذكرناه آنفاً . ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذي شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية ، وما قام به للأزهريين من مساواة خريجيهم بخريجي الجامعة المصرية في المرتبات ، ومن عمله على تحقيق أمانيهم .

الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

كان الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من العلماء القلائل الذين قل أن شهد لهم الأزهر مثيلاً: في سعة الأفق، وجلال الخلق، وعظمة النفس، وقوة النزوع إلى المثل العليا، فهو بحق خلف عظيم لأسلاف كرام.

تتلمذ على الإمام محمد عبده، فتخرج عالماً قديراً، وشيخاً جليلاً، وما لبث أن جعلته مواهبه وكفايته وشخصيته علماً بين زملائه العلماء. وشاهد الأحداث الكبرى في تاريخ الوطن الديني والفكري والاجتماعي والسياسي، واشترك فيها موجهاً وهادياً وشغل الكثير من المناصب الدينية الجليلة في الأزهر والقضاء الشرعي والإفتاء، وكان لآرائه الدينية صداها البعيد في العالم الإسلامي كافة، ثم عهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا في الأزهر الجامعي، ثم صارت إليه رياسة لجنة الفتوى، فكان له في كل ناحية أعمال خالدة مأثورة.. وإصلاح الأزهر الجامعي في شتى أطواره المختلفة في العصر الحديث مدين لفضيلته بالرأي والتوجيه.

وقد ولد الشيخ عبد المجيد سليم في ١٣ أكتوبر ١٨٨٢، وتخرج من الأزهر عام ١٩٠٨، حاملاً العالمية من الدرجة الأولى.. وشغل وظائف التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر. ومكث في الإفتاء قرابة عشرين عاماً. وله من الفتاوى ما يربو على خمسة آلاف.

ولقد تولى مشيخة الأزهر مرتين، أقيل في أولهما لأنه نقد الملك.

وقد ركز نشاطه في السنوات الأخيرة في الاشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تتفاهم الطوائف الإسلامية على ما ينفع المسلمين، وأن تعمل على نسيان الخلاف واستلال الضغائن من بينهم، وله في هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات بينه وبين كثير من علماء البلاد الإسلامية، فلم يقتصر فضله على العلم في مصر، ولكنه تجاوز ذلك إلى آفاق الإسلام، وإلى كل الطوائف.

ولفضيلته عدة رسائل مخطوطة، وقد أثر عنه الشجاعة في قول الحق والجهر به أمام الحكام دون خوف أو حذر، وقد استقال من الإفتاء عام ١٩٤٦ حين وجد حكومة ذلك العهد تريد التدخل في شؤون الأزهر، وقال لرئيس ديوان الملك حين حذره من الخطر الذي سيلحقه: «إنني ما دمت أتردد بين بيتي والمسجد فلا خطر علي». عين فضيلته في مشيخة الأزهر للمرة الأولى يوم ٢٦ ذي الحجة عام ١٣٦٩ هـ ـ الثامن من شهر أكتوبر عام ١٩٥٠ وأعفي من المنصب في ٤ سبتمبر ١٩٥١ ثم تولى المشيخة لثاني مرة في ١٠ فبراير ١٩٥٢ واستقال من المنصب في ١٧ سبتمبر ١٩٥٢، وتوفي عليه رحمة الله في صباح يوم الخميس ١٠ من صفر ١٣٧٤ هـ ـ ٧ من أكتوبر ١٩٥٤، تاركاً ذكريات إسلامية لا تنسى.

الأستاذ الأكبر الشيخ ابراهيم حمروش

ملء القلوب والأسماع، وحديث الخاصة والعامة، وشخصية تكاد من جلالتها وتواضعها تعد مع الخالدين الأوائل من كبار أئمة الإسلام.. حجة في علوم الدين واللغة والأدب، وإمام في المعقول والمنقول، وشيخ كثير من علماء الأزهر المعاصرين، تتلمذوا عليه، ونهلوا من معين علمه الفياض، واستمعوا لأحاديثه وآرائه في اللغة والبلاغة والأدب، وفي علوم الشريعة وأحكامها، وفي دقائق الاجتماع والتاريخ، فكان لهم من ذلك علم غزير، ومدد فياض.. ومجلسه العامر يفيض بالجديد الطريف من معارفنا الحاضرة، وبالتليد القديم من علوم الأوائل ومعارفها، وإلى جانب ذلك النكتة الرائقة والفكاهة الشائقة، والآداب الرفيعة، في سمت الصالحين الورعين، والزاهدين العابدين، مع التقوى والتواضع، وعفة اللسان، وطهارة القلب، ويقظة الضمير. وهو صوفي ورع، محب لآل البيت، كثير الإجلال لذكرهم، مع التوكل على الله والتباعد عن السياسة. وهو من أرومة عربية طيبة، من عرب إقليم البحيرة، حفظ القرآن، وجاور في الأزهر، وتتلمذ على الإمام محمد عبده، ونال العالمية من الدرجة الأولى، وشغل منصب التدريس في الأزهر، ثم في مدرسة القضاء الشرعي، ثم تدرج في مناصب القضاء، ثم اختير شيخاً لمعهد أسيوط، فشيخاً لمعهد الزقازيق، فعميداً لكلية اللغة العربية، فشيخاً لكلية الشريعة.. ثم أسندت إليه رياسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، ثم منصب المشيخة العظمى،

والامـامة الكبـرى للإسـلام والمسلمين. إلى جـانب عضـويتـه في مجمـع اللغـة العربية منذ نشأته حتى اليوم، ولقد عاش طول حياته يحلم بإصلاح الأزهر ويعمل مع العاملين لهذا الهدف، ويشترك في جميع اللجان التي ألفت لذلك.

ولقد تخرج الشيخ إبراهيم حمروش من الأزهر، عام ١٩٠٦، وعين مدرساً في الأزهر، ثم اختير للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي ١٩٠٩، ومكث مدرساً بها حتى سنة ١٩١٦، ثم عين قاضياً في المحاكم الشرعية، وظـل يرقى في مناصبها، إلى أن اختير عام ١٩٢٨ شيخاً لمعهد أسيوط، ونقل بعد شهور شيخاً لمعهد الزقازيق، ولما أنشئت الكليات الأزهريـة اختير عام ١٩٣٢ شيخاً لكلية اللغة العربية، وفي عام ١٩٤٤ اختير شيخاً لكلية الشريعة، ثم استقال من منصبه عام ١٩٤٦ احتجاجاً على السراي لتدخلها في شؤون الأزهر، وعين عام ١٩٥٠ رئيساً للجنة الفتوى.. وهو عضو في المجمع اللغوي بالقاهرة منذ إنشائه عام ١٩٣٢ .

ولـلأستاذ الأكبـر مكانتـه الكبيرة في قلوب الأزهـريين، فهـو حيثما حـل وحيثما كان مـوضع التجلة والاحتـرام والتقديـر، من كل أزهـري وكل مسلم.. ومكانته العظيمة في العالم الإسلامي في غنى عن البيان.

وإن معـاهد الأزهـر وكلياتـه لتفخر بجهـوده في تـنظيمهـا وفي تـوجيههـا لأداء رسالتها، ولقد نال مكانته المرموقة بما فطر عليه من نبل خلق وعظمة شخصية وسعة علم وصلاح وإيمان...

كان في الوظائف الكبرى التي تقلدهـا مثالاً عـالياً للرئيس اليقظ العادل والإمام الراعي الساهر، والشيخ الحكيم المدبر، والعالم الحاني على طلاب العلم وشيوخه. وقد تولى الشيخ حمروش مشيخة الأزهر للمرة الأولى في ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ وكانت له مواقف خالدة في الحركـة الـوطنيـة المصـريـة الأخيـرة، وأعفي من منصبـه في ١٠ فبـرايـر عـام ١٩٥٢ لاشتراكه في الحركة الوطنية التي قام بها الشعب وقيادته للمظاهرة الشعبية

التي خرجت تهتف بحرية مصر، ومقالاته عن وجوب محاربة الاستعمار، وأذكر أنه لما تولى المشيخة للمرة الأولى استقبل في الأزهر استقبالاً حافلاً، وهنأته بهذه الأبيات:

عاد الدين مجده وسلامه ... وحمى الدين هذه أيامه
ودع الأزهر الغداة لياليـ ... ـه، ونادته بالمنى أحلامه
تلك آماله الكبار، وهذا ... شيخه الأكبر الحكيم إمامه
يشهد الله أنه كاهل الدين، ... وللأزهر العريق سنامه
إن (إبراهيم) الملاذ لبيت الله ... تسعى بسعيه أعلامه
أمة واحدة، وفي الله مسعاه، ... وللحق عزمه ومقامه
أمل المسلمين، والنور يهدي ... ليس إلا للمكرمات اعتزامه
يا إمام الإسلام بايعك الأزهر ... شيخاً له، وأنت سلامه
تلك آماله إليك، وهذا ... في يديك الكريمتين زمامه
وعلى منكبيك برد جلال ... صيغ من نسج الصالحات وسامه
سر على يمن الله تحرس بيت العلم ... في يمنى راحتيك وسامه
جمعت حولك القلوب وهذا البيـ ... ـت جذلان من هداك ابتسامه

والشيخ حمروش، هو البقية الباقية من علماء الأزهر الأعلام، ومن الجيل القديم، الذين يعتز بهم الأزهر الحديث، والذين ليس لهم نظير في العلم والغيرة على شؤون الإسلام والعروبة، أمد الله في حياته.. وما من أزهري اليوم إلا وهو من تلامذته، أو من تلامذة تلامذته..

ومن كلماته هذه الكلمة التي ألقاها في الأزهر في ذكرى الهجرة وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين: شاعت في الأمم السابقة خرافات وعقائد باطلة لم تكن وليدة بحث ودروس ونظر واستدلال، وإنما هي أقوال ملفقة مما يأخذها الخلف عن السلف، ويقلد فيها الأبناء آباءهم، من غير فهم ولا روية، وهي موضع تقديرهم، ومحل اعتبارهم، وأشد الناس تمسكاً بها

ومحافظة عليها المترفون، لأنهم يعتقدون أن في الدين زوالاً لهيبتهم وذهاباً لعظمتهم، قال تعالى: ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك من قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، وقد أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى الناس كافة بدينه الذي ارتضاه لخلقه، واختاره لعباده، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان ﷺ موقف أمته منه موقف الأمم السابقة من رسلها، ولم تستحدث الأيام خلقاً، ولا حالت من الزمن العهود.

بدأ محمد ﷺ، بدعوة العرب، وكانوا وقتئذ أقل الناس حظاً وأشقاهم عيشاً، وأبينهم ضلالة، بأسهم بينهم شديد، يقتتلون لأقل الأمور وأحقر الأسباب، وكانوا متفرقين لاتجمعهم وحدة، ولا يشملهم نظام، وكان يجاور العرب دولتان عظيمتان: دولة الفرس، ودولة الروم الشرقية، استولت كل واحدة منهما على ما جاورها من بلاد العرب، وجعلت عليه حاكماً من العرب، يعمل لها وينفذ إرادتها، ويرعى مصالحها، وبهذا الوضع كان العرب محصورين في جزيرتهم، قانعين بما فيها من مفاوز وصحراوات. دعاهم ﷺ إلى خير الأمور، وأفضل الأعمال: دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تدفع عن نفسها أذاة، ولا تميط قذاة، ولا تخلق حصاة، ومع ظهور الحجة ووضوح البرهان، وتنبيههم للحق في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾ إلى غير ذلك من الأمثال التي صرفها الله تعالى في كتابه، ومع كل ذلك لم يؤمنوا به، بل كذبوه أشد تكذيب وبالغوا في الإنكار، وقالوا: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. ومن جهلهم زعموا أن دعوة النبي ﷺ الناس إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، لم تكن إلا لأنه صلوات الله عليه يكره الأصنام، ويريد الانتقام منها، لأن بعضها اعتراه بسوء، وألحق به ضرراً، فقالوا: ﴿ إن نقول إلا

اعتراك بعض آلهتنا بسوء، فكان ذلك صراعاً بين الحق والباطل، وبين الحجة والبرهان، والجهل والطغيان، ولم يقفوا عند التكذيب والإنكار، بل تجاوزوا ذلك إلى إيذائه وإيذاء من شرح الله صدورهم للإسلام، فقبلوا دعوته وآمنوا برسالته. وفازوا بشرف السبق، وكلما بالغوا في الإيذاء، بالغ ﷺ في الصبر، واجتهد في الدعوة، وكان ﷺ شديد الحرص، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان والأنصار، ليتمكن بذلك من أداء مهمته، وتبليغ رسالته، فكان عليه السلام يتلقى من أقبلوا إلى مكة في موسم الحج، فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فما أجابه أحد، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً، وقد اجتهد رسول الله ﷺ في مقابلة الوفود، ولم يصرفه إيذاء قريش عن دعوته، ولا الرد القبيح عن السعي في إدراك طلبته، فكان يقابل الوفود في كل موسم، ففي موسم التقى رسول الله ﷺ بجماعة من الخزرج، ولما عرض عليهم الإسلام قبلوه، فكان ذلك الاجتماع مقدمة النجح ووسيلة الفوز، فإنهم لما عادوا إلى أهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ، والدين الذي يدعو إليه، فأسلم منهم كثيرون، وفي موسم آخر حضر جمع من مسلمي المدينة والتقى بهم رسول الله وبايعوه، إن هاجر إليهم، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وبعد ذلك أمر صلوات الله عليه، أصحابه بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم، وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها» فخرجوا أرسالاً، رجالاً ونساء، إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين، ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم، وخرج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، ائتمروا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه. ولما علم رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه قريش وعرف الليلة التي يريدون الفتك به في صبحها، توجه صلوات الله عليه إلى أبي بكر، وأخبره أن الله أذن له بالهجرة، فسأله الصحبة، فأجابه إليها، واتعد على الهجرة في تلك الليلة، وقد أمر النبي صلوات الله عليه علي بن ابي طالب أن ينام مكانه في تلك الليلة ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده، وأصبحت فتيان قريش ينتظرون

خروجه ﷺ للفتك به، فإذا بعلي يخرج إليهم، فعلموا أنهم باتوا يحرسون علياً. ولما علمت قريش بذلك ثارت ثـائرتهم وأخـذوا يقتصون الأثـر، وجعلوا لمن يأتي به حياً ،ائة من الابل، وهاجر ﷺ بإذن الله وفي رعايته وحفظه إلى أن بلغ المدينة، ولما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته ويبلغ رسالته إلى أن بلغ كل ما امر بتبليغه، وبذلك تمت الشريعة، وكمل النظام الذي وضعه العليم الحكيم.

والشريعة التي بلغها سمو بالعقول عن التقليد، واتباع القـول بلا دليل، وأمر بالنظر فيما بث الله في الآفاق من آيات. ونصب في الكون من دلائل تدفعها إلى الاذعان بوجود الله، وبما له من صفات الكمال: من القدرة التامة والعلم المحيط والتفرد بالسلطان فيما عداه، يمضي فيه حكمه وينفذ قضاؤه، وعبادة وخضوع وتقرب وخشوع. شكراً لمن خلقهم، وأسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وتهذيب نفوس، وتطهير قلوب، وبعد عن الآثام والذنوب، وتنزه عن الصـغائر، وصدق في القول، وإخلاص في العمل، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وشجاعة ونجدة، وإعداد عدة لارهاب الأعداء، ومساواة فكلهم عند الله سواء، لا فرق بين عظيم وحقير وغني وفقير، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله والتقرب منه، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، وتعاون وتناصر، وتواد وتراحم وتعاطف وطاعة الله ورسوله وأولي الأمر من المسلمين. إلى غير ذلك مما أمرت بـه الشريعـة. وحثت عليه. ورغبت فيه. وقد اعد الله تعالى للذين يعملون الصالحات سعادة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصـالحات ليستخلفنهم في الأرض كـما استخلف الـذين من قبلهم. وليمكنن لهم دينهـم الذي ارتضى لهم. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ وقال تعالى: ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾. وقـد عملت الأمة بتلك الشريعة، فآتت اعمالها الصالحة أكلها، وأثمرت ثمرتها في بناء الأمة على أسس متينة، وأخلاق عظيمة، وربطت بينها بـرباط التعاون والمساواة والألفة والمحبة، والدين والخلق، فاتحدت بعد تفرق،

وقـويت بعد ضعف، وسعـدت بعد شقـاء، وعزت بعـد ذل. فعـظم قـدرهـا وعلا شأنها، وأحكم أمرها، فغيرت وجه التاريخ، وفكت الحصر الذي ضربته دولة الفرس ودولة الروم. وفتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها ويعملون على مضايقتها. ولا زالت الدولة الإسـلامية تنتقل من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر، وعاشت قوية عزيزة، تقدرها الأمم، ويرهبها الأعداء ولما انحرفت عن العمل بالدين، واتباع هدى سيـد المرسلين، اعتـراها الضعف والوهن، فلانت قناتها. وذهبت هيبتها.

وقـد توفي رحمـه الله عصر يـوم الاثنين ٢٥ جمـادي الأولى ١٣٨٠ هـ ١٤ نوفمبر ١٩٦٠ وشيعت جنـازته في اليـوم التالي إلى مقبـرة سيدي جـلال في ١٥ نوفمبر ١٩٦٠.

وكتب عبـاس محمـود العقـاد في يـوميـاتـه في الأخبـار (عـدد ٢٣/ ١١/ ١٩٦٠) يقول:

كان صاحب الفضيلة الشيخ إبـراهيم حمروش بقية صالحة من بقايا المدرسة الإمامية التي استفادت من قدوة أستاذها الشيخ محمد عبده في العنـاية بعلوم اللغـة والأدب والحكمة إلى جـانب العناية بعلوم الفقـه والشريعة.

كان الأستاذ الإمام يعني بالأدب واللغة فيدرس نهج البلاغة ومقامات البديع ويعني بالفلسفة الإسلامية فيكتب رسالة التوحيد ويعلق على «العقائد العضدية» ويهدي طلابه إلى أسرار حكمة الغزالي في مطولاته ومختصراته، ويعني بالفقه والشريعة فيلقي دروسـه في تفسير القـرآن الكريم ويكتب تقريراته الوافية في إصـلاح المحاكم الشرعية.

وبهذه القدوة العالية كان تلاميذه الأوائل يقتدون ويهتدون ومنهم فقيد اللغة والفقه الأستـاذ حمروش شيخ الأزهر الأسبق وعضـو مجمع اللغـة العربية، الذي فقده العالم العربي والعالم الاسلامي، منذ أيام .

كـان عجباً في سـرعـة الشـاهـد من الشعـر والنـثر عـلى خـاطـره وعـلى

لسانه، وكان من شواهده في جلسة قريبة من جلسات لجنة الأصول بالمجمع أن بعض الزملاء تذاكروا شروط السن فسمعنا الشيخ ـ كعادته ـ عند حضور الشاهد يهمس ببيت التميمي الذي يقول فيه:

وإن امرأ قد سار خمسين حجة   إلى منهل من ورده لقريب

وهو بيت يكثر فيه تبديل العدد على حسب المناسبة؛ فصاحب البيت يقول «خمسين حجة»، وبديع الزمان في مقامته الأهوازية يقول «عشرين حجة» و. . . والشيخ حمروش يرويها أولاً «ستين حجة» ثم يذكر أنه جاوزها فيصلح وزن الشطر على الثامنين، ويعود قائلاً:

وان امرأ يسعى ثمانين حجة   إلى منهل من ورده لقريب

وهكذا كنا نسمع منه الشواهد الحاضرة حين يستشهد بها في موضعها من الدلالة على الأحكام اللغوية، ثم يتصرف فيها ـ متبسطاً ـ على حسب الحالة الحاضرة كما يقول:

ولم يكن من المتشددين في استناده إلى أقوال الشعراء والرواة، فانه كان على خلاف علماء اللغة الذين يقفون بالحجة عند اقوال المخضرمين - يتوسع فيستشهد أحياناً بأقوال العباسيين من أمثال بشار وأبي نواس، بل يستشهد أحياناً بأقوال المولدين المتأخرين إذا درجت في مدارج الاستعمال الشائع، ويظرف غاية الظرف حين تسمعه في وقار، وسمته يروي بيتاً لأبي نواس أو لبشار لا يتحرج فيه هذا ولا ذاك، ولا يبالي الشيخ لغوهما إذا كان فيه حجة «اللغويين». . . وقد ينطقها أحياناً بفتح اللام من «اللغو» لا من «اللغة» تفكها منه على حسب المقام.

وكثراً ما كان يعزز حجة «النحوى» بحجة الفقيه «المنطيق».

وكثيراً ما كان يسأل عن مقابل الكلمة باللغات الأجنبية ليضعها في موضعها من المعنى والتركيب، ولا نذكر أنه حصر رأيه قط في أفق ضيق

من التقليد أو التقييد، ولكنه كان مثلا للعالم السلفي الذي يرعى حق القديم ولا ينسى في غيرته عليه حق الجديد .

وكتب الشيخ محمد علي النجار عنه(١) يقول(٢) :

تعلقت بأسبابه(٢)، ووصلت حبلي بحبله في سنة ١٩٣٧ حين عملت في التدريس في كلية اللغة العربية وكان عميدها، فأولاني من عطفه، وأخذ بضبعي، وكان لي منه الخير الكثير.

صحبته إذن، وقد استوى على صهوة المجد والشرف الباذخ. فهو من رجالات الأزهر وأولى الأمر فيه، وهو عضو في مجمع اللغة العربية، وهو حجة في علوم الدين واللغة.

كان جامعاً بين الحزم في سياسة الكلية وتدبير الأمور في الأزهر، والاضطلاع بالمطالب العلمية التي يتطلبها المجمع والأزهر.

كان ساهراً على رعاية الكلية، خبيراً بما فيها، لا يشذ عنه شيء من أحوالها. حريصاً على أن تتبوأ المركز اللائق بها، فكان يختار لها المدرسين الكفاة من الأزهر وغيره، وكان ينظم امتحان مسابقة لدخول الطلاب فيها، ولم يكن ذلك مسنوناً في قانون الأزهر، ولكنه الحرص على أن يكوِّن طبقة ممتازة من الطلاب.

ولقد كان يطوف بحجر الدراسة في اليوم غير مرة، ويسأل الطلبة في دروسهم، ويقف على درجة تقدمهم وتخلفهم، ويطب لكل مقام بما يقتضيه.

ولقد مرت فتن سياسية وأعاصير هوج كان الطلبة يسلكون فيها في بعض الحين مسلك الشطط والنزق، فكان يعالج الأمر بالحزم والكياسة،

---

(١) ولد الشيخ ابراهيم حروش : في ربيع الأول ١٢٩٧ هـ أول مارس ١٨٨٠ م ـ وتوفي في ٢٦ جمادي الاولى ١٣٨٠ هـ ـ ١٥ نوفمبر ١٩٦٠ م .

(٢) عن مجلة الأزهر عدد رمضان ١٣٨٠ هـ ـ للاستاذ محمد علي النجار ـ عضو مجمع اللغة العربية والاستاذ بالأزهر الشريف .

يخلط الشدة باللين، والمخاشنة بالمحاسنة، فيعود الطلبة طوع يديه، يأتمرون بأمره ويقفون حيث أحبّ

ولقد بلغت كلية اللغة العربية أوج مجدها، وكانت غرس يديه.

وترك كلية اللغة إلى كلية الشريعة في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ م فأصلح من شأنها، وقوم من أودها، وثقف من قناتها، وكان له فيها أثر محمود حتى استقال من رياستها في ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ م على أثر أمور في الأزهر لم ترضه. ولكنه بقي عضواً في جماعة كبار العلماء.

وأسند إليه منصب مشيخة الأزهر في ٣٠ من ذي القعدة سنة ١٣٧٠ هـ (٢ من سبتمبر سنة ١٩٥١ م) وبقي متقلداً هذا المنصب الجليل حتى يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٥٢ م.

وكان الوطن في أيام توليه مشيخة الأزهر في محنة مع الإنكليز في قناة السويس وفي حاجة إلى جمع الصفوف وتوحيد الكلمة، فكان للشيخ السهم الموفور في هذه الدعوة الشريفة.

فنراه ينشر على الناس في يوم ١٥/١/١٩٥٢ كتاباً يقول فيه:

«أيها المصريون، أتوجه إليكم في هذه الظروف التي غشيتكم فتنتها، وحزبتكم شدتها، أن تكونوا إخواناً في الوطن متآخين متحابين، رائدكم الإخلاص لبلادكم وأنفسكم «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

«وإن شر ما تبتلى به الأمم في محنتها أن تتفرق كلمتها، وأن تنحل وحدتها، وتنقطع أواصر المودة بين جماعاتها، فيشق العدو الطريق إليها، وينفذ بسهامه إلى صدور أبنائها».

«وهذه مصر، بلادكم العزيزة ووطنكم المحبوب تناديكم جميعاً، شيباً وشباناً، رجالاً ونساء، أقباطاً ومسلمين، أن تكونوا سهاماً مسددة نحو عدوها، وأن تلقوا الغاصب صفاً واحداً كأنكم بنيان مرصوص، بقلوب لا تعرف إلا الوطن والدفاع عن حوزته».

«وأذكركم - حتى لا يغيب عن أذهانكم - تاريخ هـذا الغاصب الـرابض في دياركم، وما اعتاده من سياسة التفريق طلباً للسيادة ورغبة في السلطان وبسطاً للنفوذ، لمصلحته هو لا لمصلحة أحد سـواه. وأذكركم جميعـاً مسلمين وأقباطاً بماضيكم المجيد. فقد قمتم كتلة واحدة تطالبون باستقلال البلاد واستكمال حريتها، وتبـوئها مكـانة سـامية بـين الأمم. وأشهدتم العـالم كله على وحدتكم وائتلافكم».

« وإني أعيذكم بالله من التفرق واختلاف الكلمة، فتضيع جهودكم الكبيرة التي بذلتموها في سبيل عزتكم وعزة بلادكم».

«واعلموا أن النصر المؤزر لقضيتنا رهن باتحاد صفوفنـا واجتماع كلمتنا، ووقوفنا جميعاً في وجه عدونا، حتى تظفر بلادنا بما تصبو إليه من السيـادة والحريـة والاستقلال، ويتمتـع أهلها جميعـاً بالأخـوة الصـادقـة والاطمئنان على أموالهم وأنفسهم».

وحين اشتد حنق الإنكليز في القناة والإسماعيلية فأنزلوا عذابهم على القرى الآمنة أصدر الشيخ منشوراً جاء فيه:

«إن شعب وادي النيل الباسل في كفاحة السلمى لإخراج المغتصبين المحتلين من بلاده لم يجاوز حقه الشرعي في الدفاع عن عقيدته والمطالبة بحريته، ولكن هذا الدفاع لم يرق في أعين المحتلين من الإنجليز، فعملوا بكل الوسائل العدوانية على توهين وحدته، واندسوا في صفوفه، يشيعون الأراجيف لتفريق كلمته. فلما واجههم الشعب وحدة متراصة، وقام في وجههم على قلب رجل واحد يـطالب بحقه في الحيـاة الحرة طـاشت أحلامهم ولجئوا إلى القوة الغاشمة يسلطونها على الآمنين في ديارهـم: وعلى النساء في خدورها، وعلى الأطفال في مهادها».

«وكلما زاد الشعب تمسكاً بحقه وصبراً على هذا العنت زاد عسفهم، وتعددت مظالمهم، حتى خرجوا على كل شرعة، وبزوا كل ما عرف من أعمال التنكيل التي اشتهرت بها محاكم التفتيش، وما قام به النازيون من

أعمال وحشية، فأزالوا القرى الآمنة من الوجود بدباباتهم، وهدموا البيوت بمدافعهم الثقيلة، وشردوا النساء والأطفال الأبرياء، وانتهكوا كل الحرمات، واعتدوا على المساجد والكنائس، ولم يبق جرم إلا ارتكبوه، ولا شناعة إلا فعلوها. ولم تقف شناعتهم عند حد، فراحوا يطلقون النار على حفظة الأمن ورجال الشرطة، ويقتلونهم تقتيلاً في رائعة النهار، ويأسرون من نجا منهم. . .».

«وإني باسم الأزهر علمائه وطلابه لأعلن استنكاري لهذا الإجرام الفظيع الذي انتهكت فيه الأعراض، واستبيحت الأموال واعتدى على حرية الإنسان وحقه المشروع في أن يطالب بحريته واستقلاله، واحتج بشدة على هذه الأعمال العدوانية التي تنافى جميع الشرائع والأديان. وأهيب بالضمير العالمي أن يثور على هذا الوضع المهين لكرامة الإنسان، وأن يهب لوقف هؤلاء المستبدين عند حدهم، ليعلموا أن في العالم ضمائر تتحرك لنصرة الحق، ونفوساً تثور للأخذ بيد العزل المكافحين لنيل حرياتهم. .».

«وليعلم الإنجليز أن هذه الفظائع التي يصبونها على رؤوس أبنائنا لن تلين للشعب قناة، ولن ترده عن المطالبة بجلائهم الناجز عن وطننا العزيز، وأن وادي النيل كله لن يسكت بعد اليوم على ضيم يراد به، ولن يفرط في حق من حقوقه، مهما ابتلى بالشدائد ومهما ضحى من أرواح غالية. . .».

«وإني إذ أستمطر رحمة الله ورضوانه على شهدائنا الأبرار أتوجه إلى أبناء الوطن جميعاً مناشداً إياهم أن يشدوا من عزائمهم، وألا يجعلوا لهذه الأحداث أثراً في نفوسهم، فلا يهنوا ولا يحزنوا ولا يضعفوا، وهم الأعلون إن شاء الله. فلا بد للجهاد من تضحية وللحرية من ثمن يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

وإن النيل من الإنجليز وجبههم بالغليظ من القول في ذلك العهد لم يكن بالسهل الهين، ولا يقاس به عهدنا الحاضر الذي نعمنا فيه بجلائهم وذهاب سلطانهم عنا. فقد كان الانكليز لا يزال لهم من السلطان على

صاحب القصر ورجاله الشيء الكثير، وكان القدح فيهم لا يطور به من ذوي المناصب إلا من لا يتمسك بمنصبه، ويؤثر الحق على زينة السلطان وجلاله الكاذب، وأكبر الظن أن إقالته من المشيخة ترجع إلى هذا المنزع السياسي الذي ضاق به الإنكليز.

وإني أقص هنا سيرة الشيخ ونشأته حتى استوى سيداً جليلاً.

ولد الشيخ في قرية الخوالد التابعة لمركز إيتاي البارود من أعمال مديرية البحيرة في العشرين من شهر ربيع الأول ١٢٩٧ هـ (أول مارس ١٨٨٠م) ونشأ فيها فحفظ القرآن الكريم حين بلغ الثانية عشرة من عمره، وأرسله والده إلى الأزهر، وكان يحكى أن والده إذ ودعه حين ذاك أوصاه أن يحافظ على الصلاة لأول وقتها، وحافظ الشيخ على هذه الوصاة طوال حياته، فإذا دخل الوقت كان أكبر همه أن يؤدي الصلاة، وفي يوم وفاته قدر له أن صلى العصر، ولم يلبث أن وافاه الحمام.

وجاور الشيخ في الأزهر فأخذ عن الشيوخ المنتفعين الذين كان الأزهر ملآن بهم. وكان الشيخ ذكياً ثقفاً لقفاً عرف بالذكاء والزكانة طول دهره، فحصل تحصيلاً عجباً، وفطن لدقائق العلوم، واستحكمت عنده الملكة الأزهرية.

وقد تلقى الفقه الحنفي عن الشيخ أحمد أبي خطوة واختص به، وكان يثني عليه كثيراً، وأخذ عن الشيخ محمد بخيت وأخذ النحو على الشيخ على الصالحي المالكي. ولزم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في دروسه فأخذ عنه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والبصائر النصيرية في المنطق. وقد يرجع إلى تلمذته للشيخ محمد عبده الفضل في تحرر فكره واتساع أفقه وحسن التصرف فيما يعلم.

وكان إلى جانب اشتغاله بعلوم الدين واللغة يشتغل بالعلوم الرياضية، وكان رياض باشا رحمه الله قد أعد مكافآت مالية لمن يفوز في امتحانات الرياضة ففاز الشيخ في هذه الامتحانات غير مرة.

وقد أتم تحصيله في سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦) وتقدم لامتحان شهادة العالمية وكان صغير السن بين أقرانه في ذلك الحين. وكان امتحان العالمية في أصول الفقه يكون في مسألة من مسائل مقدمة جمع الجوامع، ورأى شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربيني تجاوز المقدمة والامتحان في مسألة أخرى حتى لا يقصر الطلبة جهودهم على المقدمة، فعيّن مسألة للامتحان في القياس فتخلف عن الامتحان كثير ممن جاء موعد امتحانهم، فأبيح التقدم لم بعدهم وتقدم الشيخ ففاز في امتحان دقيق كان شيوخنا يحدثوننا عن عسره وكان الطالب يقضي في الامتحان سحابة نهاره، ولكن الشيخ لم يتجاوز ثلاث ساعات، وكان الامتحان في أربعة عشر علماً.

وعقب تخرجه نظم في سلك مدرسي الأزهر في ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠٦. وكان رحمه الله أحياناً يتحدث بما أفاء الله عليه من النعمة، وما كان عليه الأزهر فيقول: كان مرتب المدرس في الأزهر خمسة وسبعين قرشاً في الشهر، ولقد كان أول ما تسلمته بعضاً من هذا القدر إذ كان دخولي في التدريس في أعقاب الشهر، ولقد كان فرحي بهذا المال الذي هو أول مال اكتسبته من الأزهر عظيماً: إذ كان فيه وصلى لحبلي بحبال علماء الأزهر. وقد اختير لتدريس الرياضة بعد، وكان يتقاضى على ذلك خمسين ومائة قرش في الشهر، وهو مع ذلك يدرس العلوم الدينية واللغوية. ويذكر بعض من تلقى العلم عنه في هذه المدة فيقول: كان الشيخ جميل البزة مونقها غير متزمت في هديه، يلقى الدرس في ترتيب عجيب وسياق لطيف يأخذ بألباب السامعين، يبعد عن الحشو والتطويل واللغو من القول، ولا يطيل في المباحث اللفظية، له نغمة حلوة في الإلقاء تجذب الطلاب.

وفتحت مدرسة القضاء الشرعي في ذلك العهد، وكان على أمرها عاطف بركات رحمه الله، وكان يختار لها من الأزهر المبرزين الفوقة، فذكر له الشيخ فاختاره، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٠٨ فبقي فيها إلى ١٢ يونية سنة ١٩١٦م. وقام فيها بتدريس الفقه وأصول الفقه، فتخرج

عليه الثقات الكفاة الذين تقلدوا مناصب القضاء، والإفتاء، أذكر منهم الشيخ فرج السنهوري، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ حسن مأمون. والشيخ علام نصار، وغيرهم كثير.

وولي بعد المدرسة منصب القضاء الشرعي، فكان القاضي الفاضل الذكي البصير بالأحكام ومكايد الخصوم، الصادع بالحق، الناطق بالفضل، وكان أخوه الشيخ أحمد حمروش قاضياً، وكذلك كان عمه الشيخ عبد الحميد حمروش قاضياً، فهو من أسرة تأثل فيها هذا المنصب الرفيع. ولقد عرفه في ساحة القضاء الشيخ المراغي رحمه الله، فلما ولي مشيخة الأزهر نقله إلى الأزهر يستعين به في أمره، فكان له في الأزهر اليد الطولى في شؤونه وتقلب في مناصبه حتى صار شيخاً لكلية اللغة العربية في ١٣ يونية سنة ١٩٣١.

وتتوج حياته العلمية في الأزهر بدخوله في جماعة كبار العلماء في ٢٨ من صفر سنة ١٣٥٣ هـ (١٠ من يونية سنة ١٩٣٤م). وقد قدم لنيل هذه الدرجة رسالة جليلة في «عوامل نمو اللغة» تدل على تحقيق ودقة نظر فيما تناول من المسائل، يقول في مقدمتها:

«وبعد: فإن اللغة العربية بفضل عواملها المتعددة رحب صدرها، واتسع نطاقها، وكثرت مادتها، وتنوعت أبنيتها، وصار لها جمال المنطق وجلال الدلالة وحسن الديباجة ولطف العبارة، وقد وسعت بتلك العوامل علوم اليونان والفرس وغيرهما؛ وصارت لغة العلم والدين».

«وقد كتبت كلمة في التوليد بالزيادة والإبدال والقلب والاشتقاق والترادف والاشتراك والمجاز والنحت والارتجال والتعريب».

وأذكر هنا مبحث للتعريب في ختام الرسالة ليكون نموذجاً لمباحثها. وعنوان البحث: «أثر التعريب»: «في التعريب زيادة مادة اللغة بالألفاظ الدخيلة فيها، وقد أجرت العرب على بعضها أحكام الألفاظ العربية من القلب والاشتقاق وغيرهما، وقد جرى العلماء على تسمية ما أدخله العرب

بالمعرب، إلى أن اختلطت العرب بغيرها وفسدت اللغة وما أدخله غير العرب بعد فساد اللغة والاختلاط بالأعاجم سموه مولداً، وهناك قسم آخر يسمى بالعامي، وهو ما أخذ من غير مادة عربية، أو من مادة عربية ولكن بتحريف وتبديل لا تجيزه قواعد اللغة».

«بقي الكلام الآن في أمر هو محل نزاع الباحثين وموضع اهتمامهم، وهو أن المعاني الجديدة، والمستحدثات العصرية كثرت وتعددت بعد أن وقف التعريب، وأصبحت اللغة العربية لا تنهض بالدلالة على تلك المعاني ولا تقوم بحاجة التعبير عنها، فهل للموجودين أن يعربوا ألفاظ المعاني والمستحدثات تمشياً مع الحاجة، ودفعاً للضرورة ورفعاً لعيب نقص اللغة العربية عن الاضطلاع بحاجة أبنائها»؟.

«ذهب فريق إلى التعريب، وقال: إن اللغة كائن حي كسائر الموجودات وكل موجود حي يتدرج في الرقي، وكما تدرج أهل اللغة يجب أن تتدرج اللغة، وإن التعريب يؤدي إلى اتحاد لغة العلم، ويحفظ للمخترع اسمه، ويبقى له ذكره».

وذهب فريق إلى أنه لا حاجة إلى التعريب وأن اللغة العربية يمكن أن تنهض بالدلالة على المعاني الجديدة باتخاذ الوسائل المؤدية إلى ذلك، فعندنا مهجور في اللغة لا يستعمل الآن، وبنقله إلى المعاني الجديدة يقوم بالدلالة على بعضها ويتداول بين الناس فتحيا به اللغة العربية. وعندنا المجاز، وهو يدل على غير الموضوع له بواسطة العلاقة والقرينة وعلاقاته كثيرة متعددة، وعندنا المشتق، ومنه قسم مطرد».

«وبهذه الوسائل يمكن اللغة العربية النهوض بالدلالة على المعاني الجديدة».

«على أن في التعريب فشو الكلمات الدخيلة في اللغة، وهو يودي باللغة الفصيحة، ويذهب بجمالها ورونقها. وفي ضياع اللغة الفصيحة

تعطيل الأداة الصالحة لفهم القرآن والحديث، وهما عماد الدين وإليهما يرجع المسلمون».

«وفي جواز التعريب ضياع أخص مميزات الجنس العربي؛ لأن الجامعة الجنسية لا تكون بغير اللسان العام الذي يتفاهم به الجميع على السواء. فلو تساهل كل شعب في استعمال ألفاظ أعجمية لضاعت روابط الجنسية، وأصبح لكل شعب لسان خاص».

وأما أن التعريب يوحد لغة العلم ويحفظ للمخترع اسمه فكلام لا يلتفت إليه؛ فإن اتحاد لغة العلم إنما يكون إذا اتحدت أبجديات الأمم وهي مختلفة جداً. وحفظ اسم المخترع لا نبالي به إذا كان في عدم الالتفات إليه صيانة اللغة العربية».

«هذا حاصل كلام الفريقين باختصار. وأرى أنه إذا أمكن باتخاذ الوسائل المتقدمة أو باتخاذ وسائل أخرى غيرها أن تنهض اللغة العربية للدلالة على جميع المعاني والمستحدثات العصرية فلا نقدم على التعريب حفظاً للغتنا العربية التي هي أداة فهم القرآن والحديث اللذين هما أساس الدين وعماده. وإن لم يمكن أن تقوم اللغة بعد اتخاذ الوسائل بالدلالة على جميع المعاني أقدمنا على التعريب بقدر الحاجة فقط، مع المحافظة على اللغة الفصحى، بأن نذكر اللفظ ونذكر بجانبه معناه، وأنه مما عرب للدلالة عليه، ونبين تاريخ التعريب، فيكون ما وضعه المتقدمون معروفاً، وما ألحق باللغة معروفاً، فتتحقق المحافظة على الموروث عن السلف».

وأراني قد ألممت ببعض حياته في الأزهر، وسألم ببعض حياته في المجمع.

دخل الشيخ ـ رحمه الله ـ المجمع لأول نشأته في سنة ١٩٣٤م فاختير في معظم لجانه، وشارك في بحوثه، وكان من الرعيل الأول الذين أرسوا قواعد المجمع وأقاموا عمده. وكان له فيما يعرض في اللجان

ومجلس المجمع ومؤتمره الرأي السديد والبصر النافذ واللحظ الناقد والبحوث المستفيضة في الشؤون العلمية.

ومن آرائه أن اللفظ المولد إذا اشتهر يستعمل في غير اللغة والأدب.

وعرض المجمع في بعض جلساته لرسم المصحف وطلب إلى الشيخ أن يكتب رأيه، فكان رأيه الوقوف عند الرسم المعهود له، ولا ينبغي كتابته بالرسم العادي: لأنه عرضة للتغيير والتبديل في كل عصر، فلو أبيح هذا لتعدد رسم المصحف، وكان مظنة لأن يعزى إليه الاختلاف فحفظ القرآن وصونه يقضي بإبقاء رسمه على الكتبة الأولى.

وقدم أحد الأعضاء المراسلين بحثاً في كلمة «الضرر» رأى قصره على الزمانة وفقد البصر وأنه مصدر لفعل لازم على زنة فرح، وإن لم يجيء هذا الفعل في المعاجم، وأنه لا يقال: أصاب فلانا الضرر في ماله أو في حميمه مما ليس بداء لازم وخطأ الجوهري في جعله الضرر اسماً بمعنى الضر، وارتاب في الحديث: لا ضرر ولا ضرار، وأثار مسألة الاحتجاج بالحديث في اللغة فقدم الشيخ بحثاً رد به حجج هذا الباحث وأورد من الشواهد ما لا يقبل الجدل؛ كقول جرير:

فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم ... أو تنج منها فقد أنجيت من ضرر

وقول أبي تمام:

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعة ... لكان فقدهم من أعظم الضرر

وله بحث قيم في التضمين ونيابة بعض الحروف عن بعض، وبحث في الاشتقاق الكبير.

وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ عجيب الاستحضار لما يقرأ ويسمع، كثير المحفوظ من الشعر، حسن الاستشهاد به في المقامات المناسبة، جرى مرة في لجنة الأصول الحديث في التضمين، وأنكر بعض الحاضرين أن يضمن فعل متعدّ معنى فعل آخر متعد، فقال الشيخ: أذكر قول الشاعر:

علفتها تبنا وماء بارداً.

وقد قال اللغويون: إن علف هنا مضمَّن معنى أطعم، وكلاهما متعد.

وكان بيته محجة أولى العلم ينهلون من مورده العذب، ويجدون ما طاب من حديث في دقائق العلم ممزوجاً بفكاهة حلوة وطيب سمر، وكان الشيخ طيب النفس بعيداً عن التزمت مؤنساً للجليس لا يمل مجلسه. وفي يوم الجمعة الذي توفي بعده اجتمع الشيوخ عنده عقب الصلاة فجرى البحث في تفسير قوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض». وأفاض الشيخ في الحديث فيها، وكان الشيخ يفسح الكلام لمن يتكلم ويعقب برأيه السديد.

ولقد طويت صفحات خالدة من تاريخ الأزهر الحديث بوفاة الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر الأسبق، فقد عاصر رحمه الله مدرسة محمد عبده في الإصلاح الديني، واشترك في نشاطها، وكان أحد أقطابها، وكان الإمامان المراغي وحمروش يمثلان عنصر الشباب في هذه المدرسة التي تتجه بكل كفاحها إلى خلق بيئة دراسية مستقرة في الأزهر، وتكوين أجيال من الشباب المثقفين ثقافة واسعة تحيط بشتى علوم الشريعة والعربية، وتتمثل فيهم رسالة رجل الدين الروحية والعلمية.. وكان حمروش يمثل الجانب العلمي لهذه المدرسة خير تمثيل، في دروسه وهو شاب مكافح، وفي توجيهه للتعليم في الأزهر وهو فيه مفتش فشيخ معهد فعميد لكلية اللغة وعضو في جماعة كبار العلماء فرئيس للجنة الفتوى، وفي ندواته الليلية الدائمة في منزله في القلعة وقد كان كعبة العلماء والمفكرين، حيث كانت تعرض أمامه مشكلات الدين والثقافة فيفتي فيها برأي سديد، وحكمة نافذة، تعد خير توجيه لرواد مجلسه، ولم تحل مهامه الإدارية حين تولى مشيخة الأزهر الشريف في أكتوبر عام ١٩٥١ حتى نوفمبر عام ١٩٥٢ وبين عقد هذه الندوة كما كانت من قبل.

وكان منزل حمروش مفتوحا دائما للناس ولمختلف طبقات الشعب يستفتونه في مشكلاتهم الروحية، ويطلبون معاونته في مصالحهم الشخصية وهو يبتسم دائماً لا تعرف «لا» طريقاً إلى لسانه.

وقد اختير حمروش عضوا في المجمع اللغوي منذ ان نشأ واشترك في نشاطه اللغوي الكبير، وأسس كثيراً من لجانه، ووجه أعمال المجمع وجهة تفيد العرب وتراثهم ولغتهم والثقافة العربية العامة.

لم يترك حمروش كتباً مطبوعة وإن كانت له كتب مخطوطة لم تطبع بعد، إنما ترك أفكاراً قيمة في نفوس تلاميذه ومريديه، وجميع علماء الأزهر اليوم وشيوخه من تلاميذه ومريديه، وترك منهجاً علمياً يستضاء به دائماً في إصلاح الأزهر، وترك ذوقاً علمياً يستفاد منه فائدة جلى وترك مع ذلك كله قدوة طيبة تعد خير نبراس يرشد إلى الحق والخير والعزة والغيرة على الدين وعلى الوطن وعلى المبادىء المثلى التي دعا إليها الإسلام وكتابه الحكيم.

وقد كان حمروش رحمه الله مثالاً للوطنية النزيهة لم يحن رأسه للطغاة، ولم يتملق احدا في حياته كائناً من كان، وسار في الصفوف الأولى مع الشعب في المظاهرة الوطنية الكبرى في نوفمبر ١٩٥١ احتجاجاً على جيش الاحتلال وأعماله في منطقة القتال.. حقاً لقد كان مثالاً عظيماً، وعنواناً كريماً لرجل الدين المعاصر وصفحة خالدة من تاريخ الأزهر الحديث.

الأستاذ الأكبر الشيخ محمّد الخضر حسين

عين الشيخ الخضر حسين شيخا للأزهر في يوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة ١٢٧١ هـ - ١٧ سبتمبر ١٩٥٢ .

وكان أحمد تيمور في مقدمة الذين قدروا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر السابق حين قدم مصر من أكثر من ربع قرن ــ وقد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين آثار العلامة أحمد تيمور على ترجمة لحياة الشيخ محمد الخضر حسين ــ هذا نصها :

ولد بمدينة نفطة بالقطر التونسي في ٢٧ رجب سنة ١٢٩٣ واشتغل بالعلم وحفظ القرآن الكريم وقرأ بعض الكتب الابتدائية في بلده، وفي آخر سنة ١٣٠٦ رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية فاشتغل بالطب ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧ فقرأ على أشهر أساتذتها وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية ونبغ فيها وفي غيرها، فطلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته فأبى وواظب على حضور حلقات الأكابر مثل الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ محمد النجار وكانا يدرسان التفسير والشيخ سالم بو حاجب وكان يدرس صحيح البخاري.

ثم رحل إلى الشرق في سنة ١٣١٧ ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أياماً فلازم جامع الزيتونة يفيد ويستفيد، إلى سنة ١٣٢١ هـ ، فأنشأ فيها مجلة ــ السعادة العظمى ــ ولاقى في

سبيل بث رأيه الإسلامي ما يلاقيه كل من سلك هذا السبيل. وفي سنة ١٣٢٣ ولي القضاء في مدينة بنزرت والتدريس والخطابة بجامعها الكبير، ثم استقال ورجع إلى الـقـاعدة التـونسية، وتـطوع للتدريس في جـامع الزيتونة، ثم أحيل إليه تنظيم خزائن الكتب بالجامع المذكور ـ وفي سنة ١٣٢٥ اشترك في تأسيس جمعيـة زيتونيـة، وفي هذه المـدة جعل من المـدرسـين المعينـين بـالجـامـع المـذكـور. وفي سنــة ١٣٢٦ جعـل مـدرسـاً بالصادقية وكلف بالخطابة في مواضيع إنشائية بـالخلدونية، ولمـا قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة ونشر بجريدة الزاهرة قصيدته الشهيرة لتي مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذي ذهبا يكفي مضـاجعنـا نـوم دهـا حقبـا

ثم رحـل إلى الجزائـر فزار أمهـات مدنهـا، وألقى بها الـدروس المفيـدة، ثم عـاد إلى تـونس وعـاود دروسـه في جـامـع الـزيتـونـة ونشـر المقالات العلمية والأدبية في الصحف.

وفي سنـة ١٢٣٠ سـافـر إلى دمشق مـاراً بمصـر ثم سـافـر إلى القسطنطينية فدخل يوم إعلان حرب البلقان فاختلط بأهلها وزار مكاتبها، ثم عاد الى تونس في ذي الحجة من هذه السنة ونشر رحلته المفيدة عنها وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف، ثم جعل عضواً في اللجنة التي ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق في تاريخ تونس ثم ترك ذلك لما عزم على المهاجرة إلى الشرق فرحل إليه، ونزل مصر وعرف بعض فضائلها ثم سافر إلى الشام ثم للمدينة المنورة ثم إلى القسطنطينية ثم عاد إلى دمشق معينا مدرسا للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بدمشق، وبقي كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سوريا بكتم حال المتآمرين على الدولة واعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يوما ثم حوكم فبرىء من التهمة فأطلق سبيله في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٣٥ ومن شعره في حبسه وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابة:

غـل ذا الحبس يـدي عن القلم كـان لا يصحو عن الـطرس فناما
هـل يـذوذ الغمض عن مقـلتـه أو يـلاقي بعـده المـوت الـزؤامـا
أنـا لـولا همـة تـحـدو إلـى خـدمـة الاسـلام آثـرت الحمـامـا

ثم استمـر على التدريس بـالمـدرسـة بـدمشق إلى أن دعي إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٦. ثم هاجر الى استنبول بعد عام وعمل محرراً بالقلم العربي بوزارة الحربية، ثم أرسلته الحكومة إلى المانيا للقيام بعمل سياسي وهو تذكير الأسرى هناك بظلم فرنسا ثم رجع إلى الشام فدرس الفقه بالمدرسة السلطانية العربية.. وبعد أن احتلت فرنسا الشام بعشرة أيام هاجر إلى مصر في عام ١٣٢٩ هـ. ثم نال الشهادة العالمية بالأزهر وتولى التدريس بكلية أصول الدين والتخصص اثنتي عشرة سنة.

وتولى رياسة تحرير مجلة الأزهر ولواء الإسلام ورياسة جمعية الهداية الإسلامية واختير عضواً بهيئة كبار العلماء ١٩٥١، وهو إلى ذلك عضوا بمجمع اللغة العربية منذ أنشىء. وقد استقال فضيلته من المشيخة في ٢ جمادى الألى ١٣٧٣ هـ ـ ٨ يناير ١٩٥٤ وتوفي رحمه الله في ١٤ من رجب عام ١٣٧٧ هـ.

وقد نعى الأزهر في يوم الاثنين ١٤ رجب سنة ١٣٧٧ عالماً إسلامياً جليلاً ومجاهـداً من الرعيـل الأول ممن أبلوا البلاء الحسن في كفـاح الاستعمار: الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق ورئيس جمعية الهداية الإسلامية، عن نيف وثمانين عاماً قضى معظمها في التدريس وفي الكتابة والتأليف وفي جهاد مرير في شبابه دفاعاً عن حقوق عرب شمال افريقيا وغيرهم من أقطار العروبة.

ولد الفقيد الجليل في وطنه الأول في بلدة «قفصة» من مقاطعـة الجريد بتونس ونشأ في بيت علم ينتمي أصله إلى الجزائر، وشرع في طلب العلم في بلدته ثم أتم تعليمه في جامعة الزيتونة، وتخرج منهـا ومارس بعد تخرجه التدريس ثم القضاء، كما قام بإنشـاء أول مجلة علمية

أدبية بالمغرب، ثم رحل إلى تركيا، وأقام بها وقتاً قصيراً ثم حضر إلى دمشق حيث عين مدرساً بمدرستها الثانوية الوحيدة يومذاك، ـ وكانت تعرف بمدرسة عنبر ـ وظل في دمشق إلى أوائل الحرب العالمية، ثم رجع إلى استانبول فانتدبته الدولة العثمانية إلى برلين مع بعثة مؤلفة من كبار علماء شمال افريقيا للاتصال بأبناء شمال افريقيا ممن وقعوا في أسر الألمان أثناء الحرب وبانتهاء الحرب عاد إلى دمشق مدرساً في نفس المدرسة وكان العهد عهد الحكومة الفيصلية الوطنية. .

وكانت الحكومة الفرنسية قد حكمت عليه بالإعدام، لانضمامه إلى الدولة العثمانية ولذهابه إلى ألمانيا ـ كما مر ذكره ـ فما أن دخلت فرنسا سوريا حتى غادرها جميع الأحرار من المجاهدين العرب وكان منهم الفقيد الشيخ الخضر فجاء إلى مصر حوالي عام ١٩٢٠ م وظل فيها بعض الوقت مغموراً ثم عرف فضله ومكانته فعين أولاً مصححاً بدار الكتب المصرية .

وفي هذه الأثناء صدر في مصر كتابان شهيران أحدثا دوياً في ذلك الوقت في الأوساط الفكرية وهما كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للعالم الأزهري الشيخ علي عبد الرازق وكتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، ونظراً لما اشتمل عليه هذان الكتابان من آراء مضللة تصدى بعض كبار الباحثين للرد على كل منهما، وكان للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فضل الرد على كلا الكتابين حينئذ حيث أفرد لكل منهما كتاباً مستقلاً كانا من خير ما كتبه الكاتبون في هذا المجال .

وظل الفقيد يعمل مصححاً بدار الكتب بضع سنوات إلى أن منح شهادة العالمية الأزهرية ثم تعين مدرساً بالأزهر وكان ذلك في عهد الشيخ المراغي. . وأخيراً تعين عضواً في هيئة كبار العلماء وهو المنصب الذي أهله فيما بعد لأن يصبح شيخاً للأزهر. .

وعقب تعيينه مدرساً بالأزهر أنشأ جمعية الهداية الإسلامية بمصر وظل يرأسها ويرأس مجلتها إلى عهد قريب، كما كان أول رئيس تحرير

لمجلة نور الإسلام وهي المجلة التي أصدرتها مشيخة الأزهر سنة ١٣٤٩ هـ.

وللشيخ محمد الخضر حسين يرجع الفضل في تكوين جمعية تعاون جاليات افريقيا الشمالية في مصر قبل حوالي عام ١٩٢٤م، وكان يرأس هذه الجمعية بنفسه، وهدفها رفع مستوى تلك الجاليات من الناحيتين الثقافية والاجتماعية .

غير أن هذه الجمعية لم تعش طويلاً، لأن استعماراً ثلاثياً: إيطاليا وفرنسياً وإسبانيا كان لها بالمرصاد فقضى عليها في سنواتها الأولى . .

وللفقيد الكبير عدا كتابيه السالفي الذكر، محاضرات ورسائل عديدة مطبوعة ومتداولة، وهو كاتب بليغ وله ديوان شعر مطبوع، وقد اشتهر بمقالاته وبحوثه في كبرى المجلات الإسلامية.

وعندما صدرت مجلة لواء الإسلام لصاحبها الوزير السابق الأستاذ أحمد حمزة كان الشيخ الخضر يرأس تحريرها وظل بها إلى أن عين شيخاً للأزهر، ثم استأنف نشر مقالاته فيها بعد تنحيه من المشيخة، وآخر مقالاته فيها في جزء رجب الأخير .

كما كان عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر منذ إنشائه قبيل الحرب العالمية الثانية.

وكتب الأستاذ أنور الجندي عن محمد الخضر حسين يقول:

« كان نظام التعليم في المعهد الزيتوني من أسباب تنافس أصحاب المذهبين: المالكي والحنفي في ميدان العلم، وقد أخرج جامع الزيتونة فقهاء يعتزون بعلمهم ويزهدون في المناصب، أدركت من هؤلاء فقهاء وأساتذة بلغوا الغاية في سعة العلم وتحقيق البحث، مثل عمر بن الشيخ، وأحمد بن الخوجة ومحمد النجار، ومن نظر في فتاوى هؤلاء الأساتذة أو رسائلهم التي حرروا بها بعض المسائل العويصة رآهم كيف يرجعون إلى

الأصول والقواعد ومراعاة المصالح، ولا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتناولوها بالنقد والمناقشة .

ويدلنا التاريخ القريب على أن بعض رجال الدولة التونسية عندما اتجهوا الى إصلاح الحالة السياسية أو العلمية أو الاجتماعية، وجدوا فقهاء يدركون مقتضيات العصر، ويعرفون كيف تسعها أصول الشريعة بحق، فكانوا يعقدون منهم بعض لجانهم، ويستنيرون بآرائهم مثل أساتذتنا: عمر ابن الشيخ، وسالم أبو حاجب، ومصطفى رضوان، وما زال الرسوخ في الفقه، وربط الأحكام بأصولها، من مواضع عناية الأساتذة في جامعة الزيتونة لهذا العهد، يشهد بهذا ما نقرؤه في محاضراتهم ومقالاتهم التي تنشر في الصحف التونسية والمصرية .

كانوا يدرسون الفقه بأنظار مستقلة، وآراء تستضيء بالأدلة ويتفاضلون فيها على قدر تفاضلهم في العبقرية وسمو الهمة . .» .

لا شك كان محمد الخضر حسين علما من أعلام الفكر المغربي الإسلامي، مكافحاً وطنياً، ومغترباً في سبيل الحفاظ على حرية الكلمة، وأقام كابن خلدون بقية عمره في مصر، ورقي فيها إلى أعلى المناصب، وعمل في ميداني الإصلاح الإسلامي والقياسي اللغوي، وعمل في التدريس والصحافة والكفاح الوطني، ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعية الشبان المسلمين، وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب وقضاياه، ومعلماً قوياً يستصرخ المشارقة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة، فهو منذ أقام في مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة، ويعمل في كل هذه الميادين: الإسلام واللغة والكفاح السياسي .

وكان محمد الخضر حسين مستنيراً متفتح الذهن يدعو إلى الإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة، فهو يعتمد الرأي حيث يثبته الدليل،

ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، ويثق بالرواية، بعد أن يسلمها النقد إلى صدق الغاية...

ومن رأيه أن على العلماء قول كلمة الحق لأهل الحل والعقد دائما، وعدم التوقف عنها.

«لا ينبغي لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقاً مهماً لفتوا إليه أنظارهم، وأعانوا على إقامته.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم في سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام في وجه الباطل فأوذي فتجلد للأذى».

وقد كانت حياة الخضر حسين رمزاً على هذا المعنى، معنى طلب الحرية والهجرة من بيئة الظلم، فقد فر من تونس ومن الشام ومن تركيا، وكان فراره ليحتفظ لنفسه بحقه في الكلمة، يقول: «نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها «نقطة» وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهب من مجالس علمائها، كان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت الأدب من أولى نشأتي. وحاولت وأنا في سن الثانية عشرة نظم الشعر. وفي هذا العهد انتقلت أسرتي إلى مدينة تونس، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة «وكان ذلك عام ١٨٩٩، أحب أستاذه الشيخ سالم أبو حاجب الذي كان يحثه على البحث»، ويلاقي السؤال المهم بابتهاج، ويدعو للطالب بالتفتح يقول: «كان يقول الشعر مع كونه يغوص على المسائل العلمية بفكر ثاقب» وكان الشيخ أبو سالم قد رفض وسام السلطان ووسام الباى، فأحب منه الشيخ الخضر هذا الاعتداد بالنفس، «بعد أن نلت درجة العالمية أنشأت مجلة علمية أدبية، وهي أول مجلة أنشئت بالمغرب، فأنكر علي، بعض الشيوخ، وظن أنها تفتح باب

الاجتهاد، وشجعني على إنشائها شيخنا أبو حاجب، كما شجعني عليها الوزير محمد أبو عنور.

كانت خطته الإصلاح الاجتماعي والديني، والعمل لإعادة مجد الإسلام، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع السلطات بشأن العمل في القضاء، بعد أن وليه في بنزرت ١٩٠٥، إذ فضل العودة إلى التدريس في الزيتونة، فلما خاطبته المحكمة الفرنسية ١٣٢٥ هـ بالعمل في المحكمة عضواً ليحضر حكمها بين الوطني والفرنسي، امتنع ولم يقبل أن يصدر الحكم الجائر.

واستقر رأيه إثر ذلك على الهجرة إلى الشرق، فاستوطن دمشق عام ١٩١٢، وكانت تحت سلطات العثمانيين، فنصب للتدريس في المدرسة السلطانية في كرسي الشيخ محمد عبده.

ثم اعتقله جمال باشا حاكم الشام، ورحل إلى الآستانة فأسند إليه التحرير بالقسم العربي بوزارة الحربية، وحين احتل الحلفاء الآستانة رحل مع زعماء الحركة الإسلامية عبد العزيز شاويش وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد.

وعاد الى دمشق ١٩١٨ في عهد الحكومة العربية لفيصل، وعهد اليه بالتدريس في المدرسة السلطانية، ولكن فرنسا لم تلبث أن بسطت سلطانها على سوريا فترك دمشق إلى القاهرة ١٩١٩، وفي مصر عرف الشيخ أحمد تيمور باشا الذي كان خير رفقائه، وكان له فضل واضح في إنشاء جمعية الشبان المسلمين مع السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح. كما أنشأ من بعد جمعية الهداية الإسلامية ومجلة الهداية الإسلامية، وتولى ثمة مجلة لواء الإسلام و(مجلة الأزهر)، واتصل بالأزهر ونال إجازته، وعمل في كلياته، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء، فشيخاً للأزهر عام ١٩٥٢، وعضوا في مجمع اللغة العربية.

وتطلع إلى مجد المغرب وحريته.

وقد كانت مجلة الهداية: مجلة مغربية واضحة الدلالة، في كتابتها وأبحاثها، ودفاعها عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية، ورأس جبهة شمال افريقيا، التي ضهمت الرجال الذين سعوا نحو مصر من أجزاء المغرب العربي.

وكان الشيخ الخضر كاتباً وشاعراً له شعر كثير جيد، وقد وصفه الفاضل ابن عاشور[1] فقال: كان كاتباً بليغاً ذا طبع خاص وأسلوب قوي الروح الأدبية، فصيح العبارة بليغ التركيب، ينزع إلى طرائق كتاب الترسل الأولين، رحل عام ١٩١٢ إلى مصر وسورية وتركية، فكتب رحلة بديعة نشرت في مجلة الزهرة، طافحة بانتقاداته وأفكاره.

وأشار إلى مجلة السعادة العظمى (التي أصدرها في تونس ١٩٠٤) فقال: انها كانت مركزاً للحركة الفكرية وقوة توجيهية متصلة بجميع أهل الثقافة العربية يجتمع تحتها شقان متباعدان . . . ولم تدم إلا عاماً ناقصاً .

وللخضر حسين: مؤلفات متعددة أهمها :

محمد رسول الله، رسائل الإصلاح ، آداب الحرب في الإسلام، القياس في اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى عشرات الفصول والمقالات في صحف مصر والمغرب والشام . . .

---

(١) الحركة الفكرية والأدبية في تونس .

الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج

قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢ جمادي الأولى سنة ١٣٧٣ (٧ يناير سنة ١٩٥٤) الموافقة على قبول الاستقالة المقدمة من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، واختار لهذا المنصب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج عضو جماعة كبار العلماء وأستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة إبراهيم وعضو لجنة وضع مشروع الدستور.

وفي يوم السبت ٤ جمادي الأولى (٩ يناير) صدر قرار مجلس الوزراء الخاص بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخاً للأزهر، وقد أبلغته السكرتيرية العامة لمجلس الوزراء إلى فضيلته.

وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج مولود بمدينة أسيوط سنة ١٣١٤ (١٨٩٦) ونال شهادة العالمية بالمرتبة الأولى سنة ١٣٤١ (١٩٢٣) وشهادة التخصص بالمرتبة الأولى أيضاً سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦) وعين بعد تخرجه مدرساً بمعهد أسيوط الديني ثم نقل إلى المعهد الأزهري سنة ١٩٣١ ثم اختير أستاذاً بكلية الشريعة سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣). وفي سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦) اختير عضواً في أول بعثة للأزهر إلى أوربا ومكث في فرنسا سبع سنوات وثلاثة أشهر. ونال الدكتوراه من جامعة السوربون، وعاد من فرنسا سنة ١٣٦٢ (١٩٤٣) فاختير للتدريس في قسم تخصص القضاء

الشرعي، ثم عين مفتشاً للعلوم الدينية والعربية بالمعاهد الأزهرية، وعين شيخاً لمعهد الزقازيق الديني، ثم شيخاً للقسم العام والبعوث الإسلامية بالأزهر، وعضواً دائماً وسكرتيراً فنياً للجنة الفتوى بالأزهر وقد كان في عضوية هذه اللجنة منذ إنشائها في سنة ١٩٣٥، واختير أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق في جامعة إبراهيم، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٣٧٠ (١٩٥١) وكان موضوع رسالته «السياسة الشرعية والفقه الإسلامي». واختير عضواً في لجنة وضع مشروع الدستور الجديد عند تكوينها في العام الماضي.

وفي صباح يوم الاثنين ١١ يناير توجه فضيلة الأستاذ الأكبر إلى إدارة المعاهد الدينية حيث تسلم مهام منصبه الجديد، وكانت في استقبال فضيلته جموع حاشدة من أساتذة الأزهر وطلابه، وتعالت الهتافات بحياة فضيلته وحياة رجال الثورة الأحرار.

وقد أقبل أعضاء جماعة كبار العلماء وأساتذة الكليات والمعاهد الدينية والموظفون الإداريون على مكتب فضيلته مهنئين. وبعد أن استمع فضيلته لكلماتهم أطل على جموع الأزهريين المحتشدين أمام مبنى الإدارة وارتجل الكلمة الآتية:

«أشكر لكم هذه الحفاوة البالغة وهذا الاستقبال الرائع. وإني أرجو أن يوفقني الله لأن أتقدم بالأزهر إلى المكانة العالية التي كان يتبوؤها من قبل.

وإني أبشركم بأن بوادر هذا المستقبل الزاهر المرجو للأزهر قد لمستها في جلسات قصيرة خفيفة مع رجال هذا العهد. فقد لمست فيهم إيماناً خالصاً وضراعة إلى الله تعالى أن يعينهم على ما فيه خير الأزهر.

والذي أرجوه أن ينصرف كل منا إلى واجبه وأن يحافظ على النظام.

الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

كتب الأستاذ العقاد في مجلة الأزهر عن الشيخ شلتوت يقول بعنوان :
« الإمام المصلح محمود شلتوت » :

في كتابات الإمام الفقيد ـ الشيخ محمود شلتوت ـ كلمات لها طابعها الذي تتميز به بين أمثالها من الكلمات في كتابات غيره، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية.

ولعل أبرز هذه الكلمات في كتاباته، وفي أحاديثه، كلمة «الشخصية».

يلحقها بوصف العقيدة، ووصف الفرائض المقدسة، بل يجعل العقيدة ـ كما يجعل الفريضة ـ معلماً من معالم شخصية الأمة، وشخصية الإنسان في حياته الباطنة وحياته الظاهرة.

قال رحمه الله في مفتتح مقالة عن رسالة الأزهر إن: «للإنسان في هذه الحياة فرداً كان أم جماعة شخصيتين، حسية ومعنوية، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين. وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه في الحياة، وماله من عقل وتدبير وثبات ومثابرة في سبيل مبدئه وهدفه».

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية: «إنها ترجع إلى إقامتها في

الإقليم الذي نشأت فيه، وإلى الأمل الذي تنتسب إليه». . . «أما شخصيتها المعنوية فهي ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة والحرص عليها وعلى معارفها التي تكونها، وعلى الإيمان بمصدر تلك المعارف. . . يكون لها بين الأمم من آثار الوجود المعنوي».

وكتب عن الصلاة في فصل من فصول «الإسلام عقيدة وشريعة»، فقال عنها: «إنها العنصر الثاني من عناصر الشخصية الإيمانية».

وعلى هذه الوتيرة كانت كلمة «الشخصية» تتردد في أحاديثه للدلالة على قوام كل «وجود» حتى يتميز به عقل الإنسان وضميره في حياته الروحية، وهي لمحة من لمحات التعبير الباطني تدل على معناها وتدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية واقترانها بحق الإنسان وواجبه وبالتبعة التي تناط بها الحقوق والواجبات، وتقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الأخرى في إبداء الرأي والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع.

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد، بل هي أولى تلك الخصال في كل ترتيب لكفايات المجتهدين. من كان له رأي وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد، لأنه يلقى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه، ويحجم عن العمل في سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل.

وتلك هي الخصلة التي توافرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأي والقياس في الشريعة، وبفضل الثقة التي كانت تملأ نفوسهم، من هذه الخصلة كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهل العلم من الصحابة والتابعين: إنهم رجال ونحن رجال.

وإذا اجتمع الاجتهاد في كلمات معدودات صح أن يقال إنه هو القدرة على الرجوع إلى روح القرآن الكريم، أو أنه بعبارة أخرى تفسير

المذاهب بمعاني القرآن الكريم، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعاني المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها.

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين، وكان هذا هو منهجه في الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه، مستقلة عما يضاف إليها من شروح المختلفين وتأويلات أصحاب الرأي أو أصحاب اللغة من المفسرين.

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهى هذا المنهج في تقديمه لتفسير الإمام الفقيد فقال: «التفسير الذي نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن».

ثم قال عن المنهج الذي اختاره الأستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال: إنه منهج «جعل السورة وحدة واحدة، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادىء إنسانية عامة»، وأنه لا يقحم في القرآن على القرآن من رأي خارج عنه، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضاً كما أطلق الحرية للقرآن في أن يدلي بما يريد دون أن يحمل على ما يراد.

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن تفسيراً للمسلمين جميعاً، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين، وهي أمانة لا يضطلع بها غير أهلها من القادرين على الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بما ينبغي للمجتهد من الشجاعة الصادقة ووسائل الإقناع بإحسان، وما ينبغي للمجتهد المعلم خاصة من الصمود إلى غاية التعليم، وغاية المعهد العلمي الذي يتولاه.

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامي

الأكبر. فقال في بضع كلمات: «إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين».

ومن أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب في ناحية إعجازه التي لا مراء فيها، وهي معجزة الأثر الخالد التي نستطيع نحن ـ أبناء هذا العصر ـ أن ندركها وأن يكون إدراكنا لها أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين.

معجزة الأثر في ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التي شهدها أبناء القرن الأول ثم شهدها أبناء القرون الأولى بعد عصر الدعوة... فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التي لا نظير لها والتي تقاصرت عنها الهمم ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله.

أربعمائة مليون من بني آدم فرقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان، وجمعتهم كلمات القرآن.

وكلمات حفظت اللغة التي نزلت بها وليست هذه اللغة هي التي حفظتها، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس، ولم تعش لغة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام وبقيت لغة القرآن حية في عالم الديانة وفي عالم الكتابة وفي عالم الثقافة، وستحيا غداً كما حييت بالأمس، ماشاء الله، وصح فيها قول الأستاذ الفقيه: «إنها ليست في هذا المقام عربية الإقليم والجو ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصري العروبة والإسلام...».

ولما تكلم عن غايته من التعليم في المعهد الأكبر الذي تولاه قال:

«نريد تخريج تبريز لأئمة في اللغة وفروعها وأئمة في الفقه وأصوله، نريده تخريجاً أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمي الـذي يكون الشخصيـة الفقهية والشخصية اللغوية العربية، لا نريده تخريجاً نلتزم فيه مخلفات الماضي من آراء ومذاهب بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن حاجة اليوم في الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالأمس، وأن نؤمن بأن فضل الله في كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين».

ونستعير من أسلوب الفقيد فنقول إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر «شخصيته» على تمامها كما ينبغي أن يضطلع به المجتهـد في جميع العصور، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هذا الذي نعيش فيه، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذي يواجهه المجتهدون عما قريب.

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له في هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهراً بهذا الجلاء وهذه الضرورة في عصر من عصوره الماضية.

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين في العصر الذي ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الأجنبي ووجب أن تحل في مكانها روابط القربى بين أمم الإسلام على تباعد الديار وتباعد الشيع والمذاهب التي لا بقاء لها مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين. .

وها هنا عنصر اللغة في عصر النهضة العربية وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التي تتحد بها ثقافة الإسلام في جميع اللغات.

وهـاهنا عنصـر «الاستقلال» في عصـر الحريـة الفكريـة أو عصر «الإنسان» الحر في الجماعة الحرة، وقد مضت الجماعات في طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستقلال.

وها هنا العصر الذي أصبح فيه معهد الإسلام الأكبر كما قال الشيخ رحمه الله: «يضـم السوداني، والمغربي، والحبشي، واليمني، والشامي،

والفلسطيني، والأندونيسي، والتركستاني، والسعودي، والأفغاني، والتركي، والروسي، واليوناني، واليوغسلافي، والكردي، والعراقي، والكويتي، والإيراني، والسيامي، والباكستاني، والفليبيني، والملاوي، والبرمي، والأردني، واللبناني، والزنجباري، والأوغندي، والليبي، والتونسي، والجزائري، والمراكشي، والأرتيري، والسنغالي، والصومالي، والنيجيري»... إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الأيام بلا انقطاع لا جرم كان من بشائر الأمل - كما أسلفنا في غير هذا الموضع - أن ينهض الشيخ شلتوت بمشيخة الأزهر في الزمن الذي تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبي عليها وبين هذا المعهد الذي لا معهد في العالم الإسلامي أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخلف بين المسلم والمسلم حينما كان في أقاصي البلدان.

«ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة، تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار».

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات في مجمع اللغة العربية فتعودنا أن نعرفه «قرآنياً» في دراسته لأسرار اللغة، قبل أن نعرفه «لغوياً» في دراسته لأسرار القرآن، وكنا نسمعه يقول: إن القرآن معجز بما هو به قرآن، ويعني بذلك نسقه الذي ينتظم ألفاظه ومعانيه ويوحي من معانيها بما ليس في مفردات الكلم ولا في أجزائه التي يقتضيها الإعراب في كل عبارة.. فليست الكلمة الواحدة هي محل إعجاز، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التي تتم بها جملة الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر والجار والمجرور أو المضاف والمضاف إليه، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ في النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان، وبين الوحي والبصيرة، مما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان. وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتاباً للمسلمين جميعاً يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف، أو

يختلف فيه المختلفون ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه في وجهات نظره بين حين وحين، وبين اعتبار واعتبار.

وبهذه النظرة «القرآنية» عمل الشيخ الأكبر في تنظيمه الدروس بمعاهد التعليم، كما عمل على هذه الهداية في علاقته بالأمم الإسلامية وعلاقته ببلاد العرب أجمعين. والجديد في خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية، أو اللغة القرآنية، شيء يتعلمه العربي المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربي، فلم يكن على المسلمين غضاضة في هذه المساواة الشاملة، ولم يكن للعربي إيثار على غيره؛ لأن عروبته في هذا المنهج هي عروبة القرآن الذي يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس، وبكل لسان.

تولى مشيخة الأزهر بعد استقالة الشيخ عبد الرحمن تاج عام ١٩٥٨، وقد رحب بتوليه المشيخة العالم الإسلامي كافة، وظل في المشيخة سنوات عديدة، وفي عهده صدر قانون تطوير الأزهر الشريف

وقام برحلات كثيرة إلى بلاد العالم الإسلامي.

كان شيخ الأزهر محمود شلتوت على موعد لا يستطيع أن يتخلف عنه.. وتحدد هذا الموعد بالذات في (ليلة الإسراء) و (ليلة الجمعة) وفي مستشفى العجوزة.. وفي نهاية اللحظة الأخيرة لسبعين عاما، وسبعة اشهر، وعشرين يوما وخمس دقائق.. فقد صادف ميلاده الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من مساء ٢٢ ابريل ١٨٩٣ في منية بني منصور بمحافظة البحيرة.. كانت الدقائق الخمس هي مدة النوبة القلبية المفاجئة التي أسلم في نهايتها روحه إلى بارئها في ١٣/١٢/١٩٦٣.

لم يكن الشيخ مرحا في يوم من الأيام أكثر منه في اليوم الأخير في حياته.. فقد أفاق من العملية التي أجريت له في الصباح بعد ٣ ساعات من إجرائها ودعا أسرته.. وظل ينادي كلا منهم باسمه ويداعبه.. كما استدعى أحفاده الصغار وظل يداعبهم ويبتسم لهم ابتسامة عريضة لم تفارق شفتيه طول اليوم حتى فاجأته النوبة.

وكان آخرما عرضه عليه سكرتيره الخاص أحمد نصار ونجله المقدم الهادي شلتوت رسالة رقيقة من الخارج.. من الرئيس أحمد بن بيللا رئيس الجزائر، وبرقية داخلية بعث بها من طهطا محمود عبد العزيز رفاعة يستفسر فيها عن صحة شيخ الإسلام.

كما كان آخر ما كتبه بخطه ترجمة كاملة لحياته طلبتها إحدى المجلات في الخارج وبحثا جديداً عن تنظيم النسل وحقوق المرأة في الإسلام وصلاحية المرأة المسلمة للمساهمة في بناء المجتمع.

وكانت آخر الدعوات التي تلقاها الشيخ شلتوت من الخارج ولن يتمكن من تلبيتها هي دعوات لزيارة الهند ويوجوسلافيا وجنوب أفريقيا والجزائر واليمن وإيطاليا وألمانيا غ.

كان الشيخ شلتوت دائما محل تقدير العالمين الإسلامي والمسيحي. وقد تلقى أخيراً عرضاً من إحدى دور النشر بـ ١٥,٠٠٠ جنيه لترجمة بعض كتبه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية. كما ترجمت له عدة دول كتبه التي اصدرها وتعتبر مراجع هامة في الشريعة الإسلامية.

وخلال رحلته الأخيرة للشرق الأقصى عام ١٩٦١ وضع رئيس جمهورية الفليبين طائرته الخاصة وياوره الخاص تحت تصرفه طوال رحلته..

وفي مؤتمر لاهاى عام ١٩٣٧ تمكن بأبحاثه التي قدمها للمؤتمر ان يحصل على قرار إجماعي بصلاحية الشريعة الإسلامية مصدراً للتشريع في العالم.

وقد منحته أربع دول الدكتوراه الفخرية كما منحته أكاديمية شيلي درجة الزمالة الفخرية وأهدى إليه رئيس الكاميرون قلادة تقديراً لأبحاثه العلمية. وكان الأجنبي الوحيد الذي رأس المجلس الأعلى لجمهورية أندونيسيا أثناء وجوده هناك. كما أصدر قراراً خاصاً بتعيين قائد الجيش ووزير الدفاع إماما لمسجد سوكارنو بالقصر الجمهوري. وقد زاره في منزله

بمصر الجديدة عدد كبير من زعماء العالم الإسلامي ورؤساء الدول، منهم الرؤساء عبد السلام عارف والسلال وأحمد بن بيللا والإمبراطور هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة.

إن نواب الرئيس وأعضاء مجلس الرياسة ورئيس المجلس التنفيذي والوزراء أبو إلا أن يشيعوا جنازته سيراً على أقدامهم من المسجد لازهر حتى الامام الشافعي تكريماً لرحلته الأخيرة التي ترك وراءها أماكن خلت بفقده هي عضوية كبار العلماء التي شغلها عام ١٩٤١ وعضوية المجمع اللغوي التي شغلها عام ١٩٤٦ وعضوية المؤتمر الإسلامي التي شغلها عام ١٩٥٧ وعضوية مجلس الإذاعة الذي شغله عام ١٩٥٠ ومشيخة الأزهر التي شغلها عام ١٩٥٨ .

الشيخ حسن مأمون

الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر. صدر قرار جمهوري في شهر صفر ١٣٨٤ هـ يوليو ١٩٦٤ بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخاً للأزهر، ويعتبر فضيلته الشيخ التاسع والثلاثين في تعداد شيوخ الأزهر، ومن الجدير بالذكر أن منصب شيخ الأزهر شاغر منذ ١٣ ديسمبر الماضي إثر وفاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون من مواليد عام ١٨٩٤ بحي الخليفة بالقاهرة، وظل يعمل في مناصب القضاء بمصر والسودان خمسة وأربعين عاماً، وفي عام ١٩٤١ عين قاضياً لقضاة السودان وظل في منصبه ست سنوات عاد بعدها إلى القاهرة ـ بعد موقفه الوطني المعروف ـ رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية، ثم عضوا في المحكمة الشرعية العليا ثم نائباً لها ثم رئيساً، وفي عام ١٩٥٥ عين مفتياً للديار المصرية خلفاً لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين مخلوف إلى أن أحيل إلى الاستيداع. وكان أن صدر القرار الجمهوري في أواخر شهر يوليو الماضي بتعيينه إماماً أكبر وشيخاً للجامع الأزهر.

وينص قانون تطوير الأزهر الذي صدر في يونيو ١٩٦١ على أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام، وله الرياسة والتوجيه في كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية، ويرأس المجلس الأعلى للأزهر.

وقد صدر مع القرار الجمهوري قرار آخر في ١٤ يوليو ١٩٦٤ كان لصدوره بتعيين العالم الأديب فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري مديراً لجامعة الأزهر هزة سرور غمرت الأوساط الأزهرية وغير الأزهرية.

والذي لا شك فيه أن الجامعة الأزهرية في تطورها الجديد ـ حيث أريد لها أن تدخل معترك الحياة في شتى ميادين المعرفة، كانت في حاجة إلى عالم أديب كالشيخ الباقوري، عرف عنه بالإضافة إلى علمه، سعة أفقه، ومرونة تفكيره، وتمتعه بطاقة كبرى من الحيوية والنشاط.

الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الفحام

تقدم الاستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون استقالته من المشيخة وعين الشيخ الدكتور محمد الفحام شيخاً للأزهر وذلك يوم الثلاثاء ٤ رجب ١٣٨٩ هـ - ١٦ من سبتمبر ١٩٦٩.

لقد ولد الدكتور محمد الفحام بالإسكندرية في ١٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٤ م وسلك في تعلمه المسلك الذائع في عصره، فحفظ القرآن الكريم، ثم لحق بمعهد الإسكندرية الديني، وقضى به سنوات حصل فيها على شهادته الابتدائية والثانوية، ثم درس بالجامع الأزهر ونال شهادته العالمية سنة ١٩٢٢ م.

فلما كانت سنة ١٩٣٦ م اختار الأزهر بعثة من خير المتخرجين فيه ليدرسوا في باريس دراسة تمكنهم من الحصول على الدكتوراه في الآداب، فكان منهم الدكتور محمد الفحام.

قضى في باريس هو وأسرته عشر سنوات، صبر فيها على ما لقى من شدائد في ظلمات الحرب العالمية الثانية، حتى حصل على الليسانس من السوربون، وعلى عدة دبلومات ثم حصل على الدكتوراه في الآداب بدرجة الشرف الممتازة من جامعة باريس سنة ١٩٤٦.

أما موضوع رسالته فكان (معجم عربي فرنسي لاصطلاحات النحويين والصرفيين العرب) وكان هذا المعجم مناط تقدير الأساتذة والمستشرقين

(١) من كلمة المجمع اللغوي في تأبينه ـ والكلمة للدكتور أحمد الحوفي.

وثنائهم، حتى إن أحدهم قال له: لست أظن أن عالماً زار فرنسا أكثر إلماماً باللغة العربية منك.

وعاد الشيخ إلى مصر. فوجد شهرته العلمية قد سبقته، فنهض بتدريس الأدب المقارن لطلبة كلية اللغة العربية بالأزهر، وبتدريس النحو بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية. وما زال يتدرج في وظائف التدريس حتى صار عميداً لكلية اللغة العربية إلى أن أحيل إلى التقاعد.

وحينئذ لم يركن إلى ما يركن إليه بعض المتقاعدين، بل انكب على البحث والدرس في مكتبته الخاصة، نحو عشر سنوات، إلى أن اختارته الدولة إماماً أكبر للأزهر الشريف سنة ١٩٦٩ م، ثم انتخبه مجمع اللغة العربية عضواً به واحتفل باستقباله في ١٢ من صفر سنة ١٣٩٢ هـ (٢٧ من مارس سنة ١٩٧٢ م).

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرتبط الفقيد بالعالم العربي والإسلامي ارتباطاً فكرياً وعملياً فقام برحلات متعددة إلى كثير من الأقطار.

زار لبنان، ومثل الأزهر في مؤتمر ثقافي سنة ١٩٤٧، وسافر إلى نيجيريا موفداً من الأزهر لدراسة أحوال المسلمين بها، واقتراح حلول لمشكلاتهم، وقضى هنالك خمسة أشهر، ولم يثنه عن السفر ما زعمه له بعض المبشرين المسيحيين الذين زاروا نيجيريا من قبل أنها مقبرة الرجل الأبيض، بل خرج من داره يتلو قول الله تعالى: ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً».

وكانت رحلته ذات آثار طيبة، إذ اختار بعض أبناء نيجيريا ليتعلموا بالأزهر، وتخير طائفة من علماء الأزهر ليدرسوا هنالك، ولم تلبث نيجيريا أن حفلت بعدة مدارس وبكثير من المعلمين العرب والقضاة العرب.

وبعد ذلك سافر إلى باكستان ثلاث مرات اتصل فيها بكثير من علمائها، وزار كثيراً من مدارسها ومعاهدها ومكتباتها.

ثم اتجه إلى موريتانيا، وأسهم في إنشاء مكتبة إسلامية كبيرة بها وشارك في مناقشات إسلامية، منحوه بعدها وثيقة مواطن موريتاني.

كذلك سافر إلى إندونيسيا ثلاث مرات ممثلاً للأزهر، وسافر إلى أسبانيا والسودان والجزائر وإيران وليبيا، وزار السعودية خمس مرات، مرتين للعمرة وثلاثاً للحج.

وللدكتور الفحام مؤلفات قيمة.

أذكر منها مذكراته في الأدب المقارن لطلبة كلية اللغة العربية بالأزهر، ومذكراته في النحو لطلبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية التي ذللت مسائله المعقدة، وسهلت صعوباته.

وله كتاب عن سيبويه.

كذلك تفوق في دراسة علم المنطق، فألف رسالة سماها (رسالة في الموجهات) وهو طالب بالسنة الثانية الثانوية، جمع فيها بين العلم وسهولة عرضه، فأعجب زملاؤه بما كتب، حتى إن طلاب شهادة العالمية المؤقتة نهلوا من معين رسالته.

وكذلك تفوق في دراسة الجغرافية.

وله بحوث نشر بعضها في مجلة مجمع اللغة العربية مثل:

١ ـ الشيخ خالد الأزهري:

ذكر فيه المصادر الاثنى عشر التي تحدثت عنه، وعرض أسماء أساتذته، وأسماء مؤلفاته الستة عشر التي وصلت إلينا، ومنها المقدمة الأزهرية، وشرحها، وإعراب الأجوبة وشرحها.

٢ ـ بحث آخر موضوعه سيبويه:

بدأه ببيان معنى كلمة سيبويه، فنقل ما ذكره القدماء، ثم نقل ما ذكره المستشرق كرنكو، ولم يعتمد على ما ذكره المستشرق، بل سأل علماء اللغة الفارسية، وانتهى إلى ترجيح أن كلمة سيبويه معناها تفاحة صغيرة لا رائحة التفاح، كما هو ذائع شائع.

وبعد هذا التمهيد الشائق ذكر عدة من العلماء اسم كل منهم سيبويه هم

سيبويه الأصفهاني، وسيبويه المغربي، وسيبويه المصري .

ثم انتقل إلى شيخهم سيبويه البصري إمام علماء البصرة، وشيخ النحاة، وأول من لقب بهذا اللقب، فتحدث عن مولده ومكانه وتلاميذه والمناظرة التي كانت بينه وبين الكسائي .

سافر رحمه الله إلى فرنسا، ونال منها أرفع درجاتها العلمية، وعاش فيها عشر سنوات، كان من المظنون أن تغير من عاداته ومن صلاته ومن مظهره، وزيه، ولكنه عاد إلى مصر حريصاً على أخلاقه الإسلامية الرفيعة، وكلفا بعاداته الطيبة التي ورثها من مصر المسلمة العريقة، ومشوقاً إلى زيه العربي الذي يميز علماء الأزهر، فلم نره إلا معمماً وفي جبة وقفطان، وقد يستعيض عن الجبة المعطف السابغ الذي يسمى كاكولة .

ولم يكن يتعالم بمعرفته الفرنسية وبإجادته لها، فيتكلف الرطانة بها حيث لا مسوغ لرطانة، ويتصيد المفردات منها ليحشرها في حديثه حشراً حيث تسعفه الألفاظ العربية . وليس من عيب على العالم باللغات أن يستشهد بها، وأن يستعين إذا ما مست حاجته أو دعت مناسبة أو كانت ثمة مقارنة واستشهاد .

الفهرس